بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة اليرموك
كلية الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها

الصورة النفسية في القرآن الكريم

"دراسة أدبية"

إعداد

محمود سليم محمد هياجنة
بكالوريوس في اللغة العربية وآدابها ١٩٨٨

إشراف الدكتور

مخيمر صالح

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة اليرموك

كلية الآداب

قسم اللغة العربية وآدابها

الصورة النفسية في القرآن الكريم

"دراسة أدبية"

د/٠٨٥٣

إعداد

محمود سليم محمد هياجنة

بكالوريوس في اللغة العربية وآدابها /قسم اللغة العربية /جامعة اليرموك/اربد ١٩٨٨

٢٠٠٠١٠١٠١٥

إشراف الدكتور:

مخيمر صالح

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها

تخصص: أدب ونقد - جامعة اليرموك - اربد

لجنة المناقشة:

الدكتور: مخيمر صالح يحيى.................................. مشرفاً ورئيساً

الأستاذ الدكتور: محمود محمد الدرابسة..............................عضواً

الدكتور: سالم مرعي الهدروسي....................................عضواً

الدكتور: عودة خليل أبو عودة.....................................عضواً

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢-٢٠٠٣م

الإهداء

قالت العرب: "لا يُدْرِكُ السابقُ"

وإذا كان الوفاء خلقاً عربياً إسلامياً ضمّد عُشّاقَهُ بكلّ أشكال الجمال والخلود فإنني أعترف بكل يد عاملة عملت على إثراء هذه اللغة في نفوس طلابها سواء في محاضر الجامعات أو في ساحات الورق، شاكراً لأساتذتي على وجه الخصُوص، قسم اللغة العربية جامعة اليرموك من أهل اللغة والبيان ما قدحوا من أفكار في عقولنا ما زالت تطلب المزيد.

الباحث

محمود الهياجنة

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة.....	أ
الإهداء.....	ب
الشكر.....	ج
فهرس المحتويات.....	د
الملخص باللغة العربية.....	هـ
المقدمة.....	١
التمهيد.....	٤
الفصل الأول:الصورة النفسية في محاور القرآن الكريم.....	١٨
١-محور المؤمنين.....	١٨
٢-محور الكافرين.....	٤٩
٣-محور المنافقين.....	٦٥
٤-نماذج من الصور النفسية في القصص القرآني.....	٩٢
الفصل الثاني:وظيفة الصورة النفسية في القرآن الكريم.....	١١٨
١-الموعظة والاعتبار.....	١١٨
٢-سبر أغوار النفس.....	١٤٧
٣-التشريع.....	١٥٩
الفصل الثالث:خصائص الصورة النفسية.....	١٦٧
١-التناسق الفني.....	١٦٧
٢-الإبداع في عرض الصور.....	١٨٤
٣-التقابل (المقابلة).....	١٩٣
٤-الإيجاز.....	١٩٩
٥-الإقناع العقلي والإمتاع الوجداني.....	٢٠٨
٦-قوة البيان ودقة الإجمال.....	٢١٣
الخاتمة.....	٢١٨
المراجع.....	٢٢١
الملخص باللغة الإنجليزية.....	٢٢٩

ملخص الرسالة

الصورة النفسية في القرآن الكريم

إعداد:

محمود سليم محمد هياجنة

إشراف الدكتور:

مخيمر صالح

تعالج هذه الرسالة موضوع الصورة النفسية في القرآن الكريم، وهذا الموضوع يشكل ظاهرة أدبية تستحق الدرس، لذا فقد حاول البحث جاهداً أن ينصف هذه الظاهرة ، فتناولها دراسة وتحليلاً وتأصيلاً بشكل مفصل.

وقد جاء في تمهيد وثلاثة فصول على النحو التالي:

١-**التمهيد:** انتهى إلى صيغة في تحديد المصطلح النقدي للصورة النفسية في القرآن الكريم.

٢-**الفصل الأول:** تم في هذا الفصل دراسة الصورة النفسية في ثلاثة محاور من القرآن: محور المؤمنين ومحور الكافرين ومحور المنافقين، بالإضافة إلى دراسة الصورة النفسية في نماذج من القصص القرآني.

٣-**الفصل الثاني:** تم في هذا الفصل دراسة وظيفة الصورة النفسية في القرآن الكريم من حيث الموعظة والاعتبار، وسبر أغوار النفس، والتشريع.

٤-**الفصل الثالث:** تم في هذا الفصل دراسة مجموعة من الخصائص التي تميزت بها الصورة النفسية في القرآن، مثل: التناسق الفني، والإبداع في عرض الصور، والمقابلة، والإيجاز، والإمتاع العقلي، والتأثير الوجداني.

النتائج والتوصيات:

النتائج:

١-في التمهيد: تم تحديد المصطلح النقدي للصورة النفسية في القرآن: إذ هو طريقة تعبيرية بالكلمات، لكشف ما يستكن في النفس الإنسانية إيجابا وسلبا وإبراز تلك النفس على ما هي عليه بطريقة تصويرية، إذ تبدو للمتلقي وكأنها أمر مشاهد محسوس.

٢-في الفصل الأول: كشفت الصورة النفسية الحجب عن خبايا النفس ومضمراتها وأظهرتها للعيان.

٣-في الفصل الثاني: توصل البحث إلى أن الصورة النفسية تمتاز بعدة وظائف في غاية الأهمية، تضفي على التعبير القرآني إعجازاً تبليغياً.

٤-الفصل الثالث: توصل البحث إلى أن الصورة النفسية تمتاز بمجموعة من الخصائص من أبرزها أنها تخاطب العقل والوجدان معاً.

التوصيات:

يدعو الباحث أصحاب الهمم والاستعدادات والمواهب أن يعكفوا على دراسة النص القرآني دراسة أدبية بلاغية تعتمد على الذوق العربي الأصيل، إذ القرآن حافل بالكنوز والأسرار الفنية والأدبية والنقدية ما لا حصر له.

هذا: وإنني أقدم خالص الشكر والعرفان لأستاذي الجليل الدكتور مخيمر صالح، الأستاذ المشرف الذي كان حريصاً أشد الحرص على إخراج هذا العمل، متابعاً لجميع خطواته في صبر وأناة.

كما أتقدم بوافر الشكر والتقدير لأساتذتي أعضاء لجنة المناقشة والحكم على ما بذلوه من صادق الجهد في قراءة الرسالة وإبداء الرأي القويم فيها: الأستاذ الدكتور محمود الدرابسة والدكتور سالم الهدروسي والدكتور عودة أبو عودة.

المقدمـــــــة:

الحمـــد لله الذي علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان، أنزل القرآن بلسان عربـــي مبين، والصلاة والسلام على أفصح الناس منطقاً، وأشرفهم لساناً، وأثبتهم جَـنانا ســيدنا محمـــد - صلى الله عليه وسلم- و على آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان.

أما بعد:

فـــإن القرآن الكريم كتاب الله الخالد، والآية الأولى للنبي -صلى الله عليه وســـلم- وهو معجزته الكبرى التي قدمها للناس، وعدّه علامة ودليلاً على نبوته، ورسالته للعالمين، وإن القرآن هو وحي الله إليه أودعه كل ما تحتاجه البشرية من توجـــيه وإرشـــاد، وتشـــريع وهداية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وجعل قـــراءته وترتيله عبادة تستلزم الأجر والثواب، وحثنا على تدبُّر آياته والتفكر في معانـــيه، حيـــث قال: (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)، وطلب إلينا أن نغـــوص فـــي أعماقه لاكتشاف مكنونه وأسراره، وأمرنا بالتماس حكمه واستنباط أحكامـــه، وجعل ذلك خبيئاً تحت الكلمات والحروف، مطوياً في تضاعيف الآيات، وثـــنايا الســـطور، ملحوظاً في تنوع الأساليب وتصاريف الكلم، مراعياً في حسن الأداء ودقة التعبير وإعجاز البيان.

وقـــد امـــتدت - فـــي كل عصر- يد طائفة من العلماء إلى القرآن بالبحث والتمحيص والكشف والإبانة، كدّوا فيه أذهانهم، وسهروا لأجله ليلهم، وأجالوا في آفاقـــه تفكـــيرهم ، فلم يغادروا صغيرة ولا كبيرة، ولم يتركوا جزئية ولا كلية إلا أنـــاروا أمـــام فهمهـــا الطريق، وقد أفاض عليهم من عطاياه، وخصهم بشيءٍ من خفاياه وخباياه، على مقدار ما بذلوا من الجهد وما أخلصوا لله القصد.

أمـــا الصورة النفسية في القرآن الكريم، فلم أعرف -بحدود اطلاعي- من أفـــرد لهـــا موضـــوعاً منفرداً إلا ما جاء في متفرقات الكتب، مثل:" في الظلال، والتصوير الفني في القرآن" لسيد قطب، ولكنه لم يتجاوز تفصيلاً ولا تلميحاً، وهذه مـــن الصـــعوبات التي واجهتني، وعلى كلٍ فقد أفدت من المرجعين إفادة لا تخفى على قارئ الرسالة.

ولهـــذا فقد رأى الباحث أن الحاجة ماسة إلى المزيد من الدراسات الأدبية المســـتنبطة من القرآن الكريم، في ضوء المفهوم النقدي الحديث، الذي ينظر إلى اللفظ حقيقة والمعنى حقيقة ثانية، والعلاقة القائمة بينهما حقيقة ثالثة، وذلك من أجل الكشـــف عن كثير من كنوزه ومكنوناته، وخبيئاته وأسراره، ومن أجل الإبانة عن القدرة الفنية والإبداع التصويري والأداء التعبيري، أليس القرآن مصدراً هاماً من مصادر ثقافتنا اللغوية والأدبية، ومنبع ثروتنا الفكرية الخالدة؟.

ومن هذا المنطلق، جاءت دراسة الباحث لظاهرة مهمة من ظواهر القرآن الكريم، ألا وهي " الصورة النفسية" مؤكدين الجانبين النقدي والبلاغي.

ويعود سبب اختيار الباحث لهذه الظاهرة من القرآن الكريم ، وفرة أبعادها التصويرية؛ إذ القرآن حافل بروائع الصور النفسية على اختلافها، ودقة مظاهرها الفنـــية؛ فهي رحبة الأكناف واسعة الجنبات، مما يعطينا جدة في النتائج، وفرصة لاســـتجلاء كنوزه ومكنونه وأسراره من جهة ، ولارتباط الصورة النفسية بالجانب الأدبـــي ارتباطاً وثيقاً وخاصاً، يكشف عما وراءها إلى ما في التعبير القرآني من تفـــرد بخصائصه التي يمتاز بها عن غيره من فنون القول، وبخاصة سبر أغوار النفس ومضمراتها.

ولعـــلّ اهـــتمام الباحـــث بهذه الظاهرة، كونها أداة أو وسيلة لها طريقتها الخاصـــة فـــي عرض المعاني، مقترنة في ألفاظها، ليتفاعل متلقي النص، فيسبر أغواره من خلال السير وراء الصورة في استكناه العلاقات القائمةفي التعبير.

وتبســـيطا للتـــناول جعل الباحث في ثلاثة فصول يتصدرها تمهيد ، تكفل بكشـــف مصطلح الصورة النفسية، وذلك بالاستعانة بما عرضه النقاد والبلاغيون من تحديد لمفهوم الصورة والخيال.

فأما الفصل الأول: فكان بعنوان الصورة النفسية في محاور القرآن الكريم: محور المؤمنين، ومحور الكافرين، ومحور المنافقين، ونماذج من الصور النفسية فـــي القصـــص القرآني، وقد عَنِي كل عنوان في هذا الفصل باستقصاء الصورة النفســـية فـــي تلك المحاور من خلال دلالة الألفاظ، وقرائن الأحوال، وبما تحتمه

طبيعة الموضوع التحليلية والتفسيرية الأدبية والنقدية، لاستخراج الكنوز الفنية في استكناه أغوار النفس الإنسانية.

وأما الفصل الثاني فكان بعنوان: وظيفة الصورة النفسية في القرآن الكريم، فكان هذا الفصل حافلاً بإظهار الكنوز الفنية في الإبانة عن وظيفة الصورة النفسية في الموعظة والاعتبار، وسبر أغوار النفس الإنسانية، والتشريع. وأما الفصل الثالث فكان بعنوان: خصائص الصورة النفسية، إذ طاف هذا الفصل حول مجموعة من الخصائص هي: التناسق الفني، والإبداع في عرض الصور، والتقابل أو المقابلة في عرض الصور، والإيجاز، والتأثير الوجداني، وقوة البيان ودقة الإجمال.

وبعد هذه الدراسة تأتي خاتمة البحث والنتائج في الموضوع. ذلك ما حاوله البحث في هذه الدراسة في مجملها، دون الادعاء بأن البحث قد أتى على كل ما يمكن أن يقال في هذا الموضوع، ولكننا التزمنا بحدود المنهج الذي رسمناه.

والباحث يرجو بهذه المحاولة أن يتاح لمثلها أو لما هو خير منها ويدعو أصحاب الاستعدادات والمواهب أن يتعمقوا في دراسة هذه الظاهرة. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

وأخيراً أقدم خالص الامتنان والعرفان بالجميل إلى كل من ساعدني في إنجاز هذا البحث وأخص بالذكر استاذي الجليل الدكتور مخيمر صالح، الأستاذ المشرف الذي كان وراء كل كلمة صائبة فيه، فقد كان حريصاً أشد الحرص على نجاح هذا العمل، وموجهاً أكرم التوجيه له، متابعاً لجميع خطواته في صبر وأناه حتى جاء هذا البحث غرساً في حرثه الطيب، فله وافر الشكر وعظيم الإجلال والتقدير.

كما أتقدم بوافر الشكر والامتنان لأساتذتي أعضاء لجنة المناقشة والحكم: الأستاذ الدكتور محمود الدرابسة، والدكتور سالم الهدروسي والدكتور عودة أبو عودة.

والله أسأل أن يجعله فهماً وإدراكاً، أستزيد بهما إلى مزيد من العلم والعمل معاً، وأن يجعله في صحيفتي يوم الدين إنه -سبحانه- نعم المولى ونعم المصير.

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد:

لـــيس ثمـــة مـــا يؤســـس لخصوصية العمل الأدبي ، أكثر من قدرته على الإحاطة بكيفيات توصيل الخطاب ، مما يضمن له حدّاً أعلى من التحصيل الفني ، قوامـــه الإمكانـــات الأدبـــية حسب تجلياتها البلاغية والدلالية ، التي تعدُّ الصورة (Image) جزءا عضويا فيها.

إن الأدب فـــي جوهره ، قائم على الطبيعة الفنية ، التي تنهض به ، وعلى الكيفـــيات التـــي تترســـم بها مضامينه ، والصورة ثيمة أسلوبية ، لا تتورع عن الانســـجام مع المعطيات الدلالية والبلاغية ، التي تعتمل في النص الأدبي. من هنا تصـــبح غائـــياً ذات حضـــور أبعد ما يكون عن المعيارية ، وذلك لإحالتها على المرجع الإيحائي في الإبلاغ والتوصيل.

فالصـــورة ابنة الخيال ، الذي يجمع المتضادات ، ويصهر المتنافرات في بوتقـــة واحـــدة ؛ لِـــنَقُل إنها تجربة حياتية وإنسانية ، بكل ما فيها من أبعاد داخلية وخارجـــية. وليس ثمة ما يستطيع التحليق بالعمل الأدبي ، سوى ما ينهض به من صـــور تحلـــق بـــه في فضاءات الإبداع ، أيّاً كان مضمونه وغايته ، وأيًّا كانت مضـــامينه وغاياته ليكون ذا فاعلية تثويرية لبؤر النص الفني ، وحقل الاختلافات فيه.

كثـــيرة هـــي النصـــوص التي ظلت تنوء بمضامينها وغاياتها عن الفاعلية الفنـــية؛ لأنها لم تستطع أن تجعل من هذه المضامين والغايات فناً نابضا بالصورة المبهرة المحلقة، لكونها لم ترتكز على قيم التنوع الدلالي الذي يفضي إلى الحيوية في الصورة.

أمـــا النصوص الأدبية الحية ، التي كانت ركيزتها قيم التنوع الدلالي فهي التي حلقت في فضاءات الصورة، وانتقلت من الجزء الضيق إلى الحيز المطلق ، حيـــث لـــم تقـــف اللغة حاجزاً دون انتشارها ، لأنها لم تعد مجرّد ألفاظ وتراكيب لغوية، بل صارت روحاً تسكن في كل جسد.

يقول العقاد في الشعر : " إن الشعر الذي يستحق أن يسمع ويحفظ هو الذي يريـنا ما في الدنيا ، وما في نفس الإنسان ، ونعرف فيه الطبيعة على لون صادق ".(١)

إن مصـطلح " الصـورة " الـيوم ، من أكثر المصطلحات الأدبية أهمية وأشـدها صـلة بمقاييس الجودة الأدبية ، لما للصورة من أهمية بالغة في إحداث التأثـير والإثـارة في المتلقي قارئاً أو سامعا ، ولما لها من قدر كبير من المتعة الوجدانـية للنفس البشرية ، وعلى هذا الأساس ؛ فقد أفْعمَ الدرس الأدبي المعاصر بمصـطلح " الصـورة " فـتعددت المفاهيم واختلفت المناهج التي تتصل بدراسة الصـورة ، وفقاً لدرجة اهتمام كل فريق بجانب معين منها ، وكثرة المزالق التي يقـود إلـيها طبـيعة البحث ، إذ هي " مادةٌ تخضع للوجدان والعاطفة ، أكثر من خضوعها للمنطق والعقل".(٢)

وفـي بحثنا عن تحديد مفهوم للصورة النفسية. سنحاول أن نعرض بإيجاز دون إسهاب لأبرز النصوص التي عنت بمصطلح " الصورة " قديمها وحديثها.

قديمـاً قـال الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) : "... والمعاني مطروحة في الطريق يعـرفها العجمـي والعربـي ، والقروي والبدوي ، وإنما الشأن في إقامة الوزن وسـهولة المخـرج ، وصحة الطبع ، وكثرة الماء ، وجودة السبك ، وإنما الشعر صياغة وضرب من النسج ، وجنس من التصوير".(٣)

وإذا ما سرنا مع الزمن إلى ما قبل الجرجاني نجد ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) وابـن طباطبا (ت ٣٢٢ هـ) وقدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) وغيرهم لم يختلفوا عن الجاحظ ، بالمبدأ الصناعي ذاته ، في الصناعة الشعرية ، إذ كان جُلُّ اهتمامهم منصبا على ثنائية اللفظ والمعنى.

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ، عباس محمود العقاد ، ص ١٥٤.

(٢) الصورة الفنية في شعر ابن دراج القسطلي ، د.أشرف على ذعرور ، ص ٩-١٠.

(٣) الحيوان ، الجاحظ ، ج٣ . ص ١٣١- ١٣٢.

فإذا ما وصلنا إلى عبد القاهر الجرجاني ، صاحب نظرية النظم (ت ٤٧١ هـ) ، نجده " لم ينظر إلى الشعر على أنه معنى أضيف إليه مبنى وإنما نظر إليه معنى ومبنى ، لا سبق لأحدهما على الآخر وهما ينتظمان في الصورة ".[١]

يقول عبد القاهر الجرجاني : "واعلم أن قولنا الصورة إنما هو تمثيل قياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا فلما رأينا البينونة بين آحاد الأجناس تكون من جهة فكان بَيْنُ إنسان ، من إنسان ، وفرس من فرس، بخصوصية تكون في صورة هذا ... ثم وجدنا بين المعنى في أحد البيتين وبينه في الآخر بينونة في عقولنا وفرقاً عبرناًعن ذلك الفرق وتلك البينونة بأن قلنا : للمعنى في هذا صورة غير صورته في ذلك ، وليست العبارة عن ذلك بالصورة شيئا نحن ابتدأناه فينكره منكر بل هو مستعمل في كلام العلماء ويكيفيك قول الجاحظ " وإنما الشعر صناعة وضرب من التصوير".[٢]

لقد جعل عبد القاهر الجرجاني من خصوصية الصورة أساساً فنيا في التقويم ، وربط أجزاء هذه الصورة بالعلائق منطلقا من ذوقه ، مستعينا بالنحو في ضبط ما يضبط من هذه العلائق أو الروابط بين الألفاظ إيماناً منه بأنها مطلقة وليست محددة ؛ فهو يقول : " واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علماً ، لا يعترضه الشك ، أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبُنى بعضها على بعض وتجعل هذه لسبب من تلك ".[٣]

لقد بَدَتْ دراسته للصورة :" خير ما تركه القدماء من حيث التحديد والتقسيم وإظهار روعتها وقيمتها الفنية ، وتوليد المعاني الجديدة ، وقد أرجع محاسن الكلام إليها".[٤] ، وعلى الرغم مما وصل إليه النقاد القدامى في استعمالهم لمصطلح "الصورة" إلا إن ثنائية اللفظ والمعنى ، قد شغلتهم عن تحديد مفهوم اصطلاحي دقيق لمصطلح "الصورة" فانبجست تصوراتهم ومفاهيمهم من هذا المبدأ.

---

(١) الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث ، بشرى موسى صالح ، ص ٢٣.

(٢) دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، ص ٣٦٥.

(٣) المرجع نفسه ، ص ٩٧.

(٤) عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده ، أحمد مطلوب ، ص ١٢٣.

أما البلاغيون والنقاد الحداثيون ، فقد أولَوْا هذا المصطلح "الصورة" أهمية بالغة وأعطوه أبعاداً كثيرة ، ونسجوا له تعريفات عدة ، ومفاهيم متباينة.

لقد عرّف "جابر عصفور الصورة بقوله :"الصورة هي طريقة خاصة من طرق التعبير أو وجه من أوجه الدلالة تنحصر أهميتها فيما تحدثه في معنى المعاني من خصوصية وتأثير. ولكن أيّاً كانت هذه الخصوصية أو ذاك التأثير ، فإن الصورة لن تغير من طبيعة المعنى في ذاته إنها لا تغير إلا من طريقة عرضه وكيفية تقديمه".(١)

فالصورة – إذن – من خلال هذا المفهوم "طريقة لاستحداث خصوصية التأثير في ذهن المتلقي بمختلف وجوه الدلالة التي يستقيها من النص في منهج تقديمه ، وكيفية تلقيه ، وما يحدثه ذلك عنده من متعة ذهنية أو تصور تخييلي نتيجة لهذا العرض السليم".(٢) وهذا ما أشار إليه سيد قطب في دراسته للتصوير الفني في القرآن الكريم حيث قال :"التصوير هو قاعدة التعبير في هذا الكتاب الجميل. القاعدة الأساسية المتبعة في جميع الأغراض".(٣)، ويقول في مكان آخر من الكتاب :"التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن ، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني ، والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة ، أو الحركة المتجددة ".(٤)

ويمكن أن نضيف إلى ذلك قول الأستاذ "أحمد الشايب" إذ يقول :" هذه الوسائل التي يحاول بها الأديب نقل فكرته وعاطفته معاً إلى قرائه أو سامعيه تدعى الصورة الأدبية أو الصورة الفنية".(٥) ، ثم يذكر أن لها معنيين "أحدهما ما يقابل المادة الأدبية ، ويظهر في الخيال والعبارة ، والثاني ما يقابل الأسلوب

---

(١) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، جابر عصفور ، ص ٣٩٢.

(٢) الصورة الفنية في المثل لقرآني ، د.محمد حسين على الصغير ، ص ٣٢.

(٣) التصوير الفني في القرآن الكريم ، سيد قطب ، ص٨.

(٤) المرجع نفسه ، ص ٣٢.

(٥) أصول النقد الأدبي ، الأستاذ أحمد فؤاد الشايب ، ص ٢٤٢.

ويتحقق بالوحدة".[1] ، ومقياس الصورة عنده "هو قدرتها على نقل الفكرة والعاطفة بأمانـــة ودقة – فالصورة هي العبارة الخارجية للحالة الداخلية – وهذا هو مقياسها الأصـــيل ، وكل ما تصفها به من روعة وقوة إنما مرجعه هذا التناسب بينها وبين مـــا تصور من عقل الكاتب ومزاجه تصويراً دقيقاً خاليا من الجفوة والتعقيد ، فيه روح الأديب وقلبه ، بحيث نقرأه كأنا نحادثه ، ونسمعه كأنا نعامله".[2]

يتضـــح مـــن كلامـــه أن "الصورة من جانبٍ قوة قادرة على نقل الفكرة ، وإبـــراز العاطفة ، وهي الشكل الخارجي المعبر عن الحالة النفسية للمنشئ وعن تفاعلـــه الداخلي، وهي الضوء الكاشف عن كفاءة المبدع الفنية ، وروحه الشفافة الرقـــيقة – نتيجة لايجاده الملاءمة بين نقل الفكرة وتعبيرها النفسي أسلوبياً – وبها يتمـــيز عقـــل المتكلم ويحكم عليها بالدقة والإبداع والتطوير دون وساطة أخرى ، وإنمـــا نقـــرأه تجسيداً ونسمعه تشخيصاً وإدراكا من خلال هذا التناسب والارتباط الـــذي حققه في هذا العمل الأدبي أو ذاك ، وهو الصورة ؛ فالصورة عنده إيجاد للملاءمة والتناسب بين الفكرة والأسلوب أو اللغة والأحاسيس".[3]

إن خـــوض غمـــار الصورة ومفهومها عند نقادنا المحدثين يدخلنا في بحر لجيٍّ من فوقه الإفراط في تقليد آراء النقاد الغربيين ومن تحته الإجهاز على أصالة البحث البلاغي والنقدي العربي في هذا المضمار.

إن اللفظة "الصورة" أخذت مدلولاً اصطلاحيا بلاغيا وفلسفيا عاما ، هجرت فيه مدلولاتها الحسية لتصبح مصطلحا حديثا ذا علاقة وشيجة بالتحليل البلاغي في إثـــارة المتلقـــي ليعمل الفكر ولكي يتحصل المعنى تحصيلا ويستخدم طاقة الخيال لـــرؤية ما يوحي به النص ، فهي " ما يتماثل بوساطة الكلام للمتلقي من مدركات حساً ، ومعقولات فهماً ، ومتخيلات تصوراً وموهومات تخميناً ، وأحاسيس وجداناً ، وما إلى ذلك من الأشياء والأمور التي تفضي إليها هذه القوة أو تلك ، من القوى المركـــبة في الإنسان وعياً ، ومن غير وعيٍ . إن الكلام الذي يمثل الصورة على

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥٩.

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٤٩ – ٢٥٠.

(٣) الصورة الفنية في المثل القرآني ،محمد حسين علي الصغير ، ص ٢٩.

هــذا النحو قد يكون كلمة مفردة وقد يكون جملة مركبة وقد يكون فقرة وقد يكون فقرة ممتدة وقد يكون نصاً مؤتلفاً".(١)

إن الــنهج السديد الذي يقربنا إلى سدرة الصواب فيما يخص فهم الصورة مــتوقف علــى فهم مصطلح (الخيال) ؛ فعلاقة القربى بينهما وشيجة ترتكز على أساس مكين متماسك وذلك لأن "الصورة هي أداة الخيال ، ووسيلته ومادته الهامة التي يمارس بها ومن خلالها فاعليته ونشاطه".(٢)

والخــيال هــو الملكة التي تشكل الصور الذهنية ، وتؤلف فيما بينها وتعيد تشــكيلها. علــى أنــه من المفيد أن نلفت النظر بأن مادة "الخيال" استخدمت في المفاهــيم اللغوية في خيال كل شيء ، فقد جاء في اللسان "والخيال كل شيء تراه كالظل ، والخيال هو خيال الطائر يرتفع في السماء فينظر إلى ظلّ نفسه فيرى أنه صــيْد فيــنفض عليه لا يجد شيئا وهو خاطف ظله ، والخيال خشبة توضع فيلقى علــيها الــثوب أو شــبهه للغنم أو الولد في الناقة ليفزع منها الذئب فلا يقربها ، والخيال والخيالة : الطيف ، وكذلك خيال الإنسان في المرآة وخياله في المنام هو صورةٌ تماثله".(٣)

وليس البحث بصدد تتبع التطور لمادة (الخيال) عند الفلاسفة وعلماء النفس ومــا حصل بينهما من مصاهرة مع الأدب وصنوه النقد الأدبي ، ويكفي أن يشير البحــث إلى الاستخدام اللغوي المعاصر لكلمة (الخيال) إذ هو "القدرة على تكوين صــور ذهنية لأشياء غابت عن متناول الحس. ولا تنحصر فاعليةُ هذه القدرة في مجــرد الاســتعادة الآلــية لمدركات حسية ترتبط بزمان أو مكان بعينه ، بل تمتد فاعليــتها إلــى ما أبعد وأرحب من ذلك فتعيد تشكيل المدركات وتبني منها عالما متحــيزا في جدته وتركيبه ، وتجمع بين الأشياء المتنافرة والعناصر المتباعدة في علاقات فريدة ، تذيب التنافر والتباعد وتخلق الانسجام والوحدة ، ومن هذه الزاوية يظهــر جانب القيمة الذي يصاحب كلمة "الخيال" في المصطلح النقدي المعاصر ،

---

(١) بناء الصورة الفنية في البيان العربي ، د.كامل حسن البصير ، ص ٢٦٧.

(٢) الصورة الفنية ، د.جابر عصفور ،١٤.

(٣) لسان العرب ، ابن منظور ، مادة "خيل".

الـــذي يـــتجلى فـــي القـــدرة على إيجاد التناغم والتوافق بين العناصر المتباعدة والمتنافرة داخل التجربة".[1]

تبيـــن للباحث أن الخيال عنصر ذو أهمية بالغة من عناصر الصورة لما له من قوة نفسية في عرض صور قوية مؤثرة ، وذلك بتصوير " حقيقة الشيء حتى يتوهم أنه ذو صورة مشاهدة".[2]

ولكون "وظيفة الأدب إبراز الحقائق في صورة أجمل من صورتها الأولى ؛ فقد صار الخيال من عُمُد الأدب ؛ إذ هو الطريق الطبيعي لهذا التصوير ولعرض تلك الحقائق في ثوب مثير جذاب".[3]

وهذا لا يعني أن "الخيال " الذي نتحدث عنه هو تحليق في أجواء بعيدة عن الواقع أو غوْر في غيابات التزييف والتضليل ، بل هو "الإدراك الوجداني المصوِّر للحقـــيقة المادية تصويراً قوياً مؤثراً".[4] هو خيال حقيقي ، متى وُجد تلقى الخبر الحق وكان على استقامة فلا غبار إن أطلقنا عليه "الخيال المستقيم"

فلو عاينا قول عُرْوَةَ بن الورد[5] :

أتهزأ مني أنْ سَمِنْتَ ، وأن ترى ... عليَّ شحوبَ الحقِّ والحقُّ جاهدُ

أقسِّمُ جسمي في جسومٍ كثيرة ... وأحْسُو قَراحَ الماءِ والماءُ باردُ

فهل نجد في هذا التعبير الجميل بما فيه من الخيال بُعداً عن الحقيقة؟ لقد ردّ الشـــاعر علـــى مـــن يهزأ به ويزدري نحول جسمه قائلاً "أقسِّم جسمي في جسوم كثيرة" ، فأعطانا صورتين معبرتين أجمل تعبير ، صورةً ترسم لنا ما كان يفعله مـــع المعوزيـــن والمحتاجين ، من تفقد حالهم وإعطائه ما كان يمكن أن يأكله هو وصورةً أخرى تعبر عن نفسيته في إعطاء غيره رغم حاجته لذلك العطاء ، فجوده مـــا كان من كثرة مالٍ أو خير عنده ، بل كان عن حاجة . ولكنه يعطي عن إيثار

---

(١) الصورة الفنية ، د.جابر عصفور ، ص١٣.

(٢) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، ج٢، ص٤.

(٣) الصورة الأدبية في القرآن الكريم ، د.صلاح الدين عبد التواب ،ص ٢٥.

(٤) المرجع نفسه ، ٣٤.

(٥) ديوان عروة بن الورد ، قافية الدال ، ص٣٩.

ومـــا أجمـــل قـــول الله تعالى عندما صور نفسية صحابة رسول الله ﷺ :(وَالَّذِينَ تَـــبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـــئِكَ هُـــمُ الْمُفْلِحُـــونَ(٩).[١] ، لذلك نرى أن هذا التعبير يملؤنا ويزيدنا شعوراً وتمثلا للحقيقة.

فالخـــيال بهذا " يمكن أن يجتمع مع التصديق ، إذ ليس بينهما تناقض على الحقـــيقة ".[٢] ، وهـــذا يعني أن الخيال الصحيح المستقيم وسيلة التعبير الصادق ، وليس قلباً للحقيقة وتضليلا للواقع وتزييفا له.

وإذا كـــان الخـــيال عنصرا مهما من عناصر الصورة ؛ فإن النظم لا يقل أهمية عن ذلك بل إن عنصر النظم أصيل فيها ، إذْ هو الذي يفسح المجال للخيال أن يحلق في سماء الفكر والتأمل ، ليربط بين الشكل والمضمون ، والمباشر وغير المباشر ، واللفظ والمعنى ... الخ.

والمؤكـــد أن مقايـــيس الجـــودة الأدبية هو مدى تأثير الصورة في المتلقي باعتبارها أداة لها طريقتها الخاصة في عرض المعاني ملتئمة بألفاظها ، مما يحدو بالمتلقـــي اســـتكناه العلامات القائمة بين ما يحويه النص من ألفاظ ومعانٍ وشكل ومضمون ... الخ.

وبهـــذا يقول الجاحظ : "فإذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغاً ، وكان صحيح الطبع بعيداً عن الاستكراه ، ومنزها عن الاختلال مصونا عن التكلف – صنع في القلب صنع الغيث في التربة الكريمة".[٣]

وقريـــب مـــن هذا القول قول د. صلاح عبد التواب : " ومعلوم أن مقياس الجودة الأدبية هو مدى تأثير الصورة الأدبية في نفوس متذوقيها ، بما جمعت في

---

(١) الحشر ، ٩.

(٢) استقبال النص عند العرب ، د.محمد المبارك ، ص ٢٣٨.

(٣) البيان والتبيين ، الجاحظ ، ج١ ص ٨٣.

إطارهـــا مـــن سمو المعاني وبلاغة الألفاظ وروعة التناسق ودقة النظم ، وحسن إيقاع الكلام إلى غير ذلك مما يبلغ تأثيره في النفوس كل مبلغ".(١)

ولأهمـــية النفس في العمل الأدبي ، من حيث البراعة في الإبداع والموهبة والقـــدرة علـــى التصور من جانب ومن حيث شدّ المتلقي لمتابعة النص ، وسبر أغـــواره والتأثير والإثارة فيه ومنه من جانب آخر ؛ فقد أهتم الباحثون من علماء الـــنفس ، وصـــنوهم مـــن علماء الأدب إلى البحث الدؤوب في الكشف عن خفايا وخبايا النفس الإنسانية واستجلاء أسرارها ، والكشف عن العلاقة التي تربط بينها وبيـــن الأدب ، ونتج عن ذلك عددٌ من الدراسات التي أماطت السجوف عن مدى تأثـــير الصورة في النفوس ، وإنه كلما كان التأثير أقوى ، حُكم على النص الأدبي بأنه أكثر جودة وجمالاً وإتقاناً وهذا – بالطبع – " يتطلب خبرة واسعة في النفوس التي يتوجه إليها الخطاب ومعرفة النفوس هي من أكبر المهمات صعوبة".(٢)

مـــن هـــنا ندرك أن مفهوم الصورة النفسية منبجس من خلال الكشف عن أغوار النفس الإنسانية وخفاياها وأسرارها : سوية وشاذة صاعدة وهابطة ، خيرة وشريرة ، مقبلة ومعرضة ، مضطربة وهادئة...

وبما أن الأدب فن "وأن هذا الفن ليس ترفاً وكمالاً في الحياة ؛ بل هو مادة إنســـانية الإنســـان وعنصـــر معنويته ، وليس غير هذه الإنسانية والمعنوية وتلك الإنسانية . وما الفن حين يخلق صور الجمال ولا الذوق حين ينقد الجميل ، ما كل ذلـــك إلا خبرة بأهواء النفوس ، وقوة في الشعور ودقة في الوجدان ، يتحدث بها الشـــعر والنـــثر حديث الناي والعود ، وترجمة الألوان والأصباغ ، ونطق الرخام وشـــهادة الحجر فيقرؤها الناقد بين الأسطر والفقرات وفي الأنغام والهمسات وفي الظـــلال والأضـــواء وفي المعارف والتقاسيم ؛ لأنها أودعت سرّ نفوس أصحابها وأفشت حديث قلوبهم"(٣)

---

(١) الصورة الأدبية في القرآن الكريم ، د.صلاح الدين عبد التواب ، ص ٣٦.

(٢) استقبال النص عند العرب ، د.محمد المبارك ، ٣٣.

(٣) الصورة الأدبية في القرآن الكريم ، د. صلاح الدين عبد التواب ، ص ٣٧. نقلاً عن البلاغة وعلم النفس ، أمين الخولي ، بحث مستخرج من كلية الآداب .مج ٤ ، ج٢ ،ص ١٤٥.

وإذا كـــان هـــذا في كلام الناس ، فهو في كلام الله اللامتناهي في البلاغة والدقة ، أكثر وضوحاً وأشد ظهوراً.

"والقـــرآن مـــن حيث هو تعبير وبيان أدبي معجز ، ثم من حيث هو هدى وبـــيان ديني – لن يدار الأمر فيه إلا على سياسة النفوس البشرية ورياضتها لأن الفـــن هـــو نجوى الوجدان ، والدين هو حديث الاعتقاد ، وخطاب القلوب فصلته بالنفس ، ومناجاته للروح أوضح من أن يستدل لها أو تخص بالشرح".(١) ، ولهذا كـــان للقرآن أثر في قلوب سامعيه ، من العرب منذ اللحظة الأولى سواء منهم في ذلك من شرح الله صدره للإسلام فآمن ، أو من طبع على قلبه أو ختم على سمعه وبصره فأعرض ونأى بجانبه عن الإسلام فكفر.

وكم من الأمثلة السامقة التي تدل على أثر القرآن في النفوس ، ففي صدر الدعوة نجد الوليد بن المغيرة ، قد تأثر بالقرآن وقال قوله المشهور :"إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة . إن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يعلى عليه وما هو بقول بشر ".(٢)

كما نجد تأثر عمر بن الخطاب عند سماعه لبعض الآيات فيرقُّ قلبه للإيمان ويقول :"ما أحسن هذا الكلام وأكرمه".(٣)

هكـــذا أبـــدى العرب دهشتهم وحيرتهم معاً إزاء هذا البيان الرائع ؛ فتخبط الكثـــير منهم في الحكم عليه لما وجدوا فيه من سحر للباب عقولهم وأفئدة قلوبهم ووجدان نفوسهم . على الرغم من أن المادة هي مادة كلامهم وقولهم .

ألا وإن للقرآن روعة في التصوير ، ودقة في التعبير ، وحسنا في الأداء ، وتغلغـــلا فـــي أعماق القلوب ، وتأثيرا في العقول ، واستثارة للحس ، واستنهاضا للخـــيال ، وانطباعا في النفوس ، وإمتاعا للوجدان ، وانفعالا للمشاعر ، وانعكاسا لمرآة الحقائق وظلالها ، " وحتى الآيات التي تناولت أمر العقيدة ، وتولت عرضها ، إذا نحـــن نظـــرنا إليها ، وجدناها تخاطب العقل والقلب معاً ، فلا هي بالألفاظ

---

(١) الصورة الأدبية في القرآن الكريم ، صلاح الدين عبد التواب، ص ٣٧.

(٢) السيرة النبوية ، ابن هشام ، ج١ ص١٩٦.

(٣) المرجع نفسه ص٢٥٧.

والعبارات الرتيبة ، التي يضيق بها سامعها أو قارئها ، ولا هي بالمعاني المجردة الغامضـــة ، التي تثير اللُبس والإبهام ، وإنما هي الصورة الأدبية الرائعة ، التي جمعت في إطارها رونق اللفظ ، ورشيق المعنى وجمال الاتساق ، حتى كانت تلك الصـــورة الحـــية النابضـــة ، التـــي يتملاها الخيال ، فلا يكاد ينتهي عنها إلا وقد انطبعت في النفس ، وأثرت في الحس وأقنعت العقل ، وأقنعت الوجدان ".[1]

فبيـــنما تجده يقنع العقل ، تجده في الوقت نفسه يمتع الوجدان ، وبينما آياته تـــدل على طلاقة عظمته وقدرته ، وتذكر الإنسان وتعظه وتهديه ، هي في الوقت نفسه تجيء بصورة أدبية فنية رائعة ، "منسابة في جو يشع منه الجمال والجلال ، أمـــا الجمال ففي العرض وقوة الأداء ، وإيقاع العبارة وإيحاء الإشارة ، على نحو لا شـــبيه له ولا مثيل ، وأما الجلال ، فلو أن الجبال الرَّواسي قُرعت بشيء لتسير عـــن أماكنها ، أو الأرض الصلبة ، صدِّعت بشيء حتى تغيَّرت معالمها ، أو أن الموتـــى فـــي قـــبورهم خوطبوا بشيء فقاموا من مضاجعهم لكان هذا الشيء هو القـــرآن العظيم".[2] ، ولا غرابة في ذلك ، فالقائل هو الله الذي لا يشغله أمرٌ عن أمرٍ بل يمدُّ هؤلاء وهؤلاء ، وكل شيء عنده بمقدار.

إنَّ "علـــم النفس يجدُّ جاهداً لاستكناه أغوار النفس الإنسانية ، وسبر بواعث معاناتهـــا وأسبابها واضطراباتها ، بيد أن القرآن المعجز سيظل النبع الدفاق ، منه يغـــترف من أراد أن يقف على حقائق نفس الإنسان واستجلاء مكنونات شخصيته

---

(١)الصورة الأدبية في القرآن الكريم ، صلاح الدين عبد التواب، ص٤.

(٢) المرجع نفسه ، ص٤.

علـــى امتداد آفاق الزمان واتساع معالم المكان".[1]، حقاً إنه الكتاب الذي يجد فيه الإنسان الراحة النفسية ، وطمأنينة القلب والروح وتهذيب الوجدان.

إنـــنا أمـــام آيات تخاطب في النفس الإنسانية أحاسيس وملكات ومشاعر ، خطاب من يعرف خفاياها وخباياها وميولاتها المختلفة ، كيف لا؟ "والله تعالى هو العالم بخفايا نفوس العباد ، فهو يعلم (ما توسوس به كل نفس) فجاءت كل آية من آياتـــه المحكمـــات تكشف عن حقيقة النفس المؤمنة وعن زيف النفس الزائغة عن محجة الصواب ، وهو بالنفس الحائدة عن السبيل السوي أدرى".[2]

والمؤكـــد أن " هـــذا الإنســـان المتجســـد أمام أعيننا ، ويتحرك على هذه الأرض،مركـــب مـــن جسم ظاهر ملموس ، وفي داخل هذا الظاهر المادي قُوى أخرى غير مرئية تحرك ظاهر الإنسان المادي وتحدد سلوكه مع نفسه ومع غيره، هـــذه القـــوى هـــي المسؤول الأول عن نوع السلوك الإنساني ، مستقيماً كان هذا الســـلوك أو مُعوَجاً وإن ما يصيب الإنسان من خير أو شر نابع منه ، ومن صنع هذه القوى الخفية الكامنة في داخله".[3] ، والقرآن الكريم من حيث هو بيان معجز جاء ليبين للناس كافة في كل زمان ومكان ، الطريق السوي والصراط المستقيم ، فينظم علاقته بربه وبنفسه ومجتمعه على أسس سليمة من الحق والعدل .

ومـــا دام الأمـــر كذلك ، فمن البدهي أن يكون النسق القرآني مركزا لهذا الإنسان وانفعالاته وحالاته النفسية أو الفكرية وسواها ، فيكون الوصف والتصوير لما تخفي الصدور ، ولما يكون في السرّ وأخفى ، " بالصورة المحسّة المتخيلة عن المعـــنى الذهني ، والحالة النفسية ، وعن الحادث المحس والمشهد المنظور وعن النموذج الإنساني ، والطبيعة البشرية ، ثم لا تلبث الآيات أن ترتقي بالصورة التي ترسمها فتمنحها الحياة الشاخصة ، أو الحركة المتجددة ، فإذا المعنى الإنساني حيّ شاخص ، وإذا الطبيعة البشرية مجسّمة مرئية".[4]

---

(١) علم النفس القرآني والتهذيب الوجداني ، د.عبد العلي الجسماني ، ص١١.

(٢) المرجع نفسه ، ص١٠.

(٣) القرآن الكريم والسلوك الإنساني ، د.محمد بهائي سليم ، ص٢٢.

(٤) الصورة الأدبية في القرآن الكريم ،د.صلاح الدين عبد التواب ، ص ٥.

ومـــن عجيب ما تلمسه في ذلك أن القرآن لا يسرف في جانب على حساب جانـــب ولا يســـتهلك العقل على حساب النفس ، وفوق ذلك كله ، "لا يسرف على النفس ولا يستفرغ هواها بل هو مقتصد في كل أنواع التأثير عليها ، فلا تضيق به ولا تنفر منه ولا يتخوّنها الملال ".[١]

وبتعبير أدق يرضي العقل والعاطفة معاً ، فيجمع بين قوة الحقيقة البرهانية وقوة المتعة الوجدانية.

فـــلا غرو في اكتشاف مكنونه وإخراج كنوزه والوصول إلى فهمه وتفسيره يتكيء ولو بشـــيء ما على إدراك ما استخدمه من صور نفسية وصور أدبية ونواميس روحية أو قل على مدى عناية الصور القرآنية بتأثير النفوس أثناء حديثها عن أصناف الناس ومواقفهم ومشاعرهم وإظهار مكنونات وخفايا أنفسهم.

ويقينـــي أن القواعـــد النفســـية علّةٌ في الإيجاز والإطناب والتقديم والتأخير والإجمال والتفصـــيل ، والـــتكرار والإطالـــة ...الخ ، لما لها من علاقة وطيدة في التأثير النفسي ، فدقة نظمـــه ، وروعـــة تأليفه وجمال إيداعه وجودة سبكه ، وإحكام سرده ، وتعدد أساليبه ، واتحاد معانـــيه ممـــتدة إلى غير نفاد ، تحمل المتلقي السامع والمتلقي المرتّل على الإنصات لمضامين الصور التي تنقل المعاني والحالات النفسية ، وتصل إلى النفس من منافذ شتى : "من الحواس بالتخـــيل ومن الحس عن طريق الحواس ومن الوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء ، ويكون الذهن منفذاً من منافذها الكثيرة إلى النفس لا منفذها المفرد الوحيد".[٢]

"لقـــد كانـــت السمة الأولى للتعبير القرآني هي اتباع طريقة تصوير المعاني الذهنية ، والحالات النفسية ، وإبرازها في صورة حسية ، والسير على طريقة تصوير المشاهد الطبيعية ، والحوادث الماضية والقصص المروية ، والأمثال القصصية ، ومشاهد يوم القيامة ، وصور النعيم والعذاب . والنماذج الإنسانية ...كأنها كلها حاضرة شاخصة بالتخيل الحسي الذي يفعمها بالحركة المتخيلة".[٣]

ولا ريـــب فـــي أن مجال التمثيل على ذلك رحب فسيح ، وهذا ما سيتناوله البحث في الفصل الآتي.

---

(١) إعجاز القرآن الكريم والبلاغة النبوية ، مصطفى صادق الرافعي ، ص ١٨٩ – ١٩٠.

(٢) التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب ، ص ١٩٤.

(٣) المرجع نفسه ، ص٣٢.

الفصل الأول

الصورة النفسية في محاور القرآن الكريم

١-محور المؤمنين

٢-محور الكافرين

٣-محور المنافقين

٤-نماذج من الصور النفسية في القصص القرآني

الفصل الأول

الصورة النفسية في محاور القرآن الكريم

محور المؤمنين:

يسحرنا الهدي القرآني عندما نتأمل قوله تعالى متحدثاً عن النفس المؤمنة: (الــم(١) ذَلِــكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ(٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٥)).[١]

كلمــات قلائل، وآيات معدودات، ترسم صورة للنفس المؤمنة، وهي تجمع صــفات شعورية وجدانية إيجابية فعّالة، وأول هذه الصور: تلك الصورة النفسية التي تخطت حواجز الحس، واتصلت بالقوة المطلقة، التي صدر عنها هذا الوجود، وصــدرت عنها تلك النفس، كما تخطت الحجب، واتصلت بما وراءَهُ من حقائق، وقــوى وطاقــات، ومخلوقــات وموجودات، واعترفت به، ووثقت بأنه حق، إنها صــورة للنفس التي تجاوزت مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، وهــي بذلــك نفــس عظيمة –حقاً– بتمثل هذه الحقيقة الإيمانية فيها؛ فعدم رؤية (الغيب) لا ينفي وجودَه.

ونَفْــسٌ صــورتُها كذلــك، لا تشــك، ولا تناقش، ولا تظن، آمنت بالغيب وأســلمت له أمــرها، وانقادت له، رهنت مصيرها بما لم ترَ (الغيب)؛ هذه النفس تؤمــن وتصدق كل هذا الغيب– ضمن إطار محدد– لا بُدَّ أن تكون قد بلغت حدّاً من اليقين لا يمكن تصوره، ولكنه بالنسبة لها، كأنه أمرٌ مشاهد، لذلك لا يمكن لها أن تناقش فيه؛ لأن قضية الإيمان قضية استقرت في القلب فلا تطفو للذهن لتناقش من جديد.

ومــا دام الأمــر كذلــك؛ فهي تتلقى أوامر ربها بـــ (إفعل، لا تفعل) وهي مطمئنة لذلك فكانت "ربانية التصور، ربانية الشعور، ربانية السلوك"[٢].

---

(١) البقرة، ١–٥.

(٢) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ج١ ، ص ٤٠

"ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون" وإقامة الصلاة، تشمل معاني "المحافظة والعزم والديمومة والثبات"[1]. لذلك تظهر صورة للنفس من خلال ما توحي به هذه الآية من وحدة التوجه والارتفاع عن عبادة العباد، إلى عبادة رب العباد، والصلة الدائمة بواجب الوجود، والغاية الأسمى التي وجد من أجلها الإنسان.

كما أنها نفس تعترف ابتداءً بأن ما لديها من رزق إنما هو من عند الله، واهب النعم، ومن هذا الاعتراف، تنبثق صورة النفس المطهرة من الشح والبخل، إنها صورة النفس الزكية التي ترى الحياة مجال تعاون وتآخٍ وتعاضد وتآزر لا معترك تطاحن.

ثم تستمر الريشة المعجزة برسم معالم جديدة، تضفي سمات بارزة على صورة النفس المؤمنة، "والذين يؤمنون بما أنزل إليك، وما أنزل من قبلك، وبالآخرة هم يوقنون".

لقد أبرزت هذه الآية الكريمة صورة شعورية وجدانية لتلك النفس، متمثلة بوحدة الديانات، ووحدة رسلها، ولكنها صورة للنفس الوارثة للعقائد السماوية، منذ فجر التاريخ وحتى مجيء الديانة الخاتمة -ديانة الإسلام- وهذا ما أشارت إليه الآية "من قبلك" إذْ لا ديانة بعد الإسلام.

ومن ثم تنتقل الريشة المعجزة، لإبراز معلَمٍ آخر من معالم صورة النفس المؤمنة، "وبالآخرة هم يوقنون"، "لأن الإيمان بالله، قمة ابتداءً، والإيمان باليوم الآخر قمة انتهاءً"[2]. وما دام الأمر كذلك، فإن الصورة النفسية التي تتجلى من خلال ذلك، صورة النفس المقيّدة في الحياة طبقاً لمنهج الله، فلا يترك الحبل على غاربه، ولا إطلاقٌ لعنان النفس وشهواتها.

وهكذا يتحقق لدى النفس المؤمنة تصورٌ كاملٌ بأن الإيمان بالله قمة الإيمان بدايةً والأيمان بالآخرة قمة الإيمان نهاية.

---

(١)المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفاني، ص ٤١٧.

(٢) تفسير الشعراوي ، محمد متولي الشعراوي ، ج١، ص١٣١.

وتختتم الآيات برسم إطار للنفس المؤمنة، وذلك بقوله تعالى: "أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون"، وهذا الإطار في غاية الروعة والدقة والجمال؛ يلحظ ذلك من خلال التعبير؛ فقوله: "على هدى" يفيد الاستعلاء، بمعنى أن المنهج الذي قيّد حركة حياة النفس، قيدها إعزازاً لها، وسموّا لمقامها، فلا تأخذ من بشر تشريعاً، ولا تأخذ من ذاتها حركة، وإنما تتلقاه عن الواحد الأحد ... وهذا بحد ذاته علوّ وعزّةٌ ورفعةٌ ومقام، وأما قوله تعالى: "أولئك" فهو إشارة إلى صور النفوس التي تنطبق عليها تلك الصفات، وأما قوله: "المفلحون" فهو إشارة إلى المشهود من الفلاحة في الدنيا، ما يعين عقولنا المحدودة على فهم الغيب، فيشبه العملَ وجزاءَه في الآخرة بالبذرة والفلاحة. لما لها من علاقة وطيدة بالنفس الإنسانية، وحبها للفلاح الذي فيه استمرارية الحياة، وكما يقال: من زرع حصد والجزاء من جنس العمل، من هنا نلتمس الصورة النفسية التي امتازت بها النفس المؤمنة من صفاءٍ واستقامة وتكامل في الوحدة الشعورية الإيجابية الفعالة، الوحدةِ التي تجمع في النفس بين الإيمان بالغيب والقيام بالفرائضِ، والإيمان بالرسل كافة، واليقين بالآخرة.

وجميل أن نلفت الانتباه إلى التشكيل في بناء الآيات –إن جاز التعبير– فالكلمات كما يقول الجرجاني: "تقتفي في نظمها آثار المعاني، وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس"[1]. فتوالي الأفعال (يؤمنون، يقيمون، ينفقون، يوقنون) في الآيات، "دلالةٌ على الحقيقة وزمانها، وكل ما كان زمانياً فهو متغير، والتغير مشعر بالتجدد، فإذا بالفعل يفيد، وراء أصل الثبوت، كوْن الثابت في التجدد، والاسم لا يقتفي ذلك، ويشبه أن يكون الاسم في صحة الإخبارية أعم، وإن كان الفعل فيه أكمل وأتم؛ لأن الاخبار بالفعل مقتصر على الزمانيات، أو ما يقدر فيه ذلك، والأخبار بالاسم لا يقتضي ذلك"[2].

وعلى هذا الأساس يكون توالي الأفعال مبنيٌ على التغير والتجدد، وإذا كان الأمر كذلك فما حكمة ختم الآيات بالاسم "المفلحون"، بعد تكرار الفعل؟

---

(١) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص ٤٠.

(٢) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، الفخر الرازي، ص١٥٦.

مـــثل هـــذا الموقف يحدد دور التشكيل في بناء الآيات، فيكون الختم بهذا الشكل دليل الإثبات المطلق، غير المشعر بزمان.

وهـــذا يبيـــن مـــدى جمال الإطار الذي سوّر الصورة التي شخصت تلك الـــنفوس، فمع كونها تتفاوت في الإيمان وإقامة الصلاة والإنفاق والإتقان، إلا أنها طبعت بميسم الفلاح "وأولئك هم المفلحون" بصيغة الاسم الذي يفيد الثبات.

ومما يؤكد هذه الصورة، ويبينها –أيضاً– قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِـــرَ اللَّـــهُ وَجِلَـــتْ قُلُوبُهُـــمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ(٤)﴾.[1]

إنـــنا عـــندما نقرأ هذه الآيات أو نسمعها، تتجلى لدينا صورة نفسية لهؤلاء الذيـــن هـــذه صفاتهم وأعمالهم ومشاعرهم، إنها صورة للنفس المؤمنة التي استقر فـــيها الإيمـــان وثبـــت، والدليل على ذلك قوله: "إنما" التي تفيد القصر، واستعمل الموصـــول "الذيـــن" حـــتى يجلب انتباه القارئ أو المستمع (المتلقي) ويدفعه إلى الاصغاء حتى يتعرف على من هم هؤلاء الذين طبعوا بميسم الإيمان.

وفي الآيات السابقة الذكر، خمس صفات للنفس المؤمنة، لها ترتيب عقائدي وحركـــي وجوارحي، تجعلنا نستجلي مشاعرها وكوامنها، ولا أغالي إن قلت: إنها تكشف السجوف عن صورة واقعها الداخلي واحساساتها ومشاعرها التي تختلج في جنباتها، وبذلك يتحدد تشخيص تلك النفوس التي طبعت بميسم الإيمان.

هـــذه الصفات هي، الأولى: إنه إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وثانية الصفات: إنـــه إذا تليـــت علـــيهم آيـــات الله زادتهم إيماناً، وثالثة الصفات: إنهم على ربهم يـــتوكلون، ورابعة الصفات: إنهم يقيمون الصلاة، وخامسة الصفات،: إنهم ينفقون مما رزقهم الله.

واستشـــعاراً لصـــورة تلك النفوس وحالتها، دعنا نتأمل تلك الصفات، كما وردت بصيغتها في التعبير القرآني:

---

(١) الأنفال، ٢-٤.

"وإذا ذكـر الله وجلت قلوبهم"، والوجل هنا "هو الخوف في فزع ينشأ منه قشعريرة واضطراب في القلب".[1]، وهو نوع من الإحساس لأحوال القلوب، ينشأ مـن مهابـة وسطوة صفات الجلال؛ "فإذا ما ذكر الله- سبحانه- وذكرت عظمته وقدرتـه لـم تطمئـن قلوبهـم إلى ما قدّموه من الطاعة، وظنوا أنهم مقصرون، فاضطربوا من ذلك وقلقوا".[2]، ويقابل الوجل، الاطمئنان الذي ينشأ من إشراقات وحـنان صـفات الجمال. وتجمعها الآية في قوله تعالى:(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِـتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَـى ذِكْـرِ اللَّـهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣)).[3]؛ فالجلود تقشعر خشية ووجلاً ومهابة من سطوة صفات الجلال، ثم تلين اطمئـناناً وطمعـاً فـي حنان المنان -سبحانه-؛ ففي التعبير القرآني صورة حية مـتحركة شاخصـة للإرتعاشـات الوجدانية أو النفسية التي تنتاب القلب المؤمن، فتغشاه المهابة من سطوة الجلال، لتمثله عظمة الخالق، إلى جانب تقصيره، فيتوجه إلى الإكثار من فعل الخير فيطمئن.

أما ثانية الصفات فهي: "إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً"، صورة أخرى للـنفس المؤمنة، وهي تزداد إيماناً على إيمان، وذلك عند سماعها لآيات الله وهي تـتلى، ومـا كـان ذلك منها إلا لكونها ذوّاقة مدركة لكمال قدرة الله وحكمته في مخلوقاته، وهو يشير لتلك الدلائل في كتابه، فما تتلى آية إلا تأثرت بها تلك النفس واطمأنت، وعندها تُنقلُ من مرتبة إلى مرتبة أخرى، مرتبة أعلى وأشرف وأكمل.

أمـا ثالثة الصفات: "وعلى ربهم يتوكلون" والتوكل من أعمال القلوب، فإذا ما أنتقل إلى الجوارح أصبح تواكلاً، "إذن الجوارح تعمل والقلوب تتوكل"[4]، وهذا يلفتنا إلى شيء مهم، وندركه بعد الحديث عن التشكيل في بناء الآية، إذ نرى الآية قدمـت شبه الجملة من الجار والمجرور على متعلقه (عنصر من عناصر التوكيد

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، مادة "وجل".

(٢) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص ٢٦٨.

(٣) الزمر، ٢٣.

(٤) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، ج٣، ص ١٨١٤.

والاهـتمام)، وهـذا أسلوبٌ من أساليب القرآن الذي يدلُّ على الحصر والقصر، "فالـتقديم يكـون لغـرض يتعلق بالمعنى وليس لغرض يتعلق بالبنية الشكلية أو بموسيقى الكلام، ولا هو تارة لمعنى، وأخرى لموسيقى الكلام"(١)؛ أي أن التقديم – شـبه الجملة "الجار والمجرور" –دليل على أن المقدم هو الغرض المتعمد بالذكر، وأن الكلام سيق لأجله، بمعنى أنهم لا يتوكلون على أحدٍ غير ربهم.

وهكـذا يـتحقق لدينا من وراء هذا الترتيب، لهذه الآية، سرٌّ عميق يقرّبُ المعنى المراد والدلالة البعيدة، لقد اقتصر توكلهم على الله وحده، لا شيء سواه.

أمّـا لفظ "التوكل"، فيعود إلى قضية بالغة الأهمية فيما يخص النفوس، هذه القضية هي قضية الأسباب والمسببات.

ولعـلّ خـير مـا يلخص حقيقة الأمر، إن الصورة التي تبدو لتلك النفس، صـورةً توحـي بعدم التواكل، ولكنها تتوكل على الله، بمعنى إنها تأخذ بالأسباب، وتـتوكل على خالق الأسباب؛ فلا تخلط في فهم التوكل، بين عمل الجوارح وعمل القلـوب، لذلـك إن عـزّت عليها الأسباب علمت أن لها ربّاً، ولذلك قال: "وعلى ربهم"، "والربُّ هو الخالق من عَدَمٍ والممدُّ من عُدْم"(٢).

لنـتأمل الآن استخدام حرف الجر (على)، من حيث معناه، إذ استعمالها في "الأصـل للاستعلاء والتفرع"(٣)، فإذا كان الأمر كذلك، فلا غرو أن تكون مفتاحاً شـعورياً للنفس المتوكلة على الله، وعليه فإن جوهر التوكل يعزّزُ النفس، ويسمو بها، وكيف لا تسمو؟ وهي تؤمن أنها في ملجأ الله وحفظه ورعايته وكنفه، معتمدة عليه، وكيف لا تكون كذلك؟ وقد تخلصت من ضغط مظاهر الأسباب.

مما سبق نستطيع أن نتمثل الصورة النفسية التي أضاءتها الآية، وهي ترسم حالة التحرر العقلي والتحرر الشعوري، والتحرر الأخلاقي لذلك الأنموذج المؤمن؛ فـلا بقاء لغير إرادة الله وقدره، ولا بقاء لمؤثرات الأغيار. ثم تنتقل الآيات لرسم صـورة مـتحركة لعمل الجوارح، بعدما رسمت صورة شعورية انفعالية لأعمال

---

(١) في نحو اللغة وتراكيبها، خليل أحمد عمايرة، ص ٤٩.

(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي، ج٨، ص ٤٥٧٥..

(٣) لسان العرب، ابن منظور، باب "علا".

القلـــوب، فقولـــه تعالى: "الذين يقيمون الصلاة"، لا يعني الأداء فحسب، بل يعني الثـــبات واللزوم والإدامة والحفاظ والمراعاة -كما أسلفت- ويعني: "الاستيقاظ من نوم الغفلة والنهوض عن سنة الفترة عند الأخذ في السير إلى الله"[1].

وهكـــذا ترســـم الآية صورة للنفس وهي تقف بين يدي الله، وقفة العابد في حضرة المعبود؛ فلا غفلة ولا كسل ولا تثاقل ولا تضييع، بل حضور ينتابه مهابة.

وفي قوله تعالى: "ومما رزقناهم ينفقون" إشارة إلى صورة متحركة ظاهرة وصـــورة شـــعورية باطنة؛ فأما الصورة الظاهرة، فتتمثل بحالة الإنفاق من طيِّب الـــرزق، إذ نفـــس المؤمـــن لا تجود إلا بطيِّب الرزق، ولا تتصدق أو تنفق من الرديء.

قال تعالى: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِـــنْ الْـــأَرْضِ وَلَـــا تَـــيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُـــوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ(٢٦٧)).[2] وقال ﷺ: "ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان: من عبد الله وحده، وأن لا إله إلا هو، وأعطى زكاة ماله، طيبة بها نفسه، رافـــدة عليه كل عام، ولا يعطي الهَرِمة، ولا الدَّرِنة، ولا المريضة، ولا الشرط ولا اللئيمة، ولكن من وسط أموالكم، فإن الله لم يسألكم خيره، ولم يأمركم بشرِّه".[3] وهـــذا الكـــلام تضـــمنتهُ لفظ "مما" أي أنهم ينفقون من طيِّب ما رزقوا، وأما لفظ "رزقـــناهم" ففـــيه إشارة إلى أن هذه النفس واثقةٌ بالله المعطي، فلا تنسب الرزق لذاتهـــا أو كدِّهـــا وتعبها وإنما تنسبه لواهب النعم. وهذا يعني إننا أمام نفس طيبة كـــريمة جواد، لا ينتابها الشح والبخل، ولا تخشى الفقر من الإنفاق؛ فالرازق هو الله، وهو خير الرازقين.

---

(١) التعريفات، علي الجرجاني، ص ١٨٢.

(٢) البقرة، ٢٦٧.

(٣) رواه ابـــو داود، والطبرانـــي، بســـند جيد عن عبد الله بن معاوية الغاضري ،الآحاد والمثاني ، أحمد بن عمربن الضحاك أبو بكر الشيباني ،ج٢ ، ص ٣٠١.

والدرنة : من "درن" وهو الوسخ والدرنة الجرباء ، والشَرَط: بفتح الراء:رذال المل ، واللئيمة:الشحيحة.ارجع في كل ذلك ، لسان العرب ،ابن منظور، باب:(دَرَنَ ،شرَط ،لئم)

ونمـاذج هذه صور أنفسهم، لا بُدّ أن يكونوا متكافلين متحابين، متعاضدين، يشـدُّ بعضـهم بعضـاً، وأنفسـهم خالية من الكبر والمنة، فلا تمتن على أحد في الإنفاق؛ لأن اعتقادها وإيمانها بالله وحده، الذي يهب الرزق لمن يشاء.

إن مجموع هذه الصفات تبين أن للنفس خمس هيئات أو صفات في صورة واحـدة، تكون فيها الهيئة أو الصورة مختلفة الظاهر عن أخواتها، مؤتلفة الباطن معهـن، لأن الأصل هو الاعتقاد والانقياد؛ وبالتالي استقرار الإيمان؛ لذلك أعقب الحق هذه الصفات بقوله: "أولئك هم المؤمنون حقاً، لهم درجات عند ربهم، ومغفرة ورزق كـريم"، فمن وجد هذه الصفات في رحله جملة مجتمعة فجزاؤه رفعة في الدرجات ومغفرة ورزق كريم.

وذكـر الدرجات له دلالة إيحائية لما تسعى له النفوس البشرية، وذلك لأن الدرجـات إشـارة إلى الارتقاءات، وهذا مطلب نفسي يسعى له الإنسان، وتعشقه الـنفس ولذلك قدّمه على المغفرة، ووصف الرزق بأنه كريم، إشارة إلى أنه يعشق صـاحبه، إذ المعلـوم لدى العربي أن الكرم يتعدى من الكريم، وهذا ما يشير له التعبـير، أي أن الـرزق يتعدى ليبحث عن صاحبه إلى أن يجده، وهكذا نستشف صـورة نفسية مشرقة، يرسمها التعبير القرآني، تتجلى بسمات بارزة حيّة، خبرها ينبـئ عن مخبرها، ظاهرها كباطنها، مخلصة فيما تضمر وما تعلن، فإذا ما ذكر الله انفعلـت وَجَـلاً، واتخـذت موقفاً يناسب حالها واتجهت لفعل الخير. حقاً إنها صـورة شاخصـة حـية للـنفس المؤمنة، برزت بثوب الصفاء والنقاء والطهر والعفاف، فكان مظهراً يخبر عن جوهر.

مـن هـنا يمكن لأي مسلم أن يتصور تلك النفس ويوازن بينه وبينها ليرى موقعه من الإيمان.

هكـذا رسـم لـنا التعبير القرآني، صورة للنفس المؤمنة جعلتنا نستشرف حقيقـتها الوجدانـية، مـن خـلال "تصوير الألفاظ للمدلولات، لا من قبل الدلالة المعنوية فحسب، ولكن من قبيل الطريقة التصويرية التخيلية".[1]، وصدق الرافعي حيـن قـال: "ومن أعجب ما رأيناه في إعجاز القرآن وإحكام نظمه، أنك تحسب

(١) التصوير الفني في القرآن الكريم،سيد قطب، ص ٨٠.

ألفاظـــه هي التي تنقاد لمعانيه، ثم تتعرف ذلك وتتغلغل فيه، فتنتهي إلى أن معانيه مـــنقادة لألفاظه ثم تحسب العكس وتتعرفه متثبتاً فتصير منه إلى عكس ما حسبت، وما إن تزال متردداً على منازعة الجهتين كلتيهما، حتى ترده إلى الله".[1]

ولـــنأخذ مـــثالاً لصورة نفسية أخرى للقرآن ... في آية قد بدا فيها من دقة الـــنظم وروعـــة التأليف، ما لا يمكن أن يكون إلا في القرآن، ثم ننظر إلى جمال التعبـــير من زاوية، وصور التخيل من زاوية أخرى، ثم نشاهد الألفاظ وهي تبرز الحركة المتخيلة في صورة كاملة.

لـــنقرأ قولـــه تعـــالى: (إِنَّمَـــا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَـــبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ(١٥) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُـــمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٧))[2].

ففي هذه الآيات تتراءى لنا صورة وضاءةٌ للنفوس المؤمنة، "اللطيفة الشفيفة الحساســـة المرتجفة من خشية الله وتقواه، المتجهة إلى ربها بالطاعة المنطلقة إليه بالـــرجاء، فـــي غـــير ما استعلاء ولا استكبار".[3]، إنها صورة للنفس المستجيبة الطائعة الخاضعة المنيبة التي تستشعر جلال الله الكبير المتعال.

إن الآيات ترسم "أنموذجاً" إنسانياً واضحاً للعيان، من خلال تشخيص حالة الانفعـــال والوَجْـــدِ، التي صاحبت التذكير بآيات الله، فعبّرت عن ذلك بالخضوع والسجود، وتمريغ الجباه بالتراب، وما أجمل استعمال قوله: "خرّوا".

إن الخيال ليكاد يجسم هذا "الخرور" الذي ينبئ أو يعبر عن سرعة الحركة في تنفيذ السجود، ناهيك عن دلالة اللفظ بما يوحي من السقوط، يُسمع منه خرير، "فاســـتعمال الخـــرّ تنبـــيه علـــى إجماع أمرين: السقوط وحصول الصوت منهم بالتســـبيح"[4]، ومـــثل هذا ورد في قوله تعالى: (حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ص ٤٠.

(٢) السجدة، ١٥-١٧.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج٢١، ص ٢٨١٢.

(٤) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص ١٤٤.

يُشْـرِكْ بِاللَّـهِ فَكَأَنَّمَـا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ(٣١).[١]، وقوله: (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّـهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِيـنَ(١٤٣)".[٢]، ومما ذُكر بهذا المعنى قوله تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَـيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّـنْ هَدَيْـنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَانِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا(٥٨)".[٣]، وقولـه: (وَالَّذِيـنَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا(٧٣)). [٤]، وقولـه: (قُـلْ آمِـنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِـرُّونَ لِلْأَذْقَـانِ سُـجَّدًا(١٠٧). [٥] وكلها تفيد استجابة النفوس الطائعة الخاشعة المنيبة المستحضرة لجلال الله الكبير المتعال.

ثـم هـاهم أولاء يُصـحبون السجود بالتسبيح، والتنزيه عمّا لا يليق بالله، "وسبحوا بحمد ربهم" وهذا يلفتنا إلى شيء هام وهو انسجام أنفسهم مع نغم الوجود، الـذي يسبح الله على الدوام، قال تعالى: (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤)". [٦]، وقوله تعالى: (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(١)). [٧]

وإننـي أكاد استشعر تلك النفوس، وهي تنسجم مع نغم الوجود، إذْ لم يكن الفكـر الذي وُهب لهم، وتميزوا به عن سائر المخلوقات، لم يكن مانعاً لهم من أن يشـتركوا مع الكون كله في نغم التسبيح، فكيف إذا اختص تسبيحهم في هذا المقام

---

(١) الحج، ٣١.

(٢) الأعراف، ١٤٣.

(٣) مريم، ٥٨.

(٤) الفرقان، ٧٣.

(٥) الإسراء، ١٠٧.

(٦) الإسراء، ٤٤.

(٧) الجمعة، ١.

بـــالحمد "وسبحوا بحمد ربهم" وهو اختصاص يبين تنزه الحقّ عما يكون في نفس البشر أو الخلق، لأنه واهب النعم، ونعمه التي يجريها على خلقه، لا تشابهها النعم التـــي يجـــريها المخلـــوق على المخلوق، إنّ الخلق أغيار، والأغيار يطرأ عليها التغيـــير، فمن الممكن أن تحجب الأغيار النعم عن الغير، والحق مُنزّهٌ عما يكون فـــي نفس الأغيار، ومن هذا المعنى يتجلى قوله تعالى: "وسبحوا بحمد ربهم" لأن عطاء الربوبية لا يميز بين المؤمن والكافر، وإنما عطاؤه للجميع.

وأما قوله: "وهم لا يستكبرون" فهو إشارة إلى حال تلك النماذج من النفوس التي تميزت بالخضوع والخشوع لمقام الله، فلا يرتدون ثوب الكبرياء، إذ ليس ذلك من صفاتهم، لأن الكبرياء لا يكون إلا لله.

ثـــم ينـــتقل الهدي بنا، إلى الآية التي تصور الهيئة الجسدية والمشاعر، في لمحة واحدة، "تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً".

صـــورة لـــنماذج وهي تترك مضجعها، تقوم ليلها لتناجي ربّها، وما أجمل التعبير الذي يرسم المشهد، إنه غاية في الدقة، إنّه ليخيل للقارئ أنه يشهد المنظر اللحظة بكل من فيه وكل ما فيه، وبخاصة حين ترسمه كلمتا، "تتجافى، المضاجع"؛ فالمضاجع تدعو الجنوب إلى الراحة والنوم، ولكن الجنوب لا تستجيب، لأن شغلاً يشـــغلها وشـــوقاً يتملكها ...، شغلاً في خشية الله، وشوقاً في رحمة الله، يتجاذبها الخوف من مقام الله، والطمع في رحمته.

هـــذه "الـــنماذج" مـــن الـــنفوس المشرقة الوضاءة الخاشية الطامعة، تترك مضـــجعها، وتقـــوم لتناجي ربها ليلاً -فالإنسان غالباً ما يأوي إلى المضجع لينام لـــيلاً- فيقترب منه وكأن راحته في الدعاء لا الاضطجاع، إنها نفس مؤمنة تجمع بين الخوف والرجاء.

لنـــتأمل الآن العلاقة بين قوله: "تتجافى جنوبهم عن المضاجع"، وقوله: "فلا تعلم نفسٌ ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون"، من حيث مضمونها.

كلتاهما تدور حول تأثيل الخفاء؛ فالتجافي عن المضاجع يكون ليلاً، والليل فيه الستر والخفاء، بمعنى إن عبادتهم نقيةٌ خالية من كل أنواع الرياء، إذ لا يطلع

عليها أحد، هي بينهم وبين ربهم، فكان جزاؤهم من جنس عملهم، ففي لفظ "أخفي" ما يناسب تتجافى جنوبهم عن المضاجع".

إنهـا -حقـاً- ترسم صورة مشرقة وضاءة، حساسة شفافة، في جوٍّ وظلٍّ، تستـروح له النفوس وتطمئن له القلوب، إن في الآيات ألفاظاً ومعاني كما هو باد، ذات دلالة نفسية وشعورية خاصة، حتى تبدو صورة تلك النماذج ماثلة للعيان، فلا أقلّ من أن يقول: إنها صورة للنفوس المؤمنة الخاشعة المتبتلة المتطلعة لربها، فيها خفقـات القلـوب، ووجـل الـنفوس، تغمرها رحمة الله وعنايته ورعايته وودّه؛ فسجودها عبادة عملية بدنية، لكنه في الوقت نفسه، تعبير عن خضوع تلك النفوس لباريها، وتسبيحها عبادة عملية لسانية، لكنه في الوقت نفسه تعبير عن استمرارية تذكـرها للواحد الأحد، فلا تغفل عنه لحظة، وعدم استكبارها عبادة عملية سلوكية أخلاقية، فارتفعت بسجودها وتواضعها وتسبيحها وذكرها لربها، مرتقى عالياً، قال تعالى: (كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ(١٩))[1].

ومـن أمـثلة هـذا الوجه قوله تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ(٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ(٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِيـنَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَـيْرُ مَلُومِينَ(٦) فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ(٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ(٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ(٩))[2].

نـتأمل الآيـات، فيطالعنا لفظ "قد" بصورة نفسية، تفهم من السياق وقرائن الألفاظ، و"قد" نقيضة "لمّا" هي تثبيت المتوقع و"لمّا" تنفيه[3]، "لأن "قد" دخلت على فعله وهو متوقع الثبوت من حال المؤمنين، وجعله الزمخشري الإخبار بثباته وذلك لأن الفـلاح مستقبل أُبرز في معرض الماضي مؤكداً بقد دلالة على تحققه، فيفيد تحقـيق البشـارة وثـباتها، كأنـه قيل: قد تحقق أن المؤمنين من أهل الفلاح في

---

(١) العلق، ١٩.

(٢) المؤمنون، ١-٩.

(٣) الكشاف، الزمخشري، ج٣، ص ١٧٠.

الآخرة"[1]. لذلك "خوطبوا بما دلّ على ثبات ما توقعوه"[2]، وما توقعوا هذه البشارة إلا لتمكن الإيمان في قلوبهم، واطمئنان أنفسهم إلى معرفة ربهم وعبوديته، وتيقنها بالحق؛ فثبت أنها نفس، لا يخالجها شك ولا ريبة، ولا يستفزها خوف ولا حزن، لذلك كان من شأنها أن تتوقع هذه البشارة التي جاءت بمثل ما توقعت. وهذا تأكيد صفائها ونقائها. فكلمة "أفلح" بتأكيدها بقد في هذا السياق، هي موضع التركيز والاهتمام؛ لإبراز ما فيها من صورة نفسية عميقة، تُعدُّ مفتاحاً شعورياً نلج به أبواب المشاعر والأفكار التي تتضمنها. فما يُسميه النحاة بحرف التحقيق، هو في حقيقة أمره عنصر توكيد، بل يفيد درجة عالية من درجات التوكيد، ولا يكون إلا لتوكيد حقيقة يحتاج المتلقي إدراكها فيؤكدها المتكلم، ذلك "أن العلم بمواقع المعاني في النفس، علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق"[3].

وأما "أفلح" فهي من الفلاح" الفاء واللام والحاء أصلان صحيحان، أحدهما يدلُّ على شقٍّ والآخر على فوز وبقاء"[4]، فالأول: فلحتُ الأرض: شققتها، والثاني :البقاء والفوز وقول الرجل لامرأته "استفلحي بأمركِ" معناه فوزي بأمركِ ، والعرب تقول: "الحديد بالحديد يفلح"[5]، وكلمة الفلاح محببة لدى العربي، لما فيها من معاني استمرارية الحياة، والفوز بجني الثمر، ونيل الخير، والنفع الباقي أثره، "والفلاح لا يفيد التغيير، ولا يقال: قد أفلح، إلا لكل من عَقَلَ وحَزُمَ وتكاملت فيه خلال الخير"[6].

على ذلك، فالتعبير يقدم صورة للنفس المؤمنة، تتضمن جميع الخصال الطيبة؛ لذا فهي نفس صافية مطمئنة، ثابتة على المرتقى العالي، الذي يتطلبه الإيمان، ويمكننا استشعار ذلك، من خلال التفصيل، الذي جاء بعد هذا الوعد الصادق، بل القرار الأكيد، بفلاح المؤمنين. "الذين هم في صلاتهم خاشعون"،

---

(١) روح المعاني، شهاب الدين الألوسي، م٩، ج١٨، ص ٢٠٦.

(٢) التفسير الكبير ، الفخر الرازي، ج٢٣، ص ٧٧.

(٣) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص ٤٤.

(٤) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ج٤، ص ٤٥٠.

(٥) فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، أبو عبيد البكري، ص ١٣٤.

(٦) الفروق، أبو هلال العسكري، ص ٢٣٣.

والخشـــوع في اصطلاح أهل الحقيقة: "الانقياد للحق والخوف الدائم في القلب"[1]، والخشوع في الصلاة: "خشية القلب وإلباد البصر، وهو إلزامه موضع السجود"[2]، وعن النبي ﷺ أنه قال: "لينتهين أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة أو لا ترجع إليهم"[3]، ونفسٌ تصلي خاشعةً، نفس تستشعر جلال الموقف بين يدي الله –عز وجل–؛ فتسكن وتخشع، ويسري منها ذلك إلى الجوارح، إنها صورة النفس المشتغلة بنجوى الله، المستغرقة بالشعور به، الطاهرة من كل دنس.

"والذيـــن هم عن اللغو معرضون"، واللغو: "ما لا يعنيك من قول أو فعل، كاللعـــب والهـــزل وما توجب المروءة إلغاءَهُ".[4]،وفي هذه الصورة تتجسد معاني الجدِّ في القول والفعل والانشغال عن اللهو واللغو والهذر.

"والذيـــن هم للزكاة فاعلون"، والآية تؤكد فعل الزكاة لقصد الزكاة، وهذا ما يشـــير إلـــيه قـــوله: "فاعلون"، وهذا تجسيد للصورة النفسية التي تتجلى في كون المسلم، يعمل لنفسه، ولأهله ولمن لا يقدر على الحركة أو العمل، وفي هذا تجسيد لمسؤولية هذا الأنموذج عن المجتمع، وكأن قضية الزكاة من المال، تظل في بؤرة شـــعور الأنمـــوذج المؤمن وهو يعمل؛ فهذه الصورة باستغراقها العاطفي الكامل والشـــعور التام، تجاه المجتمع؛ فتذيب إحساساتٍ كثيرة في حب الذات إلى أنموذج المســـتعلي على حب الذات، و"انتصار على وسوسة الشيطان بالفقر، وثقة بما عند الله مـــن العـــوض والجزاء".[5]، وهذا يفضي إلى نفس مطهرة من الشح والبخل والحرص والمنع.

"والذين هم لفروجهم حافظون" وفي هذه الصورة، نظفر بحركتين إيجابيتين، بحركة تمثل وقاية الأنفس والأسر والمجتمع، بحفظ الفروج من دنس المباشرة في غير ما أحل الله، وحركة تمثل نفساً آمنة من الفساد والأنساب، إذ كل نفس تعرف من أبوها، وهي مطمئنة على ذلك.

---

(١) التعريفات، الشريف علي الجرجاني، ص ٩٨.

(٢) الكشاف، للزمخشري، ج٣، ص ١٧٠.

(٣) عن جابر بن سمرة ،مصنف ابن أبي شيبة، أبو بكر عبدالله بن محمد بن أبي شيبة ، ج٢ ،ص٤٨.

(٤) الكشاف، الزمخشري، ج٣، ص ١٧١.

(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج١٨، ص ٢٤٥٥.

"والذيــن هــم لأماناتهم وعهدهم راعون"، صورة نفسية مهذبةٌ مؤدية إلى استقامة السلوك.

"والذيــن هم على صلواتهم يحافظون"، وفي هذه الصورة، نشاهد الاهتمام والانشغال الدائم بالصلاة، وما ينبغي أن تتم به أوْصافها.

فالصفات المشرقة في هذه الآيات، أمثال: "الخشوع في الصلاة، والإعراض عــن اللغــو، وفعــل الزكاة، والمحافظة على الصلاة، والمحافظة على الفروج، ورعايــة الأمانــة"، كــل أولئك مشاهد وإشارات تجسد صوراً نفسية عميقة لهذا الأنمــوذج المؤمن، التي انعكست على الجوارح، والسلوك، والأخلاق، مما المعت إليه.

فالصــور مشــتملةٌ، ترمزُ بكل معاني الاستجلاء، لهذا الأنموذج المؤمن، المتصل بحبل الله المتين، لأنها تمثل صورة النفس المؤمنة الموقنة بوعد الله.

ثم ننتقل مع الهدي القرآني، فنتفيأ ظلال هذه الآية:

قــال تعالى: (أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَــتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ(١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ(٢٠) وَالَّذِينَ يَصِــلُونَ مَــا أَمَــرَ اللَّــهُ بِــهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِيــنَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ(٢٢)). [١]

فــي مطلــع الآيات، دخلت الهمزة التي تفيد الإنكار، على الفاء، في قوله: "أفمن يعلم" "لإنكار أن تقع شبهة بعد ما ضُرب من المثل في أنّ حال من علم "إنما أنــزل إليك من ربك الحق" فاستجاب، بمعزل من حال الجاهل الذي لم يستبصر، فيستجيب: كبعد ما بين الزبد والماء".[٢]

والمؤمــن هو من يعلم أن القرآن الكريم، مُنزلٌ من الله على رسوله، وهذا حقٌ لا مراء فيه ولا جدال، وما دام كذلك، فمن الجدير بالذكر، أن استعمال "يعلم، أعمى" فيه مقاربة للحقائق المرئية، وذلك لأن الآيات الكريمة الدالة على القدرة من

---

(١) الرعد، ١٩-٢٢.

(٢) الكشاف، الزمخشري، ج٢، ص ٥٠٤.

المرئيات، وأما تسميته للقرآن بالحق؛ فلأنه من الثابت الذي لا يسوغ إنكاره، ولأن الحـقّ هو: "الحكم المطابق للواقع، يطلق على الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب باعتبار اشتمالها على ذلك، ويقابله الباطل".[1]، كما أنه قابل العلم بالعمى، تجسيماً للفروق، ولمساً للقلوب، وهذا أسلوب من أساليب القرآن العجيبة.

أمـــا الترتيب التفصيلي للآية فهو: المقابل لمن يعلم، أن أنزل إليك من ربك هو الحق، ليس هو من لا يعلم هذا، ولكنه جعل المقابل هو الأعمى، ليدل على أن الآيـــات مـــن المرئيات، وليدل على أن الأعمى وحده، هو الذي ينشئ الجهل بهذه الحقـيقة الواضحة، التي لا ينكرها إلا أعمى، انطمست إدراكاته، واستغلقت أبواب قلبه، وانطفأ قبس المعرفة في روحه، وانفصلت عن مصدر الإشعاع أو النور.

وإذن، فقـــد قســـم الأنفـــس في هذه الآية إلى صنفين اثنين: صنفٍ مبصر للحقيقة، فهو على علم من ربه، وصنفٍ أعمى، فهو لا يعلم.

وقصـــر العلم أو التذكر على أولي الألباب، "الذين يأخذون من القشر لبابه، ويطلـبون مـــن ظاهر الحديث سرّه"[2]، ولا غرو في ذلك، فالحكمة ضالة المؤمن، أينما وجدها التقطها.

وهكـــذا، فإن الاستغراق التأملي لهذه الآية، يحملنا على تأملات، لأنموذجين متباينين، صورة لأنموذج يمثل نفساً بلغت من الجهل والضلال، حتى صارت عن الحـــق عمياء، وصورة لأنموذج يمثل نفساً أدركت الحق وأبصرته واتخذته سلوكاً ومنهجاً؛ فهي بذلك مبصرة عالمة، استحقت أن توصف بالإدراك والتعقل، والتنبيه والتفكر؛ فإذا ما ذكّرت بالحق تذكرت.

لذلك كان من طبعها وحالها الوفاء وعدم نقض الميثاق، "والذين يوفون بعهد الله ولا ينقضـــون الميـــثاق"، وكان من طبعها وحالها الاستقامة والطاعة الكاملة، وعدم الانحراف والالتواء، "والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل"، فكان سيْرها على وفق منهج الواحد الأحد، وفوق ذلك كلّه، تنتابها الخشية من الله والخوف من

---

(١) التعريفات، علي الجرجاني، ص ٨٨.

(٢) المرجع نفسه ،ص٣٥.

سـوء الحساب، لذلك فهي نفس مراقبة لربها على الدوام، تتذكر الحساب قبل يوم الحساب.

"والذين صبروا ابتغاء وجه الله"، ويحسن بنا أن نذكر أنواع الصبر، إذ هما نوعان: صبر على الطاعة وصبر عن المعصية، وهو في العربية "تقيض الجزع، ثم كثر استعماله في الصبر على الشدائد والمكاره، والصبور الحليم الذي لا يعاجل العصاة بالنقمة، بل يضبط أمره، فيعفو أو يمهل".(١)

وعلـى أيـة حال، فإنّ صيغة الفعل الماضي للصبر "صبروا" تؤكد امتلاء نفس المؤمن بهذه الصيغة إزاء كلٍّ ما من شأنه يحتاج لهذه الصفة، إن هذه الصفة ما كانت سمة لإبراز الذات وتعزيز حسّ الأنا: أي تجملاً، ليقال: قد صبرتُ، وما كانـت رجـاءً في نفع، وإنما كانت ابتغاء وجه الله، واستسلاماً لقضائه ومشيئته، بمعـنى أنها كانت تنبثق من نزعة إيمانية محضة، أو من حسٍّ إيماني بكل أبعاده ومقوماته التي تشكل المقوم الأول لشخصية الأنموذج المؤمن.

"وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرًّا وعلانية".

ومـا أكثر تكرار هذه الصفة في القرآن للمؤمنين! أليست الركن الأول لهذا الوفـاء؟ أليست مظهر التوجه الخالص للواحد الأحد؟ أليست الصلة الظاهرة بين العبد وربه؟ بلى...

أمّـا الإنفـاق في السرّ والعلن، ففيه مظهر لصورة نفسية، توحي بالإيثار لمرضـاة الله، فهـي تـنفق في السر حيث تصان الكرامة، وتنفق في العلن أسوة وتنفيذاً وطاعة.

وأمـا قولـه تعـالى: "ويدرأون بالحسنة السيئة" تجسيد عجيب لحقيقة هذه الـنفس، ففي لفظ "يدرأون" ما يشير إلى الدفع بقوة وشدّة، وفي تقديم الحسنة على السـيئة ما يشير إشارة واضحة على انصلاح أنفسهم، وذلك لأن الأصل في نفسِ المؤمـن، حـبُّ الخير وطلبه، وعدم التفكير بالشر، والابتعاد عنه، إلا إن الأنفس الخيّرة، إذا ما فكرت بالشرّ أو فعلته، تداركت نفسها بالتوبة، وهجمت على الطاعة وعمل الخير.

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، مادة "صبر".

ونفسٌ تدرأ بالحسنة السيئة، تجاوزت القمة، في توجيهها إلى الخير وكسرها شوكة حب الأنا والاستعلاء.

لا شـك أن الصـورة المستنبطة من الآيات تحمل جوهر العمق لمدلولاتها الإيحائية، إنها صورة قرآنية مذهلة معبرة لتلك النماذج من النفوس، نستشف منها صـورة نفسية خيّرة، تجعل عمل الخير ابتداءً في التفكير والقول والعمل، وإذا ما وقعت في مخالفة، أسرعت للتوبة وعمل الخير.

ومن الصور النفسية الجميلة ما جاء في قوله تعالى: (وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُـونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا(٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِـرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا(٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَـانَ غَرَامًا(٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا(٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْـتُرُوا وَكَـانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا(٦٧) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ الـنَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا(٦٨) يُضَاعَفْ لَـهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا(٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَـئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا(٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَـالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا(٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَـرُّوا كِـرَامًا(٧٢) وَالَّذِيـنَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْـنَا لِلْمُتَّقِيـنَ إِمَامًا(٧٤) أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا(٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا(٧٦)) [1].

إن فـي الآيـات ألفاظاً ومعاني كما هو باد، تبرز صفات متميزة وصفات خاصـة، لِ "عباد الرحمن" وكأنما هم خلاصة البشرية ، صفات يستحقون بها أن ينسـبوا لهـذا الاسـم الجليل، هذه الصفات بمجملها وتفصيلها، تشكل قيماً مادية ومعنوية في آن معاً، نستشف منها صورة لتلك النفس السوية المطمئنة، وما يختلج ويستكن فيها من مشاعر.

وأول هـذه الصفات: "وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً" إنها صفة تطفو على سطح سلوكهم، لكنها تعبر عما يستكن في أنفسهم من مشاعر.

---

(١) الفرقان، ٦٣-٧٦.

ولتجلية الصورة النفسية، لا بُدَّ من دراسة الألفاظ، التي وردت في التعبير. فـــ (عــباد) لهــا معــنى يخــتلف عن (عبيد)، إذْ لكلٍّ منهما معنى يختلف عن الآخــر.[1]... إن كلَّ خلق الله عبيداً ... تجري عليهم أمورٌ قهريةٌ، لا اختيار لهم فيها، بينما (عباد) تشير إلى الناحية الاختيارية، إذ يستطيع كل واحد منهم أن يفعل أو لا يفعل، يطيع أو لا يطيع، بمحض اختياره.

وكونهم ألزموا أنفسهم، الطاعة بمحض إرادتهم واختيارهم، ودخلوا في حب الله، وألــزموا أنفسهم بمنهجه، استحقوا هذه الكلمة التي لا تشير إلا للخاصة، أي لمــن اختار أن يكون عبداً لله، أو اعترف اعترافاً إرادياً بالحق الواحد الأحد. أما إضــافتهم لهذا الاسم الجليل ففيه تشريف لهم؛ لكون هذا الاسم مشتق من الرحمة، والرحمة أجلُّ صفة تتدفق بفيض العطاء، دون حساب فمن كان في ظل هذا الاسم وكنفه، تدفقت عليه رحمة الله، وفاض عليه عطاؤه وقد ورد في الحديث أنه قال ﷺ : إن لله مــئة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فــيها يتعاطفون وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها. وأخّر الله تسعاً وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة".[2]

على ذلك، فالتعبير يقدم مفهوماً خُلقياً "لعباد الرحمن" يتضمن جميع الخصال التــي ينــتظر أن يتحلى بها هذا الأنموذج، وأول هذه الخصال: أنهم يمشون على الأرض هوناً، "ليس فيها تكلف ولا تصنّع، وليس فيها خيلاء ولا تنفج، ولا تصعير خــدٍّ ولا تخلــع أو ترهل".[3]، يمشون على الأرض بخفة ورفق وسكينة ووقار، هينون لينون، لا جبّارون ولا مستكبرون، وهذا كله تعبير عن نفسٍ سويةٍ مطمئنةٍ لا كــبر فيها ولا عجب ولا تطاول بالإضافة إلى أن المشية تعبير عن الشخصية، ومــا يســتكن فيها من مشاعر، وقد قيل:" تخبر عن نفسه مرآته".، فالنفس السويّة المطمئــنة المتواضــعة، لا بُدّ أن تخلع صفاتها على مشية وسلوك صاحبها، فتراه يمشي مشياً لا عنف فيه، ولا مرح ولا بطر ولا تبختر ولا تعاظم، ولا ضرباً على

---

(١) راجع الشيخ محمد متولي الشعراوي وقضايا العصر، أحمد زين، ج١، ص ٦٠.

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن الرسول ﷺ ،صحيح مسلم ،ج٤ ،ص ٢١٠٨.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، م١، ج١٩، ص ٢٥٧٧.

الأرض، ولا تطـاول فـي السماء، ولا فساد فيه ولا علواً. وثاني الخصال: "وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً"، وهي صفة ظاهرة –أيضاً– في السلوك، لكنها تدل علـى عظـيم خُلُقٍ، متأصل في نفوسهم وكيانهم الداخلي، ورجحان عقولهم، فلا يستثيرهم حماقة الحمقى، وجهل الجاهلين، ولا رعونة الرعناء، وسفاهة السفهاء ، بل يضبطون ألسنتهم، فلا يقابلون الجهالة القولية بمثلها، لكنهم يضبطون أعصابهم، لا عن عجز أو ضعف منهم وإنما عن ترفع واستعلاء فليست الرجولة في مقاييس أخلاقهـم، قوة الجسم أو القدرة على الغلب في المصارعة، إنما الرجولة والبطولة عـندهم، أن يملك المرء نفسه عند الغضب، روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "ما تعـدُّن الصُّرعة فيكم"، فقالوا: " الذي لا تصرعه الرجال. فقال: "ولكنّه الذي يملك نفسه عند الغضب".(١)

لعـلّ مـا تقـدم قـد أوضح مفهوم قوله: "قالوا سلاماً" وأبعادها المعنوية والمادية.

علـى ذلـك، فالتعبـير يرسم صورة شعورية نفسية لهذا الأنموذج، تتمثل بالحلم، والصبر والفطنة والذكاء، أما الحلمُ؛ فهو منبعث من فيض مكارم الأخلاق التـي تـتحلى فـيها النفوس الرزينة الوقورة، التي لا تقابل الجهالة بمثلها، وأما الصـبرُ، فيتمـثل بصـبرهم على الأذى، الذي يتلقونه من خطاب الجاهلين، وأما فطنـتهم وذكـاؤهم، فيتمـثل بمعرفة قيمة الوقت، فلا يشغلون نفوسهم بالردّ على مهاترات الطائشين في جدل أو عراك. هذا بالإضافة إلى أن التعبير يرسم صورة لـنفوس تعـيش في أمن وطمأنينة وسلام، وهذا ما أشار إليه قوله: "قالوا سلاما"؛ فالإناء بما فيه يرشح، وما في الجنان يظهر على اللسان.

أمـا ثالثة الخصال فهي: "والذين يبيتون لربهم سجّداً وقياماً"، صورة ترسم المـنظر، حتى يخيل لمن يقرأ الآية كأنه يشهدهُ اللحظة، بكل من فيه وكل ما فيه! وهي خالدة، تتكرر في كل زمان.

---

(١) رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود، صحيح مسلم ،ج٤ ،ص ٤٠١٤.

والآن، هاهم أولاء في جنح الظلام، والناس نيام، يتهجدون بكثرة السجود لله وحـــده، وكـــثرة القـــيام لله وحده. وهاهو التعبير الدقيق، البالغ في الدقة، يكشف حالتهم، فيجسمها في لوحة أو مشهد، وكل ذلك يرسمه بريشة الألفاظ.

لا شك أن التراكيب اللغوية في التعبير، تشكل جوهر الآية؛ إذ يشكل التعبير أدق الإشارات التي تنقلنا إلى ما يُحيه من معانٍ وصور.

فتقديم شبه الجملة من الجار والمجرور "لربهم" سُجداً وقياماً" يفيد الحصر، وهذا ما يسمى بتقديم المعمول على عامله، كما جاء في تقديم السجود على القيام؛ إشارة إلى حالة القرب من الله؛ فأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، كما أن الســـجود تعبير مادي وجسدي عن كمال الخضوع والطاعة لله وحده، في نفوسهم وأعمـــاقهم ، وأمـــا قـــوله: "يبيتون لربهم" فهو إشارة إلى بُعْدِ أنفسهم عن الرياء والسمعة؛ فهو سجود صادق الدلالة على معنى الخضوع لله وحده.

وهكـــذا، يتحقق لدينا من وراء هذا الترتيب، وهذه الألفاظ، قيمة فنية أدبية، تكشـــف الســـجوف عن تلك النفوس، التي امتلأت بالإيمان والصدق، وابتعدت كلّ البعد عن الرياء والسمعة.

وأما رابعة الخصال فهي قولهم في دعائهم لربهم: "ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما إنها ساءت مستقراً ومقاماً".

دعـــاءٌ يكشف مشهداً لصورة نفسية جلية معبرة ، لهذا الأنموذج ، اجتمعت فـــيها كـــل عناصـــر الصدق النفسي فالصورة توحي بنفوسٍ، امتلأت بالتقوى، والخشية من الله، والخوف من عذاب جهنم، نفوسٍ ارتعشت خوفاً من عذاب النار، نفوسٍ اطمأنت إلى أن الله وحده، هو الذي يصرف عنها هذا العذاب.

والتعبـــير يوحـــي بصحة إرادة أنفسهم، وصدق عزيمتهم، لأن نفوسهم قد امـــتلأت اعتقاداً، بأن الأمر لا يتم إلا بتوفيق الله أولاً، وصحة إرادة العبد وصدق عزيمته ثانياً، إذ لولا هذا الاعتقاد لما توجهوا بالدعاء لربهم.

وأمـــا خامســـة الخصال: "والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلـــك قواماً". أي كان إنفاقهم، قواماً وسطاً معتدلاً، لا إسراف فيه، ولا تضييق أو تقتـــير. وقـــد أشـــار رسول الله ﷺ لهذه القاعدة حين قال: "إن لكل شيءٍ طرفين

ووسطاً فإذا أمسك بأحد الطرفين مال الآخر وإذا أمسك بالوسط اعتدل الطرفان فعليكم بالأوساط من الأشياء"[1].

والتعبير يرسم صورة لحياتهم، صورة حية شاخصة، صورة الأنموذج المعتدل المقتصد المتوازن. صورة نظفر من خلالها على حقيقة نفوسهم، وما تتميز به من الحكمة في الإنفاق، فلا إسراف ولا إقتار.

وأما سادسة الخصال: "والذين لا يدعون مع الله إلها آخر"، فلا يرون الأسباب فاعلة، بل يرون الله فاعل الأسباب؛ فلا يشركون مع الله ظواهر نظام الكون فاعلاً، وإنما عرفوا إن كل ما فيه أسباب تخضع للمهيمن العزيز الجبار، فلا تؤثر إلا بإذن الله عز وجل، إذ هو الذي وضع فيها خصائصها وصفاتها. وهذا لا يعني أنهم متواكلون، وإنما هم في ظواهر الأعمال سببيون، وفي أعماق أنفسهم متوكلون على الله وحده، فلا يدعون مع الله آلها آخر. وإنما يباشرون الأسباب، وهم على يقين من أن الله هو الذي يحقق لهم ما يرجون من نتائج فلا يسألون غيره.

فالصورة التي ترسمها الآية، تكشف النقاب عما حوته تلك النفوس من شعور صادق، واعتقاد أكيد، ويقين حق. بطلاقة قدرة الله، وقيوميته في كل شيء، وهيمنته على كل شيء، فلا عجب أن تكون نفوساً ساكنة، خالية من القلق تجاه مطالبها، ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤)﴾. [2]

وأما سابعة الخصال: "ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلاّ بالحقّ". إنها صورة للنفس التي تحترم الحياة الإنسانية، وتجعل لها قيمة ووزناً، وهي بذلك تربأ عن الصفات الوحشية وشريعة الغاب.

---

(١) رواه أبو يعلى بسند جيد عن وهب بن منبه ، كشف الخفاء ،إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي ، ج١ ،ص٤٧٠.

(٢) غافر، ٤٤.

وأمـــا ثامـــنة الخصـــال: "ولا يزنون" صورة للنفس الشريفة النظيفة، التي ترفعـــت عـــن صفات الحيوان وارتقت إلى ما هو أسمى وأرفع من إشباع سعار الشهوة الهابطة.

وأمـــا تاســـعة الخصال: "والذين لا يشهدون الزور". والزور في اللغة، هو :"الكـــذب والباطل، وأصل مادة الكلمة يدلُّ على معنى الميل، يقال: ازورَّ عَنْهُ إذا مـــال".(١) و"الـــزور هـــو الكـــذب الذي قد سُوّي وحُسّن في الظاهر ليحسب أنه صـــدق".(٢)، وعلى كل فالآية تقدم أنموذجاً لنفس تكون سنداً لجانب الحق ومعينة للقضاء على إقامة العدل، فلا تخون ولا تكذب. وأما الخصلة العاشرة: "وإذا مرّوا بـــاللغو مروا كراماً". واللغو: "السقط وما لا يعتدُّ به من كلام وغيره، ولا يحصل مـــنه على فائدة ولا نفع".(٣)، والآية تصور نفساً جادةً، إذ اللغو لا يستقيم مع جدية الشعور بعظم أمانة التكليف التي حملها الإنسان أمام خالقه؛ لذلك نجدها مُكرِّمة عن تضييع الوقت في اللغو، سواءٌ أكان قولاً أو عملاً، ومن شأن النفوس الكريمة، إذا مـــرَّت بشيء مرّت بخفةٍ ولطف، فلا هي فظة، ولا هي غليظة، وإنما هي مكرمة عن الاشتغال بما لا نفع فيه ولا فائدة منه.

أمـــا الخصلة الحادية عشرة: "والذين إذا ذكِّروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صُـــمّاً وعمياناً". وللزمخشري بيان لطيف في تدبُّر هذه الآية، إذ يقول: "ليس بنفي للخرور، وإنما هو إثبات له، ونفي للصّمم والعمى، كما يُقالَ: لا يلقاني زيدٌ مُسَلِّماً، هـــو نفـــي للسلام لا اللقاء، والمعنى: أنهم إذا ذُكرّوا بها أكبّوا عليها حرصاً على اســـتماعها، وأقبلوا على المذَكَّر بها وهم في إكبابهم عليها، سامعون بآذان واعية، مبصرون بعيون راعية".(٤)

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، مادة "زور".

(٢) الفروق، أبو هلال العسكري، ص ٥١.

(٣) لسان العرب، ابن منظور، مادة "لغو".

(٤) الكشاف، الزمخشري، ج٣، ص ٢٨٧.

وعلى كلٍّ فالآية تبرز جانباً سلوكياً عملياً، يترجم مشاعر وأحاسيس وانفعالات وجدانية وفي النهاية، هو ترجمة عملية للإيمان، الذي استقر في القلوب واطمأنت له النفوس.

أمّا الخصلة الثانية عشرة: "والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذريّاتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً". وفي "قرة عين" كناية عن غاية السرور والسعادة بالأزواج والذرية، وجاءت "أعين" على صيغة جمع القلّة، لتدل على أن المتقين أقلّة، وهذا شبيه بقوله: (يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ(١٣". (١)، أو "لأنه أراد أعين المتقين، وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم".(٢)، والمعنى كما هو باد، إنّ عباد الرحمن يرجون ويدعون ربَّهم بأن يهبهم الله قرّة أعين من أزواجهم وذرياتهم، وهذه لدنياهم، إلا إن لها امتدادا بأن يهبهم الله قرّة أعين من أزواجهم وذرياتهم، وهذه لدنياهم، إلا أن لها امتداد لأخراهم، كما يدعون ربهم بأن يجعل لهم منهم قدوة ممتازة تصلح للإمامة.

إن الإنعام في النص يوحي بشعور إيماني عن وعي اليقين، لذا فإن الاستغراق التأملي، لهذه الآية يفضي إلى قاعدة إيمانية راسخة، بأن هذا الأنموذج قد تيقن وتحقق أنّ الله وحده، هو الذي يستطيع أن يحقق لهم ما تصبوا إليه أنفسهم، من حب الخير واستمراره في مضاعفة السالكين في الطريق إلى الله، وفي خصهم للأزواج والذرية إشارة إلى حُسْن حفاظهم وغيْرتهم على ما أتمنوا عليه، وفي ذكر الإمامة، إشارة إلى رغبة النفوس، في أن تكون قدوة للخير، ويأتمُّ بها، إذ لا يكون إماماً للمتقين، إلا من هو في مرتبة فوق مرتبة المتقين، فهو من الأبرار أو من المحسنين، وليس في هذا من أثرةٍ أو استعلاء. وهكذا، فإنّ دعاء هذا الأنموذج، بهذه الصورة، يوحي بشتى الإيحاءات، إلى الرغبة في تحقيق تواصل الخير واستمرار الأنموذج الإمام، وبما أن هذا، لن يتحقق لهم إلا بتوفيق الله، نجد

---

(١) سبأ، ١٣.

(٢) الكشاف، الزمخشري، ج٣، ص ٢٨٨.

أنموذجـاً قـد انكفأ بالكلية على الذات، واستغرق بالولاية الإلهية، وهذا هو جوهر الدعاء.

ومـن الآيـات التـي تـتجلى فيها الصورة النفسية للمؤمنين، قوله تعالى: (آمَـنَ الرَّسُـولُ بِمَـا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُـلِهِ لَـا نُفَـرِّقُ بَيْـنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ(٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَـا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِـنَا رَبَّـنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)). [١]

الآيـات خـتام سورة البقرة، وهو ختام يتناسق مع بدء السورة، لكنه يسلط الضوء على صورة بالغة الأهمية في نفسية المؤمن، فلو تأملنا قوله:"آمن الرسول بمـا أنزل إليه من ربه والمؤمنون"، لتجلى لدينا صورة لها دلالاتها الواضحة، في الإكـرام الذي منحه الله عباده المؤمنين، بجمعهم في الوصف مع الرسول الكريم، وهـذا يفهم من سياق التعبير، ومن توزيع الفعل في(آمن) بين الرسول والمؤمنين، بمعـنى أن إيمان المؤمنين هو إيمان الرسول وإيمان الرسول هو إيمان المؤمنين، وهذا تعبير آية في الروعة والجمال، بما يشير إلى إكرام الله –سبحانه– لهذه الفئة المؤمنة، التي تمثلت في نفوسها حقيقة الإيمان، فارتقت مرتقى سامقاً، نستشف منه صـورة التكويـن الإيماني في النفوس، وهذا ما أشار إليه النص وأكده "كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله"

والسؤال الذي يطرح نفسه، ما الصورة النفسية التي تجلت في هذه الآيات؟ ...وللإجابة على هذا السؤال، لا بد من فهم صحيح لمعنى الإيمان.

جـاء فـي اللسان أن" الأمان والأمانة بمعنى وقد أمنتُ فأنا أمنٌ ، وآمنتُ غـيري، من الأمن والأمان. والأمن: ضدُّ الخوف. والأمانةُ ضد الخيانة والإيمان ضـدُّ الكفـر، والإيمان بمعنى التصديق".[٢]، والمادة توحي بالاطمئنان من الأمن

---

(١) البقرة، ٢٨٥-٢٨٦.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، مادة "أمن".

والأمانـــة والأمين والمأمون...؛ فالإيمان: "اطمئنان القلب إلى قضية ما...، ومعنى ذلـــك أنها تجاوزت منطقة العقل الذي يبحث في صدقها، واستقرت في القلب، فلا تطفو للذهن مرّةً أخرى لتناقش من جديد"(١).

وبعـــد هذا يمكننا الآن الرجوع للآيات، ونتأملها حقّ تأمل، وإذا كان كذلك، فإنا-لاشك- أمام صورة لنفس ثابتة، قد استقرت على مبدأ أو قضية اطمأنت إليها، إذ لم يعد هناك شك أو ريبة تساورها في هذه القضية أو هذا المبدأ، وإنما أصبحت نفس في منتهى التسليم، لتلك القضية والاطمئنان إليها.

ثم تنتقل الآيات لرسم صورة نفسية أخرى، هذه الصورة منبثقةٌ من الإيمان بـــالله وملائكته وكتبه ورسله،" كلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحـــد مـــن رســـله"، فالصورة المستنبطة من هذه الآيات تحمل كل معاني التوجه والاستســـلام والطاعة لأمر الله. ومع السمع والطاعة،" قالوا سمعنا وأطعنا" ينبثق منها صورة الشعور بالتقصير والعجز عن توفية نعم الله حق شكرها، وفرائض الله حق أدائها، لذلك فهي تلتجيء إلى الله بطلب المغفرة مع تيقنها بأن المصير إلى الله في الدنيا والآخرة،" غفرانك ربنا وإليك المصير"

وخلاصة القول: إن في هذه الصورة، مزيجاً من الانفعالات الايجابية، إنها ترســـم السمة الكبرى لهذه النفس وطابعها الذي تتميز به، من الانقياد والطاعة لله وحده، مع الشعور الشديد بالتقصير.

أما قوله:"لا يكلف الله نفساً إلا وسعها..." فيرسم مزجاً من الصور النفسية، نلحظـــهُ مـــن ظلال الألفاظ،" وللألفاظ كما للعبارات ظلال خاصة، يلحظها الحس البصـــير، حيـــنما يوجّه إليها إهتمامه، وحينما يستدعي صورة مدلولها الحسية".(٢) وظل اللفظ هو ما يوحي به للمتلقي من دلالات وإيحاءات ومعان.

وأول صورة يتنبه لها الحسّ البصير، "لا يكلف الله نفساً إلا وسعها"، وهذا ينقلنا إلى النماذج فيما يخص عزم النفس البشرية، والتي هي على ثلاثة أضرب:" القسم الأول: هو ما لا قدرة للنفس عليه، وهذا بعيد عن التكليف. والقسم الثاني: ما

---

(١) معجزة القرآن الكريم ، محمد متولي الشعراوي ،ص١٥٣.

(٢) التصوير الفني، سيد قطب، ص ٧٨-٧٩.

كـــان للنفس عليه قدرة، ولكن بمشقة وجهد وعناء، أما القسم الثالث: فهو التكليف بالوســـع".[1] وهـــو الذي صرحت به الآية الكريمة، مع تضمنها معنى الأضرب الأخرى، ففي قوله:"لا تحمل علينا إصراً" أي ثقلاً وشدّة، يفيد معنى المشقة والجهد والعناء، وأما قوله:" ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به" يفيد معنى ما لا قدرة على النفس بـــه، فـــإذا فهمنا ذلك، أدركنا الصورة التي يرسمها القرآن، لحالة تلك النفوس،"لا يكلف الله نفساً إلا وسعها" أي أنها صورة نفسية شعورية وجدانية، تعبّر عما يختلج تلـــك النفوس من تمثلٍ لرحمة الله الواسعة وإحساس عميق بِعَدْلِهِ في التكاليف التي يفرضها عليها. وهو في الآية، يصور لنا ما عليه المؤمنين من وَسْعِ التكليف، وفي الوقت نفسه، ينقلنا إلى صورة ما كان عليه، مَنْ كان قبلنا من تكاليف شاقة شديدة؛ فمـــا كـــانوا ينصلحون إلا بالتكاليف الشاقة، وهذا ينقلنا إلى الشعور بصورة طباع نفوســـهم الغلـــيظة، ويجعلنا نشعر في الوقت نفسه، صورة طباع نفوس المؤمنين اللطـــيفة، ومـــا تتحلى به من كرم الخلق وعلو الهمة، حتى صار يكفيهم التكليف الســـهل فـــي حصول مصالحهم، وفوق ذلك كله نستشعر صورة النفوس المؤمنة، وهي تتضرع مخبتة معترفة ملتجأة. وفي خاصية صيغة الجمع بالدعاء، أي بقولهم "ربـــنا" بـــالجمع، شعور باجتماع النفوس، واجتماعها يوحي بقوة الهمم، واجتماع الهمم على كل شيء، تحصيل له، أو كان حصوله أرجى.

ومـــن الأمـــثلة أيضاً قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ(٢٧٣)﴾.[2]

يـــبرز في النص مشهدُ، لصورةٍ نفسيةٍ معبرةٍ عميقةٍ، لنموذج من المؤمنين كـــريم. والمـــتأمل النصَّ حقَّ تأملٍ، يجد كلَّ جملةٍ فيه، لمسةُ إبداع، ترسم ملامحَ وسماتٍ، تعكس جانب الاستحياء والتعفف، وما يكاد المتلقي -سامعاً أو قارئاً- يتم القـــراءة حتى تتشكل في ذهنه، تلك الصورة الكاملة لتلك النماذج، كأنما يراها، أو كأنما هي ظاهرة للعيان نابضة حية.

---

(١) راجع تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، ج٢، ص ١٢٤٢.

(٢) البقرة، ٢٧٣.

ويقيني أن الصورة توحي بوصف، هو في غاية الروعة لهذا الأنموذج من المؤمنيـــن، تتعفف أنفسهم عن السؤال. بل "يتعفف ويعلو بنفسه فوق معاناة العوز والفاقـــة، فلا يسأل الغير (كذا) حفظاً لكرامته، وتنزيهاً لإيمانه وتقواه عن التوجه لغـــير الله؛ فيـــبدوا هذا للناظر إليه أنه غني وهو فقير وأنه القوي، وهو الضعيف وأنه الشامخ وهو الضئيل".(١)

لنـــتأمل الآن ظـــل الألفاظ التي وردت في نص الآية، إذ توحي بكثير من المعاني والإيحاءات، وتكشف السجوف عن صور تلك النفوس السامقة، التي علت بعفتها وكرامتها ونبلها، على الرغم من فاقتها وحاجتها وعوزها.

وأولّ مـــا يطالعـــنا في النص استهلالة شبه الجملة، من الجار والمجرور: "للفقراء" وفي العربية إذا استهلت الجملة، بشبه جملة؛ فلا بُدّ من متعلق، وهو هنا النفقة.

أمـــا الفقـــر، فمأخوذ من "الفُقرة، وهي الحفرة، وجمعها فُقر، وسمي سيف النبـــي ذا الفقـــار لأنـــه كانت فيه، حُفر صغار حسان، وهي الحزوز، ومن ذلك الفاقرة: الداهية الكاسرة للفقار، يقال: فقرته الفاقرة، أي كسرت فقار ظهره، والفقير معـــناه المفقور الذي نُزعت فِقَرَهُ من ظهره، فانقطع صُلبه من شدة الفقر، فلا حال هـــي أوكد من هذه. والفقيرُ الذي لا شيء له".(٢)، وهذا يعني أن ظلّ اللفظ يوحي بالحاجـــة والعـــوز والفاقـــة. "أحصـــروا": مـــن الحصـــر وهو "المنع والتضييق والحـــبس".(٣)، والحصر يأتي على نوعين: "بما لا تقدر أنت على دفعه، وبما تقدر علـــى دفعـــه".(٤)، وجوُّ النص يوحي بالنوعين؛ فإما أنهم "حصروا أنفسهم ووقفوا علـــى الجهاد في سبيل الله، لأن سبيل الله مختص بالجهاد في عرف القرآن، ولأن وجـــوب الجهـــاد فـــي ذلك الزمان كان آكد، فكانت الحاجة إلى من يحبس نفسه للمجاهدة مع رسول الله ﷺ أشد".(٥)، وإما أن يكون من أمر خارج عن إرادتهم.

---

(١) القرآن الكريم، والسلوك الإنساني، محمد بهائي سليم، ص١١٨.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، مادة "فقر".

(٣) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص ١٢٠.

(٤) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، ج٢، ص ١١٧٨.

(٥) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسبوري، ج٢، ص ٥٤.

"لا يستطيعون ضرباً في الأرض": والضرب: "إيقاع شيءٍ على شيءٍ".[1]، ومـــا دام الأمر ضرباً في الأرض؛ فإن ظل اللفظ يدلُّ على أن الكفاح في الحياة، يجب أن يكون في غاية القوة، ودون هوادة، سواءٌ كان ضرباً في الحرث أو ضرباً في التجارة أو غير ذلك، ولكونهم لا يستطيعون ضرباً في الأرض، فهو آكد على عدم المقدرة لوجود مانع قويٍّ يمنعهم عن ذلك.

"الســـيما": "العلامـــة المميزة".[2]، وكونه قال: "تعرفهم بسيماهم"، فهو دليل علـــى واجـــب المؤمن تجاه أخيه المؤمن، من تفقد لأحواله من خلال حاله، وهذا يتطلب فراسة وفطنة إيمانية تكفي المحتاج السؤال عن سؤاله؛ فإذا ما سأل –مجرد سؤال– فكأنه ألحف في المسألة وألح عليها، ولأن الأصل مرآته تخبر عن حاله.

بعـــد هـــذا العرض الموجز لمعاني الألفاظ، دعنا نتفيأ ظلال النص، لنصل على ما يوحي به من الصور النفسية لهذا الأنموذج من المؤمنين.

فقولـــه: "للفقـــراء الذيـــن أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض"، يوحي بنماذج قد حبست نفسها عن الضرب في الأرض، والأخذ بأسباب العـــيش، مع حاجتها الماسة لذلك، حبست نفسها لما هو أسمى من ذلك بكثير، ألا وهـــو الجهـــاد في سبيل الله، وما كان ذلك الفعل منها إلا لحاجة الإسلام في ذلك الوقت لقوم يحبسون أنفسهم للجهاد، ولا يشتغلون بغيره، وأنفس حُبست لهذه الغاية طوْعـــاً منها، أنفس هي في غاية الإيثار، وفي غاية التضحية، وفي غاية الانتماء، وفـــي غايـــة الإخـــلاص، إنها نفوس وقفت مع الله بالله؛ فلا شغل لها إلا ما يعلي كلمـــته، فاستبشـــرت قلوبهـــا حيـــن انكسرت نفوسها، فلا مجال للنظر إلى الدنيا وزينتها.

ومـــع عوزها وشدة حاجتها لكل مساعدة، إلا أنها ترفعت عن السؤال، بل بـــدت غنـــية للعيان، كل ذلك من شدة تعففها ونبلها وكرمها، ويقيني أن ختام الآية يشـــير بذلك؛ فقوله: "وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم"، إذ توحي بالإنفاق على

---

(١)المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص ٢٩٤.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥٢٤.

هــؤلاء خفية، خوفاً من أن يخدش إباء نفوسها أو تجرح كرامتها، وهي – الآية– تطمئن أصحاب النفقات بأن الله يعلم بها.

ومثالٌ آخر، يثير هزّةً في النفس، ويترك أثراً في الوجدان:

قــال تعــالى: (يَاأَيُّهَــا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ(١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١٠٣)). [١]

يبرز في النص خطاب للمؤمنين، بصورة الأمر؛ بأن يتقوا الله "وفق الأمر لا يزيد من نفسه ولا ينقص".[٢]، وأن يذكروا، إذْ كانوا أعداءً فألف الله بين قلوبهم، ثــم ينتقل النص لرسم صورة شاخصة حية، يرسُم الصورة التي كان عليها القوم، قبل الإسلام، من شقاق، ونزاع وخلاف وقتال، وكأن المشهد حيٌّ متحرك، تتحرك معــه القلوب خافقة، وتكاد العيون تراه شاخصاً أمامها، وبينما حركة السقوط في حفــرة الــنار متوقعة، إذا بالقلوب ترى يد الله تنقذ، وتدرك الأمر، وإذا حبل الله المتيــن يعصــم، وإذا النجاة والخلاص بعد خَطَرٍ مدلهم ومترقب، وفوق هذا كله، يؤلف بين القلوب، مَكْمَنُ المشاعر والروابط وكأن القلوب حزمة.

وهكذا ترتبط الصورة الحركية لهذه الآيات، ارتباطاً واضحاً بثنائية الماضي والحاضر، ما قبل الإسلام، وما بعده. وهي صورة لا تخفى على ذي لب، أو حتى المتلقي أيّاً كانت درجة ثقافته.

ولكن تأمل الآيات حقَّ تأملٍ، يكشف عن نفوس كانت على شيء، وأصبحت على شيءٍ آخر، نقيض ما كانت عليه. لقد كانت في غمرةٍ من الشحناء والبغضاء والتــنافر والخــلاف، وصدق القشيري حين قال: "كانوا أعداءً حين كانوا قائمين بحظوظهــم".[٣]، أي أن نفوســهم مــتزاحمة بالحظوظ والهوى، ومقتضى ضيق البشــرية، ثم أصبحت –نفوسهم– بالتأليف بين القلوب، متراحمة متناصحة، أسيرةً

---

(١) آل عمران، ١٠٢-١٠٣.

(٢) لطائف الإشارات، القشيري، ج١، ص ١٦٤.

(٣) لطائف الإشارات، القشيري، ج١، ص ٦٥.

فـــي قبضة القضاء، فلا تعادي أحداً البتة. لقد أصبحت نفوساً زكية طاهرةً متآلفة متحابة متوادة، وكأنها حزمة واحدة.

وبعد هذا كلّه دعنا نتأمل قوله تعالى: (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِــرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ(١٠)). (١)

ولـــيس بخافٍ على أنّ الآيات "نزلت بحق التابعين"(٢)، وعلى أية حال، فإنّ جوّ النص في الآية يشير إلى صورة تبرز سمة وملامح نفوس التابعين تتجلى فيها "الآصـــرة القوية الوثيقة التي تربط أول الأمة بآخرها، وآخرها بأولها في تضامن وتكـــافل وتـــواد وتعـــاطف، وشعور بوشيجة القربى العميقة التي تتخطى الزمان والمكـــان، والجـــنس والنســـب، وتتفرد وحدها في القلوب، تحرك المشاعر خلال القرون الطويلة، فيذكر المؤمن أخاه المؤمن بعد القرون المتطاولة ، كما يذكر أخاه الحي أو أشد، في إعزاز وكرامة وحب، ويحسب السلف حساب الخلف، ويمضي الخلـــف على آثار السلف، صفاً واحداً، وكنية واحدة على مدار الزمان واختلاف الأوطان".(٣)

علـــى ذلـــك، فالنص يقدم صورة طائفة بصفاتها الواقعية الحية، وطبيعتها الحقيقية، هذه النماذج تمثل الأجيال على مرّ الزمان والمكان، إنها تبرز صورة تلك النفوس، وقد خلت من الحقد والغل، واتسمت بالتكافل والحب والوفاء، ولا غرو إن قلـــت: إنهـــا صورة بمثابة الوثيقة لشخصية المؤمن، ونفسُهُ التي تخطت حواجز الـــزمان والمكـــان والجـــنس والنسب والعشيرة، ومضت بطريقها صعداً إلى الله وأعلنت نسبها إليه.

---

(١) الحشر، ١٠.

(٢) انظـــر: تفســـير الفخر الرازي، محمد الرازي، ج٢٩، ص ٢٨٩، وقيل المهاجرين ولا يكاد يخرج ما في التفاسير الأخرى عن ذلك.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج٢٨، ص ٣٥٢٧.

* محور الكافرين

إن تصـــوير الـــنفوس وتمثيلها في الأذهان، على ما هي عليه من حسن أو قـــبح، ليثـــير في نفس المتلقي انفعالاتٍ، تجعله يتأثر تأثيراً يترك أثره في النفس. وعلى ذلك تقوم صورة النفس في الخيال الذهني للمتلقي على حدّ ما هي عليه في حقيقتها عند الشخوص أو النماذج المقصودة بهذا.

وما دام البحث قد عَرَضَ صورَ نفوس المؤمنين، وما هي عليه حالتها، فلا بُـدَّ للبحـــث أن يعرِّج على صور نفوس الكافرين، وما هي عليه حالتها. وأول ما يطالعنا في ذلك قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٧)). [1]

لقـــد صـــورت الآيتان الكفار الذين وقفوا موقف الكفر الواضح، في قلوبهم وفـــي سلوكهم وفي تدابيرهم، صورتهم بصورة نفسيّة معتمة، إذ بدا من النص أنّ نوافذ التلقي مغلقة، وأرضية القابل معطلة؛ فلا نور يصل إليها ولا هدى، كيف لا؟ وقـــد خُتم على قلوبهم، وغُشّي على سمعهم وعلى أبصارهم؛ فهم لم يكفروا لأنهم في حاجة إلى أن يلفتهم رسول أو نبي إلى منهج الله، ولكنهم اتخذوا الكفر صناعة، ومنهج حياة، حتى تساوى لديهم الإنذار وعدمه.

إن الصورة توحي بتعطيل آلاتِ الإدراك: القلب، والسمع، والبصر، مع أن النور واصب، إلا أن النفوس بقيت معتّمة، وما دام الأمر كذلك، فإنها محجوبة عن شـــهود الحقـــيقة، فلا رُشد لها، ولا هدى، لقد بقيت تتخبط في رعونات الضلال، حتى حُرمت بركات الرحمة، فلا تدرك بالسمع القبول، ولا تصغي لداعي الرسول، وهي بذلك استحقت ذلك الختم.

ولكي نقرب الصورة، لا بُدَّ أن نعقب على معنى الختم، فنجد أن الختم على الشـــيء يمنع ما ليس فيه أن يدخله، وهو يختلف عن الطبع والرَّين، "والذي ذهب إلـــيه المحققون أن الختم استعير من ضرب الخاتم على نحو الأواني لإحداث هيئة فـــي القلـــب والســـمع، مانعة من نفوذ الحق إليهما، كما يمنع نقش الخاتم – تلك

(١) البقرة، ٦-٧.

الظروف– من نفوذ ما هو بصدد الانصباب فيها، فيكون استعارة محسوسٍ لمعقول بجامع عقلي، وهو الاشتمال على منع القابل عما من شأنه أن يقبله".[1]، لقد فَسَدت تلـك المسـامع عن إدراك خطاب الحق من حيث الإيمان، لمّا اشتغلت به نفوسهم بالهواجس والوساوس عن حقائق العرفان.

"وفـي تكريـر الجار والمجرور إيذان باستقلال الختم على كل من القلب والسمع"[2]؛ فالختم والغشاوة مسببان عن الكفر، واقتراف المعاصي والآثام.

ومـن كانت هذه صورة نفسه – والعياذ بالله– فإنه مسوق، لعدم المبالاة بالمواعظ والزواجر والنواهي ... الخ، لأن القابل عنده معطل.

وكونهم صرحوا بكفرهم وأعلنوه، وحاربوا داعي الإيمان؛ فهو دليل واضح علـى أن نفوسهم، ركنت إلى جاه الدنيا وزخْرفها، وهذا يعني أنهم متميزون عن غيرهم بكفرهم، فلا يريدون الإيمان الذي يساوي بين الناس جميعاً.

ومـن الصور النفسية الشاهدة على حال الكفرة، ما نلحظه في قوله تعالى: (وَالَّذِيـنَ كَفَـرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَـيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ(٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّـيٍّ يَغْشَـاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ(٤٠)). [3]

تجسد هذه الآيات –كما هو باد– حالة نفسية شعورية، تجسمها في لوحة أو مشهد، متحرك تضفي عليها حياةً شاخصة وحركة متجددة.

والملحوظ أن الصورة القرآنية في الآيتين، مستمدة عناصرها من الطبيعة، ترسـمها الريشةُ المبدعة، للتعبير عن حال الكافرين، ومآلهم، في مشهدين عجيبين نابضين بالحركة والحياة.

---

(١) روح المعاني، الألوسي، ج١، ص ١٣٤.

(٢) تفسير غرائب القرآن النيسابوري، ج١، ص ١٥٣.

(٣) النور، ٣٩–٤٠.

فالســـراب ظاهرة طبيعية، يراها الناس، في الأرض المكشوفة المبسوطة، فيـــبهرهم ويغمرهم التماعها؛ فيتبينه الظمآن يحسبه ماءً، ليطفئ نار عطشة، ولكنه ما يلبث أن تملأ الخيبة قلبه حينما يصل إليه بعد جهد ومشقة.

والمـــتأمل فـــي الآية يرى في السراب، صورة قوية توضح أعمال الكفار، تُظنُّ، بل تُحْسَبُ مجدية نافعة، إلا أنها ليست من ذلك في قريب أو بعيد، أو ليست مـــن ذلك في قليل أو كثير. وفي استعمال القرآن لفظ "الحِسبان" في قوله: "يحسبه" فـــيه جمال وروعة في الدقة، وذلك في استخدام اللفظ المناسب للمقام المناسب، إذ أصـــل "الحِسْبان" من الحساب، وهو "العدُّ والمعدود، ومنه جاء الحَسَبُ، وذلك أنهم إذا تفاخروا، عدّوا مناقبهم ومآثرهم، والحَسَبُ قدر الشيء كقولك: الأجر بحَسَبِ ما عملـــت، وحَسْبه أي قدْره، وتقول: أشكرك على حَسَبِ بلائك عندي: أي على قدْر ذلـــك، والحسْب: بمعنى الكفاية والاكتفاء، تقول: حسبك ذلك أي كفاك ذلك، ومنه أيضـــاً، ذهـــب فلان يتحسّب الأخبار أي يتجسسها ويتطلبها".(١)، فإذا علمنا ذلك، اتضح الفرق بين الظن والحسبان، بمعنى إن الكافر يرى في عمله كفاية، لعلمه أنه يحسُـــب ذلك بعقله "ويحكم لأحد النقيضين من غيْر أن يخطر الآخر بباله، فيحسبُهُ ويعقد عليه الإصبع".(٢)، ولأنهم لا يعلمون إلا ظاهر الحياة الدنيا، فهم يعتقدون أن فـــي عملهم نجاة لهم، فينخدعون بحسابات أنفسهم، فيلهثون بالركض وراءها، أملاً بالنجاة، لكنهم يفاجئوا بغير ما حَسِبوا، يفاجئون بالحقيقية بعد فوات الأوان، ولا بُدّ للحقيقة أن توفيهم حسابهم، وتكشف لهم عن خَداع أنفسهم.

وفـــي لفـــظ (الظمآن) روعة ودقة، إذ السراب يثير في نفسه معاني الرّي والأمـــل والـــنجاة، وهو – أي لفظ الظمآن– أشدُّ بلاغة من قولنا: "يحسبه الرائي ماءً"، وذلك لأن الظمآن أشدُّ حرصاً على بلوغه، وأشدُّ تعلقاً به.

فلننتظر –الآن– ولنتأمل تلك الصورة الموحية المعبرة، لنستدل بعدها على صورة نفوس هؤلاء وحالها: رجل ظمآن، يسير في فلاةٍ، فيشهد السراب، فيحسبه مـــاءً، فيتـــبعه الظمآن، ليروي به عطشه، ويطفئ لهيب حرّه، يتبعه وهو يحسب

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، مادة "حسب".

(٢) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص ١١٧.

الـــرّي، غـــافلاً عما ينتظره هناك ....، " وفجأة يتحرك المشهدُ حركة عنيفةً، فهذا الســـائر وراء السراب، الظامىء الذي يتوقع الشراب، الغافل عما ينتظره هناك .. يصـــل فـــلا يجـــد مـــاءً يرويه، إنما يجد المفاجأة المذهلة التي لم تخطر له ببال، المرعبة التي تقطع الأوصال، وتورث الخبال، "ووجد الله عنده"! الله الذي كفر به وجحده، وخاصمه وعاداه، وجده هنالك ينتظره! ولو وجد في هذه المفاجأة خصماً له من بني البشر لروّعه. وهو ذاهلٌ غافل على غير استعداد. فكيف وهو يجد الله القـــوي المنـــتقم الجبار؟ "فوفاه حسابه"، وهكذا بسرعة عاجلة تتناسق مع المشهد الخاطف المرتاع".[1] ورحم الله "الرمّاني" (ت ٢٩٦ هـــ).[2] فلقد أوشك أن يصل إلـــى الصـــورة النفسية في كتابه "النكت في إعجاز القرآن" لولا أن قضية "اللفظ والمعـــنى" أشغلته عن ذلك، حتى صرفته عن كثير مما كان وشيكاً أن يصل إليه؛ ولكنه على الرغم من ذلك كله، قدّم شيئاً كبيراً "إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى مـــا تقع عليه"، ويستشهد على ذلك بالآية السالفة الذكر، ثم يتحدث عن وجه الشبه قـــائلاً: "وقد اجتمعا – أي المشبه والمشبه به– في بطلان المتوهم مع شدّة الحاجة وعظم الفاقة. ولو قيل: "يحسبه الرائي ماءً"، ثم ظهر أنه على خلاف ما قدّر، لكان بليغاً، وأبلغ منه لفظ القرآن؛ لأن الظمآن أشدُّ حرصاً عليه، وتعلّق قلبه به، ثم بعد هـــذه الخيـــبة حصل على الحساب الذي يصيّره إلى عذاب الأبد في النار" ويعقب الرمّانـــي على شرحه لهذه الصورة القرآنية بقوله: "وتشبيه أعمال الكفار بالسراب مـــن حســـن التشبيه، فكيف إذا تضمّن مع ذلك حسن النظم وعذوبة اللفظ، وكثرة الفائدة، وصحة الدلالة؟".

وعلـــى أيـــة حال، فإن هذا التجسيد العجيب، لحقيقة أعمال الكفار، هو في نهايـــة المطـــاف تصوير لنفسيتهم الضائعة في سديم التخلف، وهي تلهث بأعمالها كســـباً للدنـــيا وجمعاً لزينتها وتفاخرها، ظانةً بأن ذلك هو نهاية المطاف، وحساباً مـــنها بـــأن ذلـــك هو نهاية الأرب، وهذه هي طبيعة أنفسهم، ظمآنة عطشى، لا ترتوي، تركض وراء الدنيا، ركض الوحوش على فريستها، ظنّاً منها أن ذلك هو

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج١٨، ص ٢٥٢١.

(٢) النكت في إعجاز القرآن، (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، الرماني، ص٨٢.

نيل الوطر، وأن ذلك هو السعادة، لكنها تفاجأ بالحقيقة التي لا شك فيها ولا ريب، تفاجـــأ بالموت الذي تُحاسبُ فيه النفوس على ما قدمت، وأي حساب؟ إنه حساب سريع.

حقـــاً إنها صورة لنفوس مظلمة معتمة، لا نور فيها، مخيفة، عنيفة، لا أمن فيها، تعيش في الوهم والخيال، لا خير فيها.

وإذا مـــا انتقلنا إلى المشهد الثاني، أو الصورة الثانية، نرى بأنه مشهدٌ يثير الفـــزع والرعـــب والخوف والرهبة، إنه صورة لظلمات مطبقة، ظلمات متراكمة بعضـــها فـــوق بعض، ظلمة البحر، وظلمة الموج، وظلمة السحاب، حتى ليخرج المـــرء يده أمام بصره فلا يراها، لشدة الظلام الحالك. ولننظر إلى دقة التعبير، إذ يخـــرج المرء يده، لا شيءَ آخر خارج عنه، بل مما هو متصل به اتصال الجزء بـــالكل، لكـــن أنّـــى له أن يَـــرى يَدَهُ، والظلام والرعب والخوف مطبق على جو المشهد. إنها -حقاً- صورة موحية معبرة أجمل تعبير، إنه الكفر، إنه ستر الحقيقة وتغطيـــتها علـــى الرغم أن نور الله فائض في أركان الكون، (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْـــأَرْضِ مَـــثَلُ نُـــورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَـــوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلـــنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٣٥)). [١]، إنه الضلال الذي لا يرى فيه القلب أقرب علامـــات الهـــدى، (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ(٤٠)). [٢]

إن المشـــهد يوحي بصورة نفسية معتمة مطبقة مغلقة، إنها صورة لنفوس هذا الأنموذج، وهي تائهة في لجج الضياع، غارقة في غمرة التخلف، لا نور فيها فيهتدى، ولا ريّ فيها فيرتوي، إنها نفوس مجدبة قاحلة لا خير فيها ولا قبول لها.

---

(١)النور، ٣٥.

(٢) النور، ٤٠.

ومثل الآية السابقة قوله تعالى: (لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧)). [١]

وإذا كانت الآية التي قبلها تعرض في تصويرها مشهدين لأنموذج واحد، فإنا نرى هذه الآية تعرض مشهدين لأنموذجين مختلفين، مشهد يعرض ما يثار في نفوس المؤمنين من تساؤلات حول النعم التي يتنعم بها الكفار، وجوابها "متاع قليل ثم مأواهم جهنم"، والصورة كما هو باد، علاج لتلك التساؤلات التي تثار في النفوس.

أما المشهد الثاني: فهو صورة لنفوس الكفار، وهم يستمتعون بنعم الدنيا وملذاتها، وعلى أية حال، فإن الآية تتضمن مجموعة من الألفاظ، لها مدلولات عميقة وإيحاءات معبرةٌ يتمحور حولها تشكل الصورة النفسية في ذهن المتلقي، هذه الألفاظ هي: "يغرنك، تقلب، المهاد".

"والغرور: كلُّ ما يغرُّ الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان، وقد فُسِّر بالشيطان إذ هو أخبث الغارِّين، وبالدنيا لما قيل: الدنيا تغرُّ وتضرُّ وتمرُّ"[٢]، والخطاب خاصٌ يراد به العموم، وهو نهي المؤمنين بأن يغتروا بما عليه الكفار من نعمة الدنيا، فما لذلك عند الله قدر ولا قيمة، إنما هي أيام قلائل وأنفاس معدودة ثم بعدها حسرات متوالية وأحزان مضاعفة.

وأما لفظ "تقلب" فتشير إشارة واضحة على "قدرة وحركة واتساع وطموح"[٣]، وهذا واضح الدلالة على أن زخارف الدنيا، قد تأتي لغير المؤمنين، وإنّ امتلاك الدنيا واتساع العيش، ليس من شرط الإيمان ولا هو من دلالاته.

وفي قوله: "متاع قليل" إشارة واضحة على أن متاع الحياة الدنيا مرتبط بعمر الإنسان في هذه الدار، وعمر الدنيا لا يقاس بالنسبة لذاتها، ولكنه يقاس بالنسبة لعمر الفرد فيها، لأن عمر الدنيا عند كل فرد، هو مدة بقائه فيها، لذلك نجد –الحق– يصف تقلب الذين كفروا: "متاع قليل مأواهم جهنم وبئس المهاد"، أمّا لفظ

---

(١)آل عمران، ١٩٦، ١٩٧

(٢) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص ٣٥٨، ٣٥٩.

(٣) تفسير الشعراوي، متولي الشعراوي ، ج٤، ص ١٩٦٧.

"المهاد"، فلا يخفى على أحد أنه من مستلزمات الطفل، إذ هو المكان الذي ينام فيه، وهـذا يعنـي أن الصـورة ترمز بكل معاني الاستجلاء لهذا الطفل الذي لا يملك الحراك والتقلب، إلا إذا حركه شخص آخر أو قلبه.

والحقيقة أن هذه اللفظة تعطي صورة وحدها، صورة بارزة، في كونهم لا يستطيعون الحراك في جهنم، حتى يحركهم غيرهم، بمعنى أنهم سلبوا الإرادة والقدرة التي كانوا يمتلكونها في أيام الدنيا المعدودة.

إنه تصوير رائع، فيه ذلك التخيل القوي؛ فأين هذه الصورة من تلك؟ ...

في هذه الدار لهم حرية الاختيار، يتقلبون كيف شاؤوا، ويرحلون أينما أرادوا، في حركة واتساع، وطموح وغرور، حتى ظنوا أنهم قادرون عليها، وفي تلك الدار -في جهنم- لا يملكون لأنفسهم إرادة أو حركة، لقد سلبوا كل شيء.

إن هذا المشهد لهذه الصورة، فيه روح التربية -أولاً- للجماعة المؤمنة، وتطييباً لأنفسهم، التي طالما خالجها التساؤل، عما عليه ذوي الكفر من بسط في الرزق واتساع. في العيش، وقدرة على الحركة، وفيه كشف لحقيقة نفوس الكفار- ثانياً- وما هي عليه حالها من غرور ومتاع وانخداع في ذلك، وما تؤول إليه في نهاية المطاف. ونظرة تأمل -كذلك- في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ(٣١)﴾.[1]

نجد الصورة حية ، متحركة لكنها حركة سريعة عنيفة، تتناسب وحالة نفوس هذا الأنموذج الذي جعل لله شريكاً. وليس بخافٍ جمال التعبير وروعته في الأداء، ودقة اختيار الألفاظ التي تتناسب وكوامن تلك النفوس، ووضوح في التصوير.

والصورة المستنبطة من الآية الكريمة، صورة صاخبةٌ بالحركة والصوت، فلفظ "خرّ" يعني؛ "سقط سقوطاً يُسْمعُ منهُ خرير، والخريرُ يقال لصوت الماء والريح وغير ذلك مما يسقط من عُلُوّ"[2]، وما خرّ من علوٍّ إلا لعدم وجوده على المستقر الآمن وما سقط من المكان الشاهق إلا لعدم ثباته.

---

(١) الحج، ٣١.

(٢) المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني، باب "خرّ".

رحم الله "الزمخشري، (ت ٥٣٨هـ) " لقد كان النبع منه على ضربة معول فلم يضربها، إذ قال في صدد حديثه عن هذه الآية، :"يجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق، فإن كان تشبيهاً مركباً فكأنه قال: من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية، بأن صور حاله بصورة حال من خرَّ من السماء فاختطفه الطير، فتفرق فرقا في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة، وإن كان مفرقا فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء، والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء، والأهواء التي تتوزع أفكاره المختطفة، والشيطان الذي يطوّح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوى بما عصفت به في بعض المهاوي المختلفة"[١]. لقد أوشك الزمخشري أن يصل إلى الصورة النفسية، التي تنبجس من وراء هذا التعبير الدقيق.

وعلى أية حال، فإن التعبير يحمل في طياته كثيراً من المعاني الدالة على حال ذلك الأنموذج، فمن ذلك – مثلاً– "السماء" التي تشير إلى العلو والرفعة والمكانة والقدر الرفيع، ولقد كان لها توظيفٌ واضحٌ فيمن زلت قدمه عن أفق التوحيد، إذ الإنسان مؤمن بفطرته، موحّد لرب العالمين: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ(٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ(٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ(٦)) [٢]، فالإنسان بفطرته على قاعدة التوحيد، وعلى المستقر الآمن، فإذا ما أشرك بالله فقد هوى وسقط من أفق الإيمان إلى حيث التحطم والتمزق والتناثر بعدد آلهته التي أشرك بها، من صنم أو وثنٍ أو غيره.

ومن ذلك – أيضاً– لفظ "الريح" إذ من طبيعتها أن ترفع الأشياء إلى أعلى، ولكن أجزاء هؤلاء، لا تتسم بخفة الروح، ولا بخفة الظل، فلا مكان لها إلا أسفل، وإلى أين؟ ... إلى حيث لا قرار، وأما الطير فتتخطفه، كما تخطفته أهواء نفسه، وأما الريح فتتقاذفه كما تقاذفته أوهام نفسه فلا اعتصام له ولا قاعدة، وبالتالي لا ثبات له.

---

(١) الكشاف، الزمخشري، ج٣، ص ١٥١، ١٥٢.

(٢) التين، ٤، ٥، ٦.

وهكذا تبدو الصورة النفسية لهذا الأنموذج من خلال ما ألمعنا في التحليل، إذ إنّ وراء هذا التعبير صورةً نفسيةً، وإن لم تكن ظاهرةً، إلا أنها تحتاج إلى سَبْرٍ في أغوار النص أو التعبير لاستجلائها وكشفها.

فالمشهد البادي ، ينقلنا إلى الصورة التي ترمز بكل معاني الاستجلاء لتلك الـنفس المتصلة بهذا الأنموذج؛ لأنها تمثل صورة من يتبع أهواء نفسه وأوهامه، فـي اتخـاذه الأغـيار آلهة من دون الله خالق الوجود. لقد سقطت نفسه وهوت وانحطـت باتخاذهـا من هو أقل منها رتبة، إذ كلُّ ما في الكون مسخرٌ للإنسان، والمسخر أقلُّ رتبة من المسخّرِ له، وهذا يعني أن اتخاذ المسخر آلهة من دون الله فـيه انحطاط وسقوط إلى حيث لا قرار. وذلك لأن كلَّ مخلوق –في الأصل– هو من الأغيار، والأغيار يطرأ عليها التغيير، إذ لا ثبات لها. لذلك جاء المشهد ليبرز للمتلقـي صـورة تلـك الـنفس التي وثقت بالأغيار واتخذتها فاعلة من دون الله فأشـركت، لـذا فهي نفس وثقت بما لا يجوز الثقة به، لأمرين: الأول: كونه أقلُّ رتـبةً مـنها، إذ هـو مسـخرٌ لها وهذا يعني انحطاط وسقوط إلى مرتبة الدون. والثانـي: كونه متغير لا ثبات له، وهذا يعني ضياعها وتمزقها، وتقاذفها في لجج الأوهـام، ولهـذا السبب جاء المشهد بصورة سريعة الخطوات عنيفة الحركات، تجسيداً لنفس هذا الأنموذج، وبياناً لما هي عليه حالها.

ومـن الأمـثلة – أيضـاً– قولـه تعالى: (وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ(٥١)) (١).

نـتأمل الآيـة الكـريمة، فنرى مشهداً لصورة حية، صورة الكافرين وهم يـتلقون الدعـوة من رسول الله ﷺ تكشف عن صور نفوسهم وخباياها وخفاياها، تكشـف عن حقد ولؤم وغيظ عنيف، وحسد عميق، ينصبُّ من نظراتهم المسمومة الحـاقدة الحاسدة، مصحوبة بالشتم البذيء والافتراء الذميم "ويقولون إنه لمجنون، إنها صورة تكشف عن خبايا وخفايا ما تهمس به تلك النفوس وما تعلن.

---

(١) القلم، ٥١.

ولقـد ذكر (القشيري ت ٤٦٥هـ) في تفسيره قوله: " كانوا إذا أردوا أن يصـيبوا شيئاً بأعينهم جاءوا ثلاثة أيام، ثم جاءوا ونظروا إلى ذلك الشيء قائلين: ما أحسنه من شيء! فكان يسقط المنظور في الوقت".(١)

فإذا رجعنا إلى الآية الكريمة وتأملنا قوله: " يزلقونك بأبصارهم" لوجدنا ما يشـابه ذلك في قول العرب: " نظر إليَّ نظراً يكاد يصرعني أو يكاد يأكلني".(٢)، وهـذا يعني أنها علامات يمكن قراءتها، للكشف عن مكنونات نفوسهم، وهذا من باب القياس، ونمط القياس على القياس، غنيٌّ بالدلالات.

وعلـى ذلـك، فـإن الدلالـة التي تؤكدها اللفظة المشار إليها " يزلقونك بأبصـارهم" هـي إرادة الانتقام المنبجسة عن النفوس التي امتلأت عداوة وبغضاً وحسداً وحقداً ولؤماً.

ومـن الأمثلة -أيضاً- قوله تعالى: (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَـا يَسْـمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ(١٧١)).(٣) وفي هذه الآية تـتراءى لنا صورةُ، واضحةُ جلية، تكشف نفوس هؤلاء الكفار، وما هم عليه من الإنكـار والتقليد الأعمى والجمود، إنها صور نفوس بهيمية زرية، إذ حالهم حال البهيمة السارحة، التي لا تفقه ما يقال لها، ولا تسمع إلا صياحاً، لا تفقه معناه، بل هم أضل من البهيمة " صم بكم عمي لا يعقلون" لقد " عدموا سمع الفهم والقبول، فلـم ينفعهم سمع الظاهر، فنزلوا منزلة البهائم في الخلوّ من التحصيل".(٤) ونفسُ صورتها كذلك، نفس غافلة، تدعو من لا يسمع ولا يفهم ولا يفقهه، فهي في دعائها عابـثة غافلة، إذ لا فائدة من دعاء يذهب أدراج الرياح، وبخاصة إذا كان المدعو ممن تستحيل لديه الإجابة.

ولنقرأ قوله تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ(١٨)).(٥)

---

(١) تفسير القشيري، القشيري، ج٣، ص ٣٤٦.

(٢) غرائب القرآن، النيسابوري، ج٦، ص ٣٤١.

(٣) البقرة، ١٧١.

(٤) تفسير القشيري، القشيري، ج١، ص ٨٤.

(٥) إبراهيم، ١٨.

وهـذه صورة مشهورة معهودةٌ، صورة الرماد-خفيف الوزن- تذروه الرياح في يـوم اشـتدت بـه الريح،في يوم عاصف، فمن يستطيع أن يمسك بشيء من هذا الرماد؟ ومن يستطيع أن ينتفع به؟.

ولـو تأملنا الصورة حق تأمل، لانتقلنا إلى حقيقة ذاتية شعورية في أعمال الكفار، تثير الدهشة والاستغراب.

إنهـا صورة للنفس الاستلابية الخاسرة الضائعة في لجج الظلام أو الغارقة فـي أسـداف الضياع، وفي سديم التخلف، إنها -حقاً- صورة ذات أبعاد نفسية، ترتبط بالمشاعر والوجدان.

ومـا أفظعـه من مشهد، نماذج ظَنّت في أعمالها نفعاً وفائدة وخيراً، ولكنه سـرعان ما ذهب وضاع بددا، واستحال جمعه، إنه الخسران المبين. ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَـانَ مِنْ الْغَاوِينَ(١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِـنَا فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ(١٧٧)).[1]

يقول سيد قطب -رحمه الله-: " إنه مشهد من المشاهد العجيبة، الجديدة كل الجـدة على ذخيرة هذه اللغة من التصورات والتصويرات. إنسان يؤتيه الله آياته، ويخلـع علـيه فضله، ويكسوه من علمه، ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفـاع.. ولكـن ها هو ذا ينسلخ منها بعنف ومشقة، انسلاخ الحي من أديمه اللاصـق بكـيانه.. أو ليسـت الكينونة البشرية متلبسة بالإيمان بالله تلبس الجلد بالكـيان؟.. هـا هـو ذا ينسلخ من آيات الله؛ ويتجرد من الغطاء الواقي، والدرع الحامـي؛ ويـنحرف عن الهدى ليتبع الهوى؛ ويهبط من الأفق المشرق ويلتصق بالطيـن المعـتم؛ فيصبح غرضاً للشيطان لا يقيه منه واقٍ، ولا يحميه منه حام،

---

(١) الأعراف، ١٧٥-١٧٧.

فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه".[1] أما حقيقة السلخ " كشط الجلد وإزالته بالكلية عن المسلوخ عنه، ويقال لكل شيءٍ فارق شيئاً على أتم وجه انسلخ منه".[2]

وفـــي التعبير ما يشير إلى انسلاخه من تلك الآيات انسلاخ الجلد من الشاة وهـــذا يعنـــي أنه خرج منها بالكلية، بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره، وركن إلى الدنيا ومال إليها، وهذا ما أشار إليه قوله: " ولكنه أخلد إلى الأرض"، وأخلد "ركن إلـــيها ظاناً أنه يخلد فيها".[3]، وها هو ذا يمسخ في هيئة كلب، "فمثله كمثل الكلب إن تحمـــل علـــيه يلهـــث أو تـــتركه يلهث" وهذا تصوير لهيئة نفسه في الخسَّة، واســـتعمال الجملـــة الاســـمية على الفعلية، "فمثله كمثل..." فيه إيذان على كمال اســـتمرار الحالة النفسية الخسيسة، بالإضافة إلى تشبيه حاله بحال الكلب الذي لا يطيع بترك اللهث، حملت عليه أو تركته.

مشهد حافل بالحركة، يكشف صور نفوس هذا الأنموذج من الكفار، ويفضح خـــبايا نفوســـهم وخفاياهـــا، ودخائلها، من خلال التقائهما في عدم الطاعة، وهي صـــورة شاخصة متحركة دائبة، تكشف نفسية و " حال أولئك الذين يهيء الله لهم المعرفة فيفرون منها، كأن لم تهيأ لهم أبداً، ثم يعيشون بعد ذلك هابطين، تطاردهم أنفسهم وأهواؤهم، بما عملوا وبما جهلوا فلا هم استراحوا بالغفلة ولا هم استراحوا بالمعـــرفة".[4]، وهـــذا يعني أن نفس هذا الأنموذج حائرةٌ لا تقر له ولا تبقى على حال، "بل هو يدور حول نفسه ويتعب وتتقطع أنفاسه بسوء ما يعمل أو يسعى ولا يجني مما عمل سوى الإجهاد والإعياء".[5]

ولنقرأ قوله تعالى ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَـــيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ(١٤)﴾.[6]

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج٩، ص١٣٩٦.

(٢) روح المعاني، الألوسي، ج٥، ص١٠٤.

(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ١٥٤.

(٤) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص ٣٩.

(٥) القرآن الكريم والسلوك الإنساني، محمد بهائي سليم، ص ٢٩٥.

(٦) الرعد، ١٤.

والملحـــوظ في تصوير هذا الأنموذج، أن الحسرة بما يفوت في نيل الطلب تســيطر علـــى جـــو الآية؛ إذ الصورة توحي بحاجة ملحة لنيل المنفعة؛ فالظمآن ملهوف يمد ذراعيه وكفيه مبسوطتين، وفمه مفتوح يلهج بالدعاء، يطلب الماء ليبلغ فـــاه فـــلا يبلغه. وما هو ببالغه، ولو شقَّ على نفسه وأجهدها في الدعاء واللهفة، وذلك لأن ما يدعوه جمادٌ لا فقه له ولا فهم.

وإذا علمـــنا ذلـــك واستشعرناه، تجلت لنا الصورة النفسية من خلال معاني الاســـتغراب والتعجـــب، فـــي الطلب ممن لا يفقه ولا يفهم، وفيما يشيع جوا من المقارنة والسخرية في حقيقة هذا الدعاء الذي وُجِّه لمن لا فِقْه له ولا فهم، وفيمن يعتقد المنفعة فيمن يفقدها ولا يملكها.

إنها صورة للنفس التي تملَّكها الندم والحسرة مع شدة الحاجة. ومن الأمثلة -أيضاً- قوله تعالى: (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَـــرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُـــمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٥٧)).[١] ولتجلية الصورة، لا بُدَّ من معرفة معنى الطاغوت، فما هو الطاغوت؟.. " إنه من مادة "طغى"، وكلمة "طاغوت" مبالغة في الطغيان.. والطاغوت إما أن يطلق على الشيطان وإما أن يطلق على من يعطون أنفسهم حقّ التشـــريع فـــيكفرون، وينسبون من يشاءون إلى الإيمان، حسب أهوائهم، ويعطون أشـــياء بسلطة زمنية من عندهم، ويطلق على السحرة والدجالين، ويطلق على كل مـــن طغـــى وتجـــاوز الحد في أي شيء، فكلمة "طاغوت" مبالغة، وقد تكون هذه المـــبالغة متعددة الألوان، فمرة يكون الطاغي شيطاناً، ومرة يكون الطاغي كاهنا، ومـــرة يكون ساحراً أو دجالاً، ومرة يكون حاكماً، ومادة "الطاغوت تدل على أن الموصـــوف هـــو من تزيدُه الطاعة له طغيانا، فعندما يُجربك في حاجة صغيرة، فتعطـــيه فـــيها، فـــيزداد بتلك الطاعة طغياناً عليك، ويزيد في الأمر حتى يصير طاغية".[٢]

---

(١) البقرة، ٢٥٧.

(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، ج٢، ص ١١١٥-١١١٦.

والملحـــوظ في تصوير الموقف أن هذا الأنموذج قد استعان بالطاغوت، بل تـــولاه بالكلـــية؛ فجعله وليّاً على أمره وشأنه ومصيره. فكان نتيجة ذلك أن تاهت نفســـه في أسداف الظلمات: ظلمة الكون، وظلمة الكبر والشرود والتيه والضلال وظلمة الأحقاد والحسد والهوى، وظلمة الشهوة والتجبر والطغيان، وظلمة الضعف والذلـــة والرياء والنفاق والطمع...الخ، ظلمات متزاحمة شتى، لا حصر لها تنبثق مـــن الخروج عن طريق الله القويم، والتلقي من غيره – سبحانه– والاحتكام لغير منهج الله.

ومـــا أعظـــم دقـــة التعبير! ففي جانب الطاغوت استعمل كلمة "الظلمات" بصيغة الجمع، وفي مقابل الهدى استعمل كلمة "النور" بصيغة المفرد. وهذا إشارة واضـــحة الدلالة على نفس تائهة حائرة، تشعبت بها الأهواء، وتخبطت في مزالق الكفر تخبط عشواء، فلا تهتدي إلى مقصد ولا تكاد تتبين من أمرها شيئاً.

ولنـــتدبر –أيضاً– قوله تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ(٤١)).[١]

والعنكـــبوت هـــي " دَوَيْبَّه تنسجُ، في الهواء على رأس البئر، نسجاً رقيقاً مهلهـــلا".[٢] وهو مخلوق ضعيف، وبيته رقيقٌ ضعيفٌ واهنٌ، والوهنُ، هو غاية الضـــعف. والصـــورة الحركـــية لهذه الآية، ترتبط ارتباطاً واضحاً بثنائية ضعف المعـــتمد، والفائدة، إذ تكشف الصورةُ حقيقة الأغيار مهما بلغت قوتها، فتصورها أبلـــغ تصوير، في إظهار وهنها وهزلها، وفي المقابل تؤكد عدمية الفائدة المرجوة منها، فمن تعلقَّ بها. فهو كالعنكبوت الضعيفة، تحتمي ببيت من خيوط ضعيفة، بل واهية. وعلى ذلك فإن النفس التي تتعلق بغير الله أو تتخذ من دون الله أولياء، نفسٌ غافلة جاهلة ضعيفة واهنة اعتمدت وآوت إلى ملجأ ضعيف واهن.

ومـــن الأمـــثلة– كذلـــك– قوله تعالى: (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ(٧)).[٣]

---

(١) العنكبوت، ٤١.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، باب " عنكب".

(٣) الأنعام، ٧.

صـــورة قرآنية مدهشة، مليئة بالإثارة وبث الانفعال، كما أنها تثير التعجب من هؤلاء، وما هم عليه من التعنت والمكابرة، هؤلاء الذين وصل بهم العناد للحق مبلغاً كبيراً، لقد اشتدت شكيمتهم في المكابرة وما يتفرع عنها من الأقاويل الباطلة، بما جعلهم يفقدون أقل ما يحس به أدنى الحيوانات. لا شك أن الآية تبرز شخصية هؤلاء، وهم يتنطعون بالغرور والكبرياء، حتى وصلت بهم شكيمتهم في المكابرة، بحيـــث لـــو أنهم شهدوا كل دليل، ووُضّح لهم كل سبيل، ما ازدادوا إلا تمادياً في الضلال والنفرة، وأنْهماكاً في الجهل والغي إنه صورة لِ " نموذج النفس المكابرة، التي يخرق الحق عينها فلا تراه، والتي تنكر ما لا يُنكر، لأنه من الوضوح بحيث يخجل المخالف أن ينكره".[1]، نفوس مطبوعة على الشك والريب، حتى في أوضح وأبين الأمور، حتى لتكاد تنكر ضوء الشمس، أو ما تلمسه بيدها.

ومـــن الأمثلة المشابهة قوله تعالى: (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِـــيهِ يَعْرُجُونَ(١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ(١٥)).[2] إن الإنعـــام فـــي مـــنافذ هذه الآية، يحملنا على تأملات لهذا الأنموذج، وليس من المبالغة في شيء أن هذا الأنموذج يرتقي في العناد والجحود والمكابرة، ما يجعلنا نشـــهد صورة نفسه وهي مستغلقة منطمسة. إذ ليس الذي ينقصها هو توافر دلائل الإيمان، ولكن استحوذ عليها الكبر والعناد البغيض، فأصبحت مطموسة البصيرة؛ فـــلا تـــتحرج ولا تستحي من عدم المبالاة بالحق الواضح المكشوف. إنها صورة الـــنفس التي لا ينفع معها برهان ولا يجدي معها حجة، حتى ولو كانت في وضح النهار.

ومـــا أجمـــل التعبير – أيضاً- في قوله: " سُكِّرت أبصارنا"، إذ هو دليل الفرط في العناد والغلوّ في المكابرة والتفادي عن قبول الحق، واستعمال لفظ "سُكّر" فـــيه إفـــادة السُّـــكر، وجـــاء بالتشـــديد للـــتعدية ومـــا يفـــيد التكثير والمبالغة،

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج٧، ص ١٠٣٩.

(٢) الحجر، ١٤، ١٥.

" وأرادوا بذلك أنه فسدت أبصارنا واعتراها خلل في إحساسها، كما يعتري عقل السكران ذلك فيختل إدراكه".(١)

والمعنى أن أبصارنا سُكِّرت من فعل مسكر وأننا مسحورون، " فكل ما نراه وما نحسه وما نتحركه تهيؤات مسكر مسحور".(٢)

ومن جميل التصوير للنفوس قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ(١٢)).(٣)

صورة تبرز أنموذجاً، ترسمه كلمات قلائل، إنه أنموذج الكفر، ترسمه بصورة دقيقة، " إنهم يأكلون ويتمتعون غافلين عن الجزاء الذي ينتظرهم، كما تأكل الأنعام وتمرح، غافلة عن شفرة القصاب، أو غافلة عما سوى الطعام والشراب".(٤)

إنه تصوير جميل لظاهرة زرية لتلك النفوس التي تخلت عن إنسانيتها، وانحطت إلى درجة الحيوانية، ففقدت إرادتها، وتصوُّرَها السليم للحياة، فحسبت أن الحياة كلها مائدة طعام، وفرصة متاع، فكانت كالحيوان، همه في الدنيا قبضة من شعير وحفنة من ماء وعلى الدنيا الفناء، لا هدف بعد ذلك ولا تقوى فيما يباح وما لا يباح.

---

(١) روح المعاني، الألوسي، ج٧، ص ٢٦٦.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج١٤، ص ٢١٢٩.

(٣) محمد، ١٢.

(٤) التصوير الفني، سيد قطب، ص ٧٥.

محور المنافقين:

المتدبر لأي الذكر الحكيم، وخاصةً الآيات التي يُذكر فيها المنافقون عن قرب أو بعد، يرى أنها قد اتجهت إلى تفصيل صفات المنافقين النفسية والجسدية، وأسهبت في البيان والتفصيل، وأفاضت، متجاوزةً في ذلك السمات الكلية، إلى الصفات الفرعية الدقيقة، كما أنها طبعت نفوسهم بمياسمَ يعرفون بها، وهذا دليل واضح على خطورة هذا الأنموذج من الناس على دين الله وأهله، وما أفاض القرآن في البيان والتفصيل إلا دعوة للمسلمين للحذر والتيقظ لمخططاتهم وألاعيبهم المغلفة بما يشبه الحق من الزيف.

إن النفاق لا يدرك إلا بالفحص والمراقبة والتحليل والتعليل، لأن المنافقين يظهرون الإيمان والولاء لدولة الإسلام، ويبطنون الكفر والحقد والحسد والعداء لها؛ فمظهرهم لا ينبيء عن مخبرهم إلا لذوي فراسة وفطنة.

من هنا جاءت عناية القرآن بإبراز صفاتهم وخصائصهم وكشفت عما يختلج نفوسهم، فكثرت النصوص القرآنية التي تصور واقع نفوسهم وأحوالهم وما يختلجها من حقائق هم عليها، وتفضح ما يبيتون له.

وما دمنا نتحدث عن المنافقين وصور نفوسهم في القرآن الكريم، دعنا نمضي مع آياته محاولين دراستها ، لنستجلي بذلك أحوالهم ووقائع نفوسهم. ولعلَّ أول ما يطالعنا قوله تعالى في سورة البقرة: (وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ(٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمْ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ(١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١)أَلَا إِنَّهُمْ هُمْ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ(١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمْ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ(١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ(١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا

يُبْصِـرُونَ(١٧) صُـمٌّ بُكْـمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ(١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنْ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنْ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِـيطٌ بِالْكَافِرِينَ(١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَـمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢٠)).[1]

الآيات السالفة ترسم صوراً لنمطٍ من النفوس، في ثلاث عشرة آية متتابعة، كشفت هذه النفوس وبينت حقيقتها.

اسـتهلت الآيات بذكر وصفٍ لهؤلاء المنافقين، وما هم عليه. " ومن الناس مـن يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين". وفي الآية عدة لطائف: أولها أن قولهـم: "آمـنا" جـاء بصيغة الفعل، والفعلية تفيد الحدوث والتجدد، وأن نفي الإيمـان عنهم جاء بصيغة الاسمية، والاسمية تفيد الثبوت، وذلك لأنهم في الأول بصـدد إحـداث الإيمان وفي الاسمية رد لدعواهم على أبلغ وجه لأن صفة الكفر لازمةٌ ثابتة لهم.

وثانيها: تكرار الباء " بالله، باليوم الآخر" وهذا التكرار دليل على مبالغة في الخديعة والتلبيس بإظهار أن إيمانهم تفصيلي مؤكد قوي.

وثالـثها: أن الإيمـان منهم، صدر بالقول " يقول آمنا" ونفي الإيمان صدر بالاسـمية " وما هم بمؤمنين" وهذا دليل على أن ما أقروا بلسانهم ليس موافقاً عما في قلوبهم ونفوسهم ووجدانهم.

ورابعهـا: أن إظهار الإيمان وإبطان الكفر، ما جاء إلا لحقيقة لمسوها في قـوة شوكة المسلمين، فما كان لديهم إلا فعل ذلك، لعدة أمور منها: خوف الأذى، والجبـن عـن احتمال الشدائد في سبيل الحق، وإيثارهم السلامة في قتال الباطل، وخوفهم من الخسران المادي. والآية تصور نفوساً بوجهين لعملة واحدة، وجه إلى الحـق زائف مشوه، لا يستند إلى عقيدة، ولا يتغلغل في القلب، ووجه إلى الباطل والكفر، عميق الجذور في القلب والوجدان.

---

(١) البقرة، ٨-٢٠.

إنهـــا صورة نفسية تتجلى بإظهار أقوالٍ لم تتحقق في الأحوال، فحال نفسه غير ما ينطق به فوه.

وخامسها: أن تكرار إدعاء الإيمان بلسان معسول، وكلام خلاب، وبأساليب مخـــتلفة وتعابـــير متباينـــة، يشـــير إشـــارة واضحة إلى صورة نفسية مضطربة وشخصـــية ضـــعيفة، وصراع وجداني مستمر دائم، وخاصة عند محاولة تكرار إثـــباتهم مـــا هو مثبت من قبل، ومسلَّمٌ به لدى المسلمين جميعاً، وهذا يكشف عن حقيقة جوهرية وجدانية مفادها اجتماع المتناقضات في نفوسهم، مما جعلهم يوقفون أنفسهم دائماً موضع التهمة ومن ثم يحاولون تبرئتها من هذه التهمة. وعلماء الجدل يقولـــون: " تحصيل الحاصل ليس من الحكمة".(١) وأما قوله جلّ ذكره: "يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون".

أصـــل الخدع بفتح الخاء وكسرها " الإخفاء والإيهام.. ويستعمل في إظهار مـــا يوهـــم الســـلامة وإبطـــال مـــا يقتضي الأضرار بالغير أو التخلص منه".(٢) والمخادعة مفاعلة تفيد المشاركة، وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يستقيم مع كون الله لا يُخـــدع ولا يَخدع؟.. ويجاب عن ذلك " بأن صورة صنيعهم مع الله تعالى حيث يتظاهرون بالإيمان وهم كافرون، وصورة صنيع الله تعالى معهم حيث أمر بإجراء أحكام المسلمين عليهم وهم عنده في الدرك الأسفل، وصورة صنيع المؤمنين معهم حيث امتثلوا أمر الله تعالى فيهم فأجروا ذلك عليهم ، تشبه صورة المخادعة، ففي الكلام إما استعارة تبعية في " يخادعون" وحده أو تمثيلية في الجملة".(٣)

وفـــي التعبـــير إشارة واضحةٌ بينةٌ بأن الخداع راجع إليهم، وضرره عائد عليهم " فصاروا في التحقيق كأنهم خادعوا أنفسهم، فما استهانوا إلا بأقدارهم، وما استخفوا إلا بأنفسهم، وما ذاق وبال فعلهم سواهم، وما قطعوا إلا وتينهم".(٤) ودليله قولـــه تعالى: " وما يشعرون". والشعور هو " الإدراك بالحواس الخمس الظاهرة

---

(١) المنافقون في القرآن الكريم، د. محمد يوسف حسن، ص ٣٧.

(٢) روح المعاني، الألوسي، ج١، ص ١٤٨.

(٣) روح المعاني، الألوسي، ج١، ص ١٤٨.

(٤) لطائف الإشارات، القشيري،ج١، ص٢٣.

ويكون بمعنى العلم".[1]، وقوله: " لا يشعرون" أبلغ في الذم من القول: لا يسمعون ولا يبصـــرون لأن من لا يشعر بالبديهي المحسوس مرتبته أدنى من مرتبة البهائم وهـــم بخداعهم لله وللمؤمنين يظنون في أنفسهم الدهاء والذكاء، لكن الآيات تكشف ذلـــك وتصـــفهم بالغباء، لأنهم في الحقيقة ما يخدعون إلا أنفسهم، وتصف قلوبهم بالمـــرض " فـــي قلوبهم" لأن الحقد واللؤم والحسد تملكهم فأعمى قلوبهم عن جادة الصواب، فصارت نفوسهم معتمة " ملتوية مريضة معقدة مقلقة".[2]

ولم تقف نفوسهم عند هذا الحد من المرض -الكذب والخداع- بل تعدته إلى الســـفه والإدعاء: "وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون" لم يـــنفوا عـــن أنفسهم الفساد، بل تبجحوا وتجاوزوا إلى التبرير بأنهم مصلحون إنها صـــورة نفســـية تنبيء عن حالة من الخلل في موازين القيم لديهم إنها نفوس تتبع هواهـــا، فـــلا ميزان للحق لديها ولا قاعدة ربانية تثوب إليها. لذلك جاء التعبير، يفضح ما هي عليه نفوسهم: " ألا إنهم هم المفسدون، ولكن لا يشعرون".

وتســـتمر الآيات بكشف خفايا نفوسهم الزائفة وصفاتها التي تتسم بها من تتطاول وتعالٍ على عامة الناس.

" وإذ قيل لهم: آمنوا كما آمن الناس، قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هـــم السفهاء ولكن لا يعلمون". إنها صورة النفوس المتكبرة المتعالية على جنسها ولكـــنها فـــي حقيقتها سفيهة، أدركت بذلك أم لم تدرك. ثم تستمر الآيات بعرض صـــفات أخرى لنفوس هذه النماذج من المنافقين وتصفها بالضعف واللؤم والخبث والتآمر في الظلام: " وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا: إنـــا معكم، إنما نحن مستهزئون". والتعبير يوضح أن قولهم: "آمنا" بصيغة الفعلية، والفعلـــية تفـــيد الحـــدوث، وقولهـــم إذا خلوا إلى شياطينهم: " إنا معكم إنما نحن مســـتهزئون" بصـــيغة الاسمية، والاسمية تفيد الثبات، لذلك " أتى بالجملة الفعلية الدالـــة علـــى الحـــدوث مع ترك التأكيد فيما ألقى على المؤمنين لما هم عليه أو المتمردين، وبالجملة الثبوتية مع التأكيد فيما ألقى إلى شياطينهم الذين ليسوا كذلك،

---

(١) روح المعاني، الألوسي، ج١، ص ١٥٠.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج١، ص ٤٥.

لذلـــك في الأول بصدد دعوى إحداث الإيمان ولم ينظروا هنا لإنكار أحد وتردده إيهامـــاً مـــنهم أنهم بمرتبة لا ينبغي أن يتردد في إيمانهم ليؤكدوا، لعله أن يتم لهم مـــرامهم بذلـــك في زعمهم وفي الثاني بصدد إفادة الثبات دفعاً لما يختلج بخواطر شياطينهم من مخالطة المؤمنين ومخاطبتهم بالإيمان".(١)

واســـتعمال لفظ "خلوا" له مدلول في غاية الأهمية، وهو أن منهج الشيطان يحـــتاج إلى خلوة... إلى مكان لا يراهم فيه أحد، ولا يسمعهم فيه أحد؛ لأن العلن فـــي منهج الشيطان فضيحةٌ، لذلك يتخذون الخلوة عندما يريدون أن يظهروا على حقيقتهم، ويتكلموا فيما بينهم.

وفي قوله: "الله يستهزىء بهم" إشارة إلى " التجدد الاستمراري وهو أبلغ مع الاســـتمرار الثبوتـــي الـــذي تفـــيده الاسمية لأن البلاء إذا استمر قد يهون وتألفه النفس".(٢)

وتستمر الآيات بعرض أوصاف المنافقين النفسية والجسدية بصورة تمثيلية رائعة؛ فلننظر لقوله " أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كـــانوا مهتدين" وابتداء الخطاب بقوله: "أولئك" إشارة إلى " بعد منزلتهم في الشرّ وسوء الحال".(٣) لأنهم استبدلوا الضلالة بالهدى والكفر بالإيمان؛ فخسرت صفقتهم بفوت الفوائد المترتبة على الهدى التي هي كالربح، والتعبير يرسم صورة حية من واقـــع الحياة، إنها صورة بيع وشراء ولكنها تجارة خاسرة لا محالة، لأنها اشترت الضـــلالة بالهدى؛ فلقد كانوا يملكون الهدى لو أرادوا، لقد كان مبذولاً لهم، لكنهم استحبوا الكفر على الإيمان. فاستحقوا الخسارة وأصبحوا بلا كرامة وبلا رجولة؛ لذلـــك كـــان مكـــرهم في الخفاء. وزيادةً في التبيان والإيضاح والتفصيل، يمضي الســـياق بضرب مثل لهذا الأنموذج، كاشفاً عن طبيعة نفسه وتقلباتها وتأرجحها: " مـــثلهم كمـــثل الذي استوقد ناراً..."والمثل هو القول السائر، ثم استعير للحال أو

---

(١) روح المعاني، الألوسي، ج١، ص ١٥٩.

(٢) المرجع نفسه، ج١، ص ١٦١.

(٣) المرجع نفسه ، ج١، ص ١٦٣.

الصفة أو القصة، إذا كان لها شأن وفيها غرابة، ويضرب المثل زيادة في الكشف وتتميماً للفائدة"[1].

والمـــثل ضُرب بشخصٍ تولى عملية إيقاد النار بنفسه – والنار فيها إشراق وإحراق– " استوقد" ليستفيد منها وينتفع بها، فلما أضاءت النار، ولم يقل: "اشتعلت" ليبيـــن أن المـــراد هو الجانب الحسن، وهو الإضاءة والإشراق، وكشفت النار ما حولـــه، حُـــرم خـــيرها، وزال بصره مباشرة، ولم يستفد منها شيئاً، لقوله: " فلما أضـــاءت ما حوله ذهب الله بنورهم" فالفاء تفيد المباشرة والتعقيب، فحال حصول الإضـــاءة فقد بصره مباشرة، والنار مضيئة حوله لا عليه، كما أن ضوءها خارج عـــنه منفصـــل، ولـــو اتصل ضوءها ولابَسَهُ، لم يذهب، ولكنه ضوء مجاورةٍ لا ملابسةٍ ومخالطة؛ فالضوء عارض والظلمة أصلية، ولم يذهب الله الضوء المحيط بـــه، ولكـــنه يزداد شيئاً فشيئاً والدليل على ذلك قوله " أضاءت" إذ إن الأصل هو ضاءت ولكنه زاد في المبنى ليدل على الزيادة في المعنى، كما أنه قد عدّى الفعل اللازم بالباء: " ذهب الله بنورهم" إذ إن الباء تفيد الإلصاق.

ومن اللطائف الجميلة الموحية أنه وحّد "النور" فقال: "بنورهم" وجمع الظلمة فقال: "ظلمات" و " الظلمات جمع الجمع، لأن الجمع هو الظُلَمُ ومفردها ظلمة".[2] وهـــذا إشـــارة إلـــى أن طريق الهدى واحد، والضلال طرقه شتى، يتضمن معنى الحيرة والتخبط والتشتت.

ترتسم الصورة بنموذج استوقد ناراً فلما أضاءت له نورها لم ينتفع بها وهو طالـــبها، وهـــذا يفـــيد بأنهم لم يعرضوا عن الهدى ابتداءً، ولم يصموا آذانهم عن السماع، وعيونهم عن الرؤية وقلوبهم عن الإدراك، ولكنهم اشتروا الضلالة بالهدى واســـتحبوا العمـــى على الهدى بعدما تبينوا الأمر واستوضحوه. عندئذ " ذهب الله بـــنورهم" الذي طلبوه ثم أعرضوا عنه، " وتركهم في ظلمات لا يبصرون" جزاء

---

(١) راجع : لسان العرب ، ابن منظور ، باب "مثل" والمفردات في غريب القرآن ، الراغب الأصفهاني ،باب "مثل".

(٢) لسان العرب، ابن منظور، باب (ظلم).

فعلـــتهم وخبيث نفوسهم بإعراضهم عن النور. فهم " صم بكم لا يرجعون" تعطلت لديهم جميع وسائل الإدراك فلا رجعة لهم إلى الحق والهدى والنور.

إنهـــا صـــورة الـــنفس الخاسرة الحائرة المضطربة القلقة المتعبة المتقلبة المتأرجحة.

وتمضـــي الآيات بمثل آخر يصور نفوسهم وما فيها من اضطراب وحيرة وقلق وخوف: " أو كصيب من السماء فيه ظلمات... ".

صـــورة لمشـــهد عجيـــب [[حافل بالحركة، مشوب بالاضطراب فيه تيهُ وضلال، وفيه هول ورعب، وفيه فزع وحيرة، وفيه أضواء وأصداء... صيبٌ من الســـماء هاطل غزير : فيه ظلمات ورعد وبرق"... " كلما أضاء لهم مشوا فيه".. "وإذا أظلم عليهم قاموا".. أي وقفوا حائرين لا يدرون أين يذهبون، وهم مفزعون: " يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت"]].[1] ، إنها صورة توحي بحالة التيه والفزع والخوف والحيرة والقلق والاضطراب، وهي بذلك تكشف عن حقـــيقة نفوســـهم وتأرجحهـــا بين لقائهم بالمؤمنين، وخلوهم بالشياطين، وبين ما يقولونـــه فـــي لحظة، ثم ينكصون عنه فجأة، بين ما يطلبونه من هدى ونور وما يرجعون إليه من حقد وكراهية وضلال، ألا ترى أن الصورة تبرز مشهداً حسياً، تجسم من خلاله الصور الشعورية والحركات الداخلية والانفعالات الوجدانية؟ إنها رمزٌ حالتهم النفسية، ظهرت مجسمة وكأنها مشهد ظهر للعيان، وبشكل محسوس. والصـــورة تجمع بين فرط الحيرة النفسية وشدة الخوف وفظاعته، والهول الفظيع الـــذي يحـــيط بنفوسهم، لذلك أشار إلى أنّ ما يؤذيهم جاء من فوق رؤوسهم " من السماء" وكل ما علاك فهو سماء، وهذا أبلغ في الإيذاء.

وفـــي قولـــه: " يجعلـــون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت" المعهـــود إدخـــال السبابة في الأذن من صوت عنيف، لكنه صور أحوالهم الهائلة ودهشـــتهم المفـــرطة بإدخـــال أي إصبع كانت ليدل على أنهم لا يسلكون المسلك المعهـــود، إضـــافة إلـــى أن هذا التعبير يشير من قرب أو بعد على أنهم يطلبون المـــنفعة فيما لا ينفع، وهذا يدل على فرط الدهشة فيما أحاط بهم من الهلاك، فما

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج١، ص ٤٦.

فعلـوه مـن سدّ الآذان بالأصابع لا يُغني عنهم شيئاً، فلا ينفع الحذر مع القدر ولا يصنع مع القضاء تدبير البشر.

إن الآيـة تشـير إلـى نفس قلقة أشد القلق، فزعة أشد الفزع، خائفة أشد الخوف، ومن شدة الهول الذي يحيط بها لا تدرك النافع من غيره، بل تراها تتشبث وتتمسك بحبال الوهم ظناً منها أن فيها النجاة.

وفـي قولـه: " يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلـم عليهم قاموا. ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير".

ترسـم مشـهداً حسياً لحالة نفسية وصورة شعورية وهي بذلك تجسم هذا المشـهد، وتمنحه حركة حية مما تنبض به الحياة الظاهرة للعيان. إنها حركة التيه والاضطراب والحيرة التي تشوب تلك النماذج من النفوس وفظاعة حالهم وهول ما دهمهم.

والمعلوم أن البرق وقتي وزمنه قليل وأن الخطف غير الأخذ وغير الغصْب " فأما الخطف فهو أخذ الشيء دون إرادة صاحبه ودون استطاعته المنع ، والأخذ: أن تطلـب الشـيء مـن صاحبه فيعطيه لك ، أو تستأذنه: أي تأخذ الشيء بإذن صـاحبه. وأما الغصْبُ فهو أن تأخذ الشيء رغم إرادة صاحبه باستخدام القوة أو غير ذلك بحيث يصبح عاجزاً عن منعك من أخذ هذا الشيء".(١)

والآية تصور نفوس المنافقين في انبهارها ببريق الدنيا مع أن نفعها عاجل زائـل وقتـي، فهـم يمشون على قدر النور الدنيوي الذي يعطيه لهم البرق. وهم حريصـون علـى المشي فيه. فإذا أظلم توقفوا متحيرّين، لأنه لا نور في قلوبهم، الذي هو مقتضى الإيمان.

ومـن الآيات التي ترسم صورة نفسية لتلك النماذج قوله تعالى: (إِذَا جَاءَكَ الْمُـنَافِقُونَ قَـالُوا نَشْـهَدُ إِنَّـكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِيـنَ لَكَاذِبُونَ(١)اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُـونَ(٢) ذَلِـكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ(٣) وَإِذَا

---

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، ج١، ص ١٨٠.

رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ(٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ(٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَاسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ(٧) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ(٨)).[١] آيات ترسم صوراً فريدة مبدعة، بألفاظ منتقاة موحية، بلغت دلالاتها غاية ما يتخيل من مقومات البلاغة والذوق الأدبي بل تجد لها دلالات خاصة فوق معانيها الأصلية، " وهذه الدلالات الخاصة التي توحي بها هذه الألفاظ، لا يمكن أن تحد بحدود بلاغية أو قواعد أدبية، بحيث يمكن ضبطها أو النسج على منوالها، لأنها من مراحل الإعجاز الذي تمتليء النفس إكباراً له دون أن تستطيع تحديده وتمييزه تحديداً دقيقاً فضلاً عن تقليده".[٢]

والتعبير في الآيات الكريمة من الدقة في التصوير النفسي ما يثير الانتباه ويسترعي التأمل، وهي تتضمن صوراً تكشف ما استتر وكمن وراء تصرفات هذا الأنموذج من الناس. وفوق ذلك كله تصفهم بأسلوب يثير السخرية والهزء والزراية؛ فهم صنف ممسوخو القلوب، " وتسمهم بالفراغ والخواء والانطماس والجبن والفزع والحقد والكنود، بل تنصبهم تمثالاً وهدفاً للسخرية في معرض الوجود".[٣]

ولإبراز تلك الصور النفسية دعنا نتأمل الآيات السالفة حق تأمل، لأنا على يقين من أنها كمال لما في أنفس تلك النماذج من دفائن، وخفايا وخبايا حاولت إخفاءها بكل ما تستطيع من تملق في القول، وتشدق في الكلام، وتحذلق في الفصاحة، وجهد في الأيمان الكاذبة.

---

(١) المنافقون ١-٨.

(٢) أسلوب القرآن في كشف النفاق، د. عبد الحليم حفني، ص ٧٩.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج ٢٨،ص ٣٥٧٤.

" إذا جـــاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله، والله يعلم إنك لرسوله، والله يشـــهد إن المنافقين لكاذبون. اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله، إنهم ساء ما كانوا يعملون".

وفي التعبير عدة تساؤلات، تثير الانتباه، منها: لماذا يحرصون على إثبات إســـلامهم بإقـــرار رسالة محمد ﷺ مع أنهم مسلمون حسب ظاهرهم؟ ألا ترى في التعبـــير وصـــف لطريقتهم في مداراة ما في قلوبهم من النفاق؟ والجواب... بلى، والدلـــيل علـــى ذلـــك هو دقة الألفاظ وقرينة الحال والتصوير للحالة النفسية التي ترسمها الريشة المعجزة بلوحة فنية بارعة، واضحة المعالم.

إن الآيـــة تكشـــف واقعاً حقيقياً، وهو أنهم أول ما يبدأون به النبي ﷺ حين يجيـــئون إليه هو تأكيد أنهم مسلمون، مع أنه لم يسألهم سائل، هل أنتم مسلمون ؟ وهذا دليل واضح على خشية انكشاف ما يختلج أنفسهم، "فالذي يركز حديثه دائماً على نفي شيء عن نفسه يدل على أنه متصف بهذا الشيء".[1] وكما تقول العرب: " يكـــاد المريب يقول: خذوني"، وكلما زادت قوة التأكيد بنفي صفة أو تثبيت صفة يكـــون العكـــس، ولو رجعنا للآية مرةً أخرى لوجدنا أنها مع قصرها، قد اشتملت علـــى ثلاثـــة تأكـــيدات في ثلاث كلمات: "نشهد أنك لرسول الله" فنشهد قسم وهو تأكـــيد، وإن تأكـــيد ثانٍ واللام تأكيد ثالث، وكما هو معروف لدى علماء البلاغة والبيان أن " التأكيد لا يكون إلا في مقام الإنكار أو توقع الإنكار".

ولـــو تدبـــرنا ألفـــاظ الآية لفظاً لفظاً لاتضح الأمر جلياً، فقوله: "إذا" "يفيد التحقـــيق" وهـــو بخلاف ما لو قيل: إن جاءك أو لو جاءك مثلا، " ومعنى ذلك أن الصـــفات الآتـــية لهـــم إنما تبدو في حال تيقنهم بأنهم أمام هذه القوة".[2] المتمثلة برســـول الله ﷺ. والدلـــيل علـــى ذلك لفظ "جاء" الذي يدل على الشعور بالهوان والخذلان والضعف حيث إنهم اضطروا إلى المجيء والسعي إلى النبي ﷺ للتستر وإخفـــاء مـــا هم عليه أو ما قد يشاع عنهم أو يظن بهم. وأما كاف الخطاب في " جاءك" يشير إشارة واضحة إلى تحقق وجودهم أمام أبرز موضع في قوة المسلمين

---

(١) أسلوب القرآن في كشف النفاق، د. عبد الحليم حفني، ص ٣٨.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٧.

المتمـــثل بشخص الرسول ﷺ: وهذا الموضع رمز للقوة التي يخشونها. لذلك نجد نفاقهم وضعفهم قد بلغ أشده، في هذا المقام بالذات.

إذا عرفنا ذلك يمكننا استجلاء الصورة النفسية التي اتسمت بها تلك النماذج مـــن الناس، من خلال هذه الآية وهي: (١) ضعف الثقة بالنفس ويتضح ذلك من خلال أنواع التأكيد الذي حمّلوا به كلامهم لكي يدافعوا عن أنفسهم ما قد يظن بهم أو لخشيتهم من انكشاف أمرهم وافتضاح حالهم أمام الناس، هذا بالإضافة إلى أنهم جعلـــوا الحديث في مقدمة كلامهم أمام الرسول ﷺ .(٢) الخوف والخشية من قوة شـــوكة المســـلمين وهو شعور قوي بأنهم في مأزق حرج، ولكون الرسول ﷺ هو عـــنوان هذه القوة استعملت الآية لفظ "جاءك" ليدل على الهوان والخوف والخشية والحـــرج الـــذي وصـــلت إليه تلك النماذج من الناس، ومعنى ذلك أنهم اضطروا للمجـــيء والســـعي إلى رسول الله ﷺ للزلفى أو لستر ما هم عليه أو ما قد يشاع عنهم أو يظن بهم من النفاق.

وأمـــا قوله: "اتخذوا أيمانهم جُنةً" فهو تأكيد على أنهم جعلوا من أيمانهم في كـــل موقف يخشون فيه افتضاح أمرهم، وانكشاف نفاقهم ستراً يسترون به حقيقة كـــيانهم ودفائـــن نفوسهم وخبايا قلوبهم، والواضح من التعبير أن الأيمان اتخذوها عادة وطبيعة في سلوكهم وهذا ما يدل عليه قوله: "اتخذوا"، والمعروف أن ما بين تخذ واتّخذ فرقٌ، مع أن مادتهما واحدة، والاتخاذ فيه زيادة في المبالغة. واستعمالُ لفـــظ "جُنّة" فيه دلالة فوق دلالة التستر، وقد غلب استعماله عند العرب في الدرع التي يلبسها المقاتل، لتقيه طعنات العدو، جاء في اللسان: " الجُنّة بالضم: ما وراك من السلاح واستترت به منه، والجُنَّةُ: الدرع، وكل ما وقاك جُنّة".(١)

وإذا تأملـــنا اعتمادهم على الحلف والتأكيد والمبالغة في الأيمان، لوجدنا أنه يكشـــف صـــورة نفسية تخفي وراءها ضعف الثقة بالنفس، كما تكشف عن حقيقة جوهـــرية، فـــيما بينهم وبين أنفسهم، وهي أنهم يعدون أنفسهم في حالة حرب مع المســـلمين، وما هذه الوسائل التي يسلكونها إلا دروعاً وتروساً وسلاحاً تقيهم بأس المسلمين حسب اعتقادهم.

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، باب " الجيم".

والمعروف أنّ الواثق من نفسه لا يرى ما يدعو إلى التماس الوسائل غير العادية ليحمل غيره على تصديقه، وحتى مع تأزم الموقف. ولو رجعنا إلى موقف يوسف عليه السلام، عند اتهامه من قبل سيدته بمحاولة الاعتداء على عرضها، لأدركنا موقف الثقة بالنفس، حتى في أحلك الظروف؛ فقد نفى التهمة عن نفسه بأسلوب عادي خالٍ من أي حلف أو تأكيد، لقد قال: " هي راودتني عن نفسي".

وأما قوله تعالى: " ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا". فهي تشير إشارة واضحة إلى صفة التذبذب بين الإيمان والكفر، وعدم الاستقرار على مبدأ، والذي استشفه من التعبير أن المعنى هو نفي الإيمان ونفي الكفر فلا هم آمنوا بمعنى الإيمان ولا هم كفروا بمعنى الكفر، وهذا كشف عن حقيقة نفوسهم، ودخائلها الدفينة في فقدان الاستعداد للإيمان أو أي شيء فيه اعتقاد، حتى ولو كان صنماً، فعدم الثبات على عقيدة معينة هو من صور نفوسهم اللازمة لهم.

وأما قوله تعالى: " وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، وإن يقولوا تسمع لقولهم" فهو يذكّر بنظرية "التعويض"، التي تحدث عنها علم النفس كثيراً، فالرجل إذا أخفق في تحقيق رغباته وإشباع غرائزه ودوافعه النفسية الذاتية، فإنه يعمد إلى ما يسمى "التعويض" وهي عملية تعيد له توازنه النفسي واستقراره، وغالباً ما يأخذ التعويض جانب الإبداع، سواءً في فن القول أو المظهر الخارجي للجسم، لتجد فيه نفسه متنفساً، يعوض فيه شيئاً ما، والمنافقون هم أحوج الناس إلى حسن رأي الناس فيهم، فلا غرابة في التأنق في الملبس ما وسعهم التأنق، ولا غرابة في التصنع في الحديث ما وسعهم التصنع، وقد يظن أن التعبير بالأجسام دون اللباس، وهذا هو ظاهر النص، ولكن نقول:" بأن الأجسام غير الأجساد، الأجسام هو ما ظهر"[1]، لذلك كثيراً ما نرى مظهراً جميلاً مهيباً بملبسه فإذا ما تجرد من ملبسه فَقَدَ ما كنا نراه من جمال ورونق.

وهذه الصورة من أبلغ ما يمكن أن يوصف به المنافقون، ومن أيسر ما يعرفون به، وهي تكشف عن حقيقة النقص في نفوسهم، مما يجعلهم يلتمسون كل سبيل يرفع من شأنهم ويخفي حقيقة نفوسهم، وما هم عليه، وأما قوله تعالى: "كأنهم

---

(١)الفروق ،أبو هلال العسكري ، ص ١٧٢-١٧٤.

خشـــب مســـندة" يعني مجرد ألواح من الخشب، وليست هذه الألواح، في موضع ينـــتفع فيها فيه، فهم أشباح خالية عن الفائدة، لأن الخشب تكون مسندة إذا لم تكن في بناء أو دعامة بشيء آخر، فلا فائدة فيها ولا جدوى، أو مجرد أصنام منحوتة مـــن الخشـــب جوفاء، والكلام في موضع الذم، وهو ما يسمى بالتشبيه المقلوب، ولكنه في الوقت ذاته يكشف عن صورة نفوسهم الفارغة من النفع والفائدة الخاوية المنطمســـة من كل أنواع الخير، فهي –إذن– نفوس خواء من كل معنى ومن كل حـــس ومن كل خالجة ومن كل تجاوب فلا حركة لها، ولا قيمة، بل ملطوعة في أجســـام تغري وتعجب. " يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله! أنـــى يؤفكـــون؟".. إنها صورة لنفوس هذا الأنموذج من الناس، صورة تبنيء عن حالـــة الخوف والفزع الذي يستولي على نفوسهم. ويسيطر على أفئدتهم وقلوبهم، وفـــوق ذلك تصور حالة الشعور لديهم بقوة شوكة المسلمين ورهبتهم وهلعهم من هذه القوة. والآية تصور حالة هي أشد أنواع الخوف. والتعبير يرسمهم أبداً متلفتين حوالـــيهم، يتوجسون من كل حركة ومن كل صيحة أو صوت ظنا منهم أن هاتفاً يطلـــبهم لافتضـــاح أمـــرهم وانكشاف حقيقتهم، وهو في هذا التعبير يكشف عن حقيقتين للخوف الذي كان ينتاب نفوسهم، حقيقة خوفهم من الجريمة التي ارتكبوها وخوف ينتابهم من أن هناك قوة تطاردهم لتوقع عليهم العقاب.

لذلك بلغ بهم الخوف والفزع والهلع إلى درجة الخوف الوهمي من أشياء لا وجود لها، لذلك قال: " يحسبون كل صيحة عليهم" لانهيار أعصابهم وبلوغ درجة الفـــزع والخـــوف من الأوهام والوساوس. وأما قوله تعالى: "وإذا قيل لهم تعالوا يســـتغفر لكـــم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون". ولفظ "لووا" له مدلوله الخاص الذي يتفق مع خلق المنافقين الذي يتسم ويتميز بالالتواء. والتعبـــير يكشف صورة ملازمة حقيقة لنفوسهم، لأنهم لم يؤمنوا بالرسولﷺ لذلك يســـتهينون باستغفاره، ويستهينون بشخصه، بل ويظهرون كبرياءهم وتعاليهم على شخصهِ ورسالته. وهذا الموقف يكون منهم عندما يكونون بعيدين عنه، وآمنين من سلطانه.

وأما قوله: " يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا". يشير إلى خطة لئيمة حقيرة، لمحاربة الإيمان وأهله، إنها خطة التجويع، ويتجلى في هذه القولة صورة لخبث الطبع، ولؤم النحيزة، فنفوسهم لئيمة خسيسة، ولخسة مشاعرهم يحسبون أن لقمة العيش هي كل شيء في الحياة.

"يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذل" والآية تشير إلى ثورة تبدو من كلامهم، لا تمثل شجاعة ولا بسالة منهم ولا حمية، وإنما تمثل صورة توحي بتغلغل الحقد واللؤم والبغض في دخائل أنفسهم للمسلمين، كما تكشف عن جانب الأماني التي كانت تراود أنفسهم، في امتلاك القوة والأنفة والجرأة لتحطيم قوة المسلمين وعزتهم وشوكتهم، ولكنها أمانٍ تساورهم وهم بمنأى عن المسلمين، وهذا واضح من خلال اللفظ "لئن رجعنا" فهو دال دلالة واضحة على بعدهم عن المدينة التي كان بها المسلمون.

ومن النصوص القرآنية التي تناولت المنافقين مصورة نفوسهم القلقة أبلغ تصوير، تلك النصوص التي وردت في سورة التوبة، ومنها قوله تعالى: (لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(٤٢)عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ(٤٣) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ(٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ(٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ(٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ(٤٧) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ(٤٩) إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَهُمْ فَرِحُونَ(٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(٥١) قُلْ هَلْ تَتَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ(٥٢) قُلْ أَنْفِقُوا

طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ(٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ(٥٤) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ(٥٥) وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ(٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧) وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ(٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ(٥٩) إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٦٠) وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٦١) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ(٦٢)أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ(٦٣) يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ(٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ(٦٦) الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(٦٧)).[1]

إذا أنعمنا النظر في النصوص السابقة بدا لنا بوضوح وجلاء ذلك الذي ترسمه تلك الكلمات الخالدة، بتصوير بديع وصل من البلاغة والروعة ما لا يُدانيه أي تعبير، مهما كان جميلا، لقد كشف النقاب عن خبايا نفوس ذلك الأنموذج من الناس، إنه أنموذج المنافقين، فقوله: " لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بَعُدتْ عليهم الشقة".

---

(١) التوبة، من آية ٤٢-٦٧.

يكشف صورةً حقيقيةً لنفوس ساقطة الهِمَم، ضعيفة العزائم، نفوس هزيلة منخوبة مستخاذلة، تميل للعرض التافه والمطلب الرخيص وتتكص وتتهاون في الطريق الصاعد إلى الآفاق السامقة الكريمة. " والعرَضُ هو ما يقابل الجوهر، والجوهر هو ما لا تطرأ عليه أغيار، فالصحة عرض والمرض عرض؛ لأن كليهما لا يدوم، إذن فكل ما يتغير يسمى عرضاً. ويقال: الدنيا عرضٌ حاضر يأكل منها البرُّ والفاجر".(١)، " والقاصد هو المقتصد الذي في الوسط".(٢) والآية توضح أنه لو كان هناك متاع سهل التناول، وسفرٌ بلا مشقة ولا تعب لاتبعوك، وهذا يكشف عن نفسية -كما أسلفت- واهنة، تميل لما هو محبب لها، وليس فيه مشقة وتضحية.

ثم يقول: "وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم" واستخدام حرف السين في "سيحلفون" يعني أنهم لم يكونوا قد حلفوا بعد، ولكنهم سيحلفون في المستقبل، بمعنى أن القرآن قال ذلك قبل أن يأتي أوان الحلف، وهذه الآية تفضح غباءهم، لأنهم جاءوا أمام الرسول ﷺ وحلفوا بالله لو استطعنا لخرجنا معكم، كما أنها تكشف عن كذب مصاحب للضعف الذي يساور نفوسهم وذلك لأن الضعيف يراوغ ويداور ويتجنب المواجهة.

وأما قوله: "لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين. إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم، فهم في ريبهم يترددون". وهذا تعبير يكشف أنفس المنافقين، ويفضح كمائنها، لأن الاستئذان جاء بعد صدور الأمر الإلهي بالقتال. قال تعالى: (انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(٤١)).(٣) وما دام الأمر قد صدر من الله عز وجل، بالخروج للقتال، فلا داعي للاستئذان من رسول الله ﷺ بالتخلف، لأن مجرد الاستئذان دليل على اهتزاز الإيمان في القلوب، ودليل على أن الأمر قد بات عندهم بحكم التردد، والتفكير في

---

(١) تفسير الشعراوي، متولي الشعراوي ج٨، ص ٥١٤٢.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، باب " قصد".

(٣) التوبة، ٤١.

الطلب المعروض، والتردد يعني الشك في عقولهم، بالخروج أو عدم الخروج، وهذا وحده كافٍ على عدم وجود اليقين الثابت في نفوسهم، ثم يأخذ السياق في كشف حقائق نفوسهم بقوله: " وارتابت قلوبهم، فهم في ريبهم يترددون" والتردد ههنا بين العقل والقلب بمعنى أن الإيمان متردد بين عقولهم وقلوبهم، أي أنه في محل نقاش ولو كانوا مؤمنين لاستقر الإيمان في قلوبهم" وما يتردد أو يتلكأ إلا الذي لا يعرف الطريق، أو الذي يعرفها ويتنكبها اتقاءً لمتاعب الطريق".(١)

وأما قوله تعالى: " لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة، ولكن الله كره انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين". فيشير إشارةً واضحة على أنهم مترددون في الخروج ولو لم يكن الأمر كذلك، أو كانوا عازمين على الخروج لأعدوا ما يلزمهم للحرب، ولكنهم -كما تشير الآية- لم يفعلوا شيئاً من هذا قط؛ وهذا يعني أن " عدم استعدادهم للقتال يُعدُّ كشفاً للخميرة المبيتة في أعماقهم بألا يخرجوا".(٢) وفي التعبير تصريح بأن الله كره خروجهم للقتال؛ لذلك ثبطهم وجعلهم في مكانهم وقوله: " اقعدوا مع القاعدين" دليل على أن عوامل الرجولة منتزعة من أنفسهم فقد جمعهم مع القواعد من النساء والأطفال والعجزة، وهذه مسألة في غاية التقبيح والذم لهم، وقد ارتضوها لأنفسهم، مع أن الرجولة تفترض فيهم أن يهبوا للقتال، ولا يرتضوا لأنفسهم ضعف النساء والأطفال.

وما أجمل قول الشاعر العربي حين قال مستنفراً بني قومه للقتال:

وما أدري ولستُ إخال أدري أقومٌ آل حصنٍ أم نساءُ (٣)

ثم يبين الحق سبحانه أن ذلك خيراً للدعوة وخيراً للمسلمين. " لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خِلالَكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين".

وفي النص ألفاظ ذات دلالة بلاغية في غاية الروعة، منها قوله:"فيكم" إذ لم يقل: "معكم"، وذلك لعدة أمور منها أنهم لم ينالوا شرف المعية، الذي أكرم الله

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج١٠، ص ١٦٦٢.

(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، ج٩، ص ٥١٥٩.

(٣) ديوان زهير ابن أبي سلمى، حرف الهمزة ص١٢.

عـــباده المؤمنين بجمعهم في الوصف مع الرسول الكريم في صفة الإيمان. ومنها أنهم في كونهم في هذه الجماعة، لا بدّ أن يكونوا على غير ما نَوَتْ عليه الجماعة، بل يكونوا مصدر شر وبؤس لهم، ومنها أن "فيكم" تفيد الظرفية، أي تغلغل ظرف ومظـــروف، أي " مخالطين لكم".[١] وهذا شبيه قوله تعالى: " لأصلبنكم في جذوع النخل".[٢]

ومن الألفاظ: "خبالاً"، والخبال مرضٌ عقلي ينشأ معه اختلال موازين الفكر فنقول: فلان مخبول، أي: أنه يحكم في القضايا بدون عقل. وجاء في المفردات أن الخـــبال: " الفساد الذي يلحق الحيوان فيورثه اضطراباً كالجنون والمرض المؤثر في العقل والفكر".[٣]

ومـــنها قولـــه: "لأوضـــعوا" و " أوضع" تعني: أسرع بدرجة بين الإبطاء والسرعة، " فيقال:" أوضعت الدابة" أي مشت بخطىً غير بطيئة وغير سريعة في الوقـــت نفســـه".[٤] جاء في معجم مقاييس اللغة أن " الوضيع: سيرٌ سهلٌ يخالف المرفوع".[٥] وجاء في اللسان أن "الوضع" " أهون سير الدواب والإبل، وقيل: هو ضرب من سير الإبل دون الشدّ، وقيل: هو فوق الخبب".[٦]

ومـــن الألفـــاظ الدالـــة قوله: "خِلالَكم" والخِلال هو الفرجة بين الشيئين أو الشخصـــين فيدخل واحد منهم بين فريق من المؤمنين فيفسد، وآخرون بين فريق آخر فيفسد، وهكذا. إلى أن يمشوا بين الصفوف فيفرقون بينهم. ومن الألفاظ قوله: "يـــبغونكم" والبغـــي: " طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرّى؛ تجاوزهُ أم لم يتجاوزهُ، فـــتارةً يعتبر في القدر الذي هو الكمية، وتارة يعتبر في الوصف الذي هو الكيفية، يقال: بغيت الشيء إذا طلبت أكثر ما يجب وابتغيت كذلك".[٧]

---

(١) روح المعاني، محمود الألوسي، ج٥، ص ٣٠٢.

(٢) طه، ٧١.

(٣) المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني باب " خبل".

(٤) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، ج٩، ص ٥١٦٣.

(٥) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ج٦، باب " وضع".

(٦) لسان العرب، ابن منظور، باب " وضع".

(٧) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، باب " بغى".

فإذا عرفنا ذلك، نقول: هذه الآيات تعطينا صورة حية شاخصةً لما سيحدث لـــو خرج المنافقون في المؤمنين، فلو خرجوا لأحدثوا فتنة وتفرقة، ولَبَثُّوا الخوف والضعف في الصفوف، لأن النفوس الخائنة خطر جسيم على الجيوش؛ فخروجهم لا يـــزيد المؤمنين قوةً، بل يزيدهم اضطراباً وفوضى، وفتنة وتفرقة وتخذيلا، لأن في المسلمين من يسمع لهم في ذلك الوقت.

والتعبـــير فـــي الآيـــات يكشف عن صور حقد تلك النفوس ولؤمها وخبثها وطبعها في الإفساد، لأنها نفوس طبعت على الشر؛ فإذا رأت أهل الخير يسارعون فـــي الخـــيرات حاولـــت التقليل من شأن فاعل الخير بأن تسخر مما يفعله أو أن تستهزئ به، لأن احتقاراً في نفوسها يحدث لفعل أولئك. ثم يأخذ السياق في عرض لـــتلك النماذج من المنافقين ومن معاذيرهم المفتراة، ثم يكشف عن صور نفوسهم وخبيئاتها وما تنطوي عليه من التربص بالمؤمنين ورسولهم الكريم ﷺ. يقول عزّ مـــن قـــائل: " ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني. ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين".

وهـــذا التعبـــير يكشف عن طويات أنفسهم التي عبروا عنها بتلك المعاذير المفـــتراة، التـــي تنبـــيء عما في نفوسهم من الدناءة والخسّة، والتجرد عن القيم والأخـــلاق الفاضلة، لقد عبروا بكلمات خليعة أرادوا أن يستروا بها جُبن نفوسهم وأن يغطوا خوفهم من مقاتلة الأعداء.

ثـــم يسير التعبير في كشف حقائق أنفسهم وما انطوت عليه بزيادة الصورة أكـــثر توضيحاً يقول الحق سبحانه: " إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون".

تعبـــير يكشـــف الـــنقاب عن الكراهية التي تخفيها نفوس المنافقين بالنسبة للمؤمنين، وهذه الكراهية منبجسة من الحسد الذي غمر نفوسهم فهم يحزنون لنعمة أصـــابت المؤمنيـــن، سواء كانت هذه النعمة نصراً في معركة، أم فرحة في غير ذلـــك، وإذا كـــان العكس، أي إذا أصاب المؤمنين بلية أو مصيبة، يطير المنافقون شـــماتة وفـــرحاً، ويـــزدادون كفراً وطغياناً ويصيبهم الغرور، فيزعمون بالذكاء والحصافة والدهاء، والمقدرة على التمييز بين النافع والضار.

وهـذه الآيـة تكشـف كذلك عن نفوس قد فقدت كل معاني الشرف والنبل والكـرامة والوفـاء، بل بلغت الغاية في الخسة والدناءة واللؤم. وفي قوله تعالى: "وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون".

إن المنافقيـن يفعلـون فعـل المخادع، فيظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ويـبدون الصلاح والطاعة، ويخفون الفسوق والعصيان، يصلّون متثاقلين فاترين، لأنهـم لا يرجون منها ثواباً ولا يخافون في تضييعها عقابا، وإنما يراءون الناس، وطبيعـي أن تشـق الصـلاة على المنافقين، وأن تكون كبيرة عليهم، لأن حيثية الإيمان منعدمة في قلوبهم، واليقين خالٍ من نفوسهم، ولهذا فهم لا يبغون من إتيانها إلا الرياء والسمعة والتلبيس وكل ذلك ليعصموا أنفسهم وأولادهم وأموالهم.

وهـذا القول الكريم، يكشف حقيقة نفوسهم، وما تكنه ضمائرهم، من خوف ومـداراة ، وقلوب منحرفة ، وضمائر فاسدة ، فهم يصلون رياءً وينفقون كرهاً، فسلوكهم مليء بالازدواج والتناقض، بمعنى أنهم مظهر بلا حقيقة.

وفي قوله تعالى: " ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فـي الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون". ما يشير إلى مشاعرهم القلقة على الأولاد والأمـوال، وهذا من شدة حرصهم عليها، فيعيشون في أرق شديد وكرب عظيم، وفي قوله: " وتزهق أنفسهم" ظلالٌ مزعجة فهي تخرج بصعوبة.

ولنسـتمع لقولـه: " ويحلفـون بـالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفـرقون* لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمعون". واليمين لا ينطق بها اللسان عادة إلا بعد شبهة إنكار، وغالباً ما يكون لإزالة شبهة الإنكار، والسـؤال: لماذا يحلفون دون سابق إنكار؟ إنهم يشعرون في كوامن أنفسهم أن كل مسـلم فـي قلـبه شك من ناحية تصرفاته فيبدءون كلامهم بالحلف حتى يصدقهم المؤمـنون. وهـذا الحلف يُنْبِيءُ عن تناقض في ملكات أنفسهم ، ولفظ "يفرقون" يظهـر خوفهـم من انكشاف أمرهم، وذلك لأن الفرق، معناه الخوف، أي أنهم في فزع دائم، إنهم جبناء، جبناء في نفوسهم وقلوبهم، وهذا ما جسده التعبير في حركة الـنفس والقلـب " لـو يجدون ملجأ أو مغارات لولوا إليه وهم يجمحون"؛ " فهم

مـــتطلعون أبـــداً إلى مخبأ يحتمون به ويأمنون فيه. حصنا أو مغارة أو نفقا. إنهم مذعـــورون مطـــاردون. يطـــاردهم الفزع الداخلي والجبن الروحي".[1] كل ذلك منبجس من تناقض ملكاتهم وعدم انسجام باطنهم مع ظاهرهم، والتناقض لا بد أن يورث الشقاء وعدم الاطمئنان ، ومن هنا نجدهم يختلون ببعضهم بعضا بعيداً عن أعين وآذان المسلمين لينفثوا عما في صدورهم من حقد وغلٍّ وكراهية لهذا الدين فيبحـــثون عن ملجأ يكونون آمنين فيه أو مغارة في جبل بعيداً عن أعين المسلمين حتى لا يسمعهم أحد، أو مدّخلاً، حتى لو كان صعب الدخول فيه، وهذا مبالغة في البحث عن مكان يغيبون فيه عن سمع المسلمين وأنظارهم، وفوق ذلك كله يكشف التعبـــير عن حالة فقدان السيطرة أو كبح الجماح أو عدم التحكم في قرار الأنفس إلـــى تلـــك الملاجيء، ففي قوله " يجمحون" ما يكشف عن ذلك، إذ أن الجماح هو فقدان السيطرة على الفرس الذي تركبه قال الراغب الأصفهاني: "أصله في الفرس إذا غلـــب فارســـه بنشـــاطه في مروره وجريانه وذلك أبلغ من النشاط والمرح، والجمـــاح سهمٌ يجعل على رأسه كالبندقة يرمي به الصبيان".[2] والتعبير في الآية يعطيـــنا صورة دقيقة لحالة المنافقين في انطلاقهم بسرعة إلى المكان الذي يرون فيه نجاةً لهم وغيبة عن أعين المسلمين.

ثـــم يســـتمر سياق الآيات في الحديث عن المنافقين وكشف كمائن أنفسهم ونوايـــاهم التي يحاولون سترها، فلا يستطيعون " ومنهم من يلمزك في الصدقات، فـــإن أعطوا منها رضوا، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون" وهذا التعبير إشارة إلى أنهم يعيبون عدالة رسول الله ﷺ في توزيع الصدقات، وهم في ذلك لا يقولون ذلـــك غضـــباً أو غـــيْرةً للعدل، ولا حماسة للحق، إنما يقولونه لأنانيتهم وذواتهم وأطماعهم ومنافعهم التي لا يفكرون إلا بها.

واللمز هو البحث عن العيب في الغير من صيغة المبالغة "فُعَلَة" وتدل على كثرة فعل الشيء واللمزة: تدل على ضعف من يقول بها، ولو لم يكن كذلك لقال ما يـــريد بصـــراحة قال الراغب الأصفهاني: " اللُّمَز الاغتياب وتتبع المعاب، ورجل

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج١٠، ص ١٦٦٦.

(٢) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، باب " جمح".

لمـــاز ولمـــزة كثـــير اللمـــز".[1] واللمـــزة جاءت منهم في هذا التعبير مظروف بالصدقات.

والسَّـــخَط: هـــو عدم الرضا في القلب، ثم يتعدى ذلك إلى اللسان، جاء في اللسان أن السخط هو: " ضد الرضا، وسخط: غضب، وهو الكراهية للشيء وعدم الرضـــا بـــه".[2] والآيـــة تكشف عن أحوال نفوسهم وانفعالاتهم في أن مشاعرهم وانفعالاتهم تختلف باختلاف مصالحهم، إذاً أخذوا رضوا، وإذا مُنعوا سخطوا، لأن ميزانهم هو المصلحة الخاصة البعيدة عن كل عدل.

ويقـــول عزّ من قائل: " فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله، وكرهوا أن يجـــاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وقالوا: لا تنفروا في الحر. قل: نار جهـــنم أشـــد حرّاً لو كانوا يفقهون. فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون. فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل: لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدوا. إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين. ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره، إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون. ولا تعجبك أموالهم وأولادهم، إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا، وتزهق أنفسهم وهم كافرون".

والفـــرح هـــو الســـرور من فعل تبتهج النفس به، جاء في مفردات اللغة: "الفـــرحُ انشـــراح الصدر بلذة عاجلة وأكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنية".[3]، والمخلفـــون هم الذين أخلفهم نفاقهم، وتركهم رسول الله ﷺ في المدينة وذهب إلى الجهـــاد، بعـــد أن جـــاءوه بالمعاذير الكاذبة التي قالوها والمقعد هو مكان القعود. والقعـــود رمز للبقاء في أي مكان، و "خلاف" من خالف ومخالفة وخلافاً مثل قاتل مقاتلة وقتالاً، وهي إما أن تكون مخالفة في الرأي، كأن تقول: فلان في خلاف مع فـــلان، أي: أن لكـــل مـــنهما رأيا وإما أن تكون في السير، فلان يغادر المكان؛ ويخالفه آخر فيقعد والخلاف من ناحية الرأي هو عملية قلبية، والخلاف من ناحية

---

(١) المصدر السابق، باب " لمز".

(٢) لسان العرب، ابن منظور، باب " سخط".

(٣) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، باب " فرح".

الحـــركة يشترك فيها القلب والجسد. جاء في مفردات اللغة: "المخالفة أن يأخذ كلُّ واحد طريقا غير طريق الآخر في حاله أو قوله، والخلاف أعم من الضدّ لأن كل ضدَّين مختلفان وليس كل مختلفين ضدَّين".(١)

وفرحهم بالقعود بعد قيام رسول الله ﷺ والمؤمنين للجهاد، دليل واضح على أن فعل القعود هذا صادف هوىً في نفوسهم وارتاحوا له. والتعبير في الآية يلقي " ظل الإهمال كما لو كانوا متاعاً يخلف أو هملاً يترك".(٢) وفوق تخلفهم قالوا: " لا تـــنفروا فـــي الحر"وهذا التعبير يقوله المسترخي الناعم الذي لا يصلح لشيء مما يصلح له الرجال.

إنه تعبير يكشف دفائن نفوس غمرت بالطراوة وضعف الهمة، ونفرت من الجهـــد وآثرت الراحة على التعب والكد والكدح، وفضلت الراحة والسلامة الذليلة على فعل الرجال العزيزة في ساعة العسرة. إنها نفوس لا صبر لها ولا ثبات، ولا عزيمة لها ولا قوة.

ومـــن الآيـــات البيـــنات التـــي تكشـــف أنفس الفئة المبطنة، التي امتازت بالمراوغة والخداع، والتذبذب والازدواجية، قوله عزّ من قائل:

(أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْـــتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(١١)).(٣) ، وقوله تعالى: (الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنْ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِـــنْ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا(١٤١)).(٤)

واضـــح مـــن الآيتين حال الازدواجية النفسية التي يتسم بها المنافقون في إظهـــارهم الإســـلام، ولكـــنهم إذا اخـــتلوا بأهل الكفر أكدوا لهم بأنهم معهم، فهم

---

(١) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ، باب " خلق".

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج١٠، ص ١٦٨٢.

(٣) الحشر، ١١.

(٤) النساء، ١٤١.

يـتذبذبون بيـن هـؤلاء وهؤلاء وفي حقيقة أنفسهم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وواضـح مـن الآيـة الثانـية حالة التربص والتحفز والتحسس التي يتصف بها المنافقون في الوصول لأخبارٍ يُرَتِّبوا عليها أمورهم. لذلك إن وجدوا خيراً قد أتى لهم، فهم يريدون الاستفادة منه، وإن جاء شر يتجهون للاستفادة من الخصوم، فإن فـتح الله بنصره على المؤمنين في معركة وأخذوا مغانم قال المنافقون: " ألم نكن معكم" فلا بدّ لنا من سهم في هذه الغنيمة، وإذا كان للكافرين نصيب، ذهبوا للكفار وقالوا: " ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين" وهذه الآيات تكشف حقيقة هذه الـنفوس بعـدم اسـتقرارها وثـباتها على أمر، فلا هي مع المؤمنين ولا هي مع الكافريـن،وإنما تلهث وراء مصالحها ومنافعها الذاتية، ولهذا كانوا يطمعون دوماً فـيما يتحصـل عليه أحد الطرفين المؤمن والكافر، من الغنائم والمكاسب المالية. وكونهم ليسوا مخلصين لأحد، فإن ذلك يدل على نفسية لئيمة دنيئة منحطة. وصدق قـول الحق فيهم: " مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء".[1] وإلى جانب مـا ذكرنا فقد كشفت الآيات وفضحت نفوسهم وبينت أنهم ليسوا أوفياء، حتى لمن يشـترك معهـم فـي الكفـر ، ولا عهد لهم، وإن كان هذا العهد مؤكداً بالأيْمان المغلظـة، وأنهم يخلفون وعودهم وينقضون عهودهم، ولا يبرون بقسمهم، لذلك لا توجد لهم مواقف يمكن الاعتماد عليها. أضف إلى ذلك كله أن من (هذا شأنه، لا يمكن أن تقر له عين، أو يستقر له وضع أو يستريح له خمير، أو يطمئن له قلب، بـل يعـيش في قلق نفسي دائم، وحيرة وجدانية وعزلة بدنية، وشك واضطراب، وتـردد بيـن الحق والباطل والوقوف في النهاية بين مفترق الطرق).[2]، وصدق رسـول الله ﷺ حين قال: " مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة".[3] ففي الآياتين، " تصوير بليغ لنفسياتهم القلقة، التي لا تثبـت علـى حـال، وضـعفهم الشخصـي، الذي لا يملك القدرة على الاختيار،

---

(١) النساء، ١٤٣.

(٢) المنافقون في القرآن الكريم، د. محمد يوسف عبد بن حسن، ص ١٨٠.

(٣) صحيح مسلم ،ج٤ ،ص ٢١٤٦.

وعزيمتهم الواهنة، التي لا تقدر الجزم والبت في الأمر، والسير علناً في أحد الطريقين، دون أن يوقفهم الشك أو تعتريهم الشبهة".[1]

ولنستمع لقوله تعالى: (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا(١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَاأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا(١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا(١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا(١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا(١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا(١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا(١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا(١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا(٢٠)).[2] في هذه الآيات، " تصوير دقيق، وتجسيم حقيقي لجبن المنافقين، وما ألقي في قلوبهم من الجزع والهلع".[3] ولقد " صرحوا بالتكذيب – لما انطوت عليه قلوبهم – حين وجدوا للمقال مجالا... وتواصوا فيما بينهم بالفرار عندما سولت لهم شياطينهم من وشك ظفر الأعداء... يتعللون بانكشاف بيوتهم وضياع مخلفاتهم، ويكذبون فيما أظهروا عذراً، وهم لم يحملهم على فعلهم غير جبنهم وقلة يقينهم... إذا جاء الخوف طاشت من الرعب عقولهم، وطاحت بصائرهم، وتعطلت عن النصرة جميع أعضائهم وإذا ذهب الخوف زينوا كلامهم، وقدموا خداعهم، واحتالوا في أحقاد خستهم.. أولئك هذه صفاتهم؛ لم يباشر الإيمان قلوبهم، ولا

---

(١) المنافقون في القرآن الكريم، د. محمد يوسف حسن، ص ١٨٠.

(٢) الأحزاب، ١٢-٢٠.

(٣) المنافقون في القرآن الكريم، د. محمد حسن ، ص ١٨٣-١٨٤.

صـــدقوا فـيما أظهـــروا من ادعائهم واستسلامهم، يحسبون الأحزاب لم يذهبوا، ويخافون من عدوهم، ويفزعون من ظلّ نفوسهم إذا وقعوا على آثارهم، ولو اتفق هجوم الأعداء ما كانوا إلا في حرز سيوفهم ودرية رماحهم".(١)

وقد بين الدكتور محمد يوسف حسن عدة معانٍ لهذه الآيات لخصها في نقاط أذكر منها: " الأولى: أن المنافقين فقدوا الوعي واختلط عليهم الأمر، فنادوا الناس ودعوهـــم إلـــى الفرار من ساحة المعركة، والرجوع إلى يثرب، وهو اسم جاهلي للمدينة المنورة، وهذه المعركة، التي تتحدث عنها هذه الآيات، هي غزوة الخندق، أو الأحزاب. الثانية: أن بعضهم، طلب الإذن من الرسول ﷺ ، وذكروا لطلبهم هذا مبررات زائفة، وعللاً واهيةً، تولى الله ردّها عليهم، مبيناً أنهم لا يهدفون من هذا، إلا الهـــروب مذعوريـــن مـــن ساحة القتال. والثالثة: أنهم لو جاءهم الكفار، من جوانب المدينة، ونواحيها، ثم عرضوا عليهم العودة إلى الشرك والكفر- لأن الفتنة هـــنا تعنـــي: الشرك كما هو الحال في قوله: " فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم" [النور،٦٣] لقبلوا ذلك قبولاً سريعاً، لا يقفون عـــنه إلا مجرد توجيه السؤال إليهم، وما يستغرق ذلك من الوقت يسير، والرابعة: أن هـــؤلاء المنافقيـــن، كـــانوا عندما رأوا أو سمعوا ما ناله الصحابة من الشرف والكـــرامة والفضل من الغزوات السابقة، مثل بدر، عاهدوا الله لئن حدث قتال بين المسلمين والكافرين، ليقاتلُنَّ ولا يهربوا ، إن نقضهم لهذا العهد، سيكون بالإضافة إلـــى جرائمهم الأخرى مؤاخذا به، ومعاقباً عليه. والخامسة: أن هؤلاء لم يقتصر دورهم على الفرار من الساحة، وتخذيل المسلمين بل حاولوا إعاقة الآخرين، عن مناصرة الرسول، وتثبيطهم عن القتال في سبيل الله، ودعوهم إلى اللحوق بهم في الفـــرار. والسادسة: أن المنافقين بخلاء على المؤمنين، لا يعاونونهم بحفر الخندق ولا بالـــنفقة في سبيل الله، ولا بالقتال معهم، ولا بالنفقة على المحتاجين منهم ولا يحبون الخير لهم. والسابعة: صور الله المنافقين، وجسّم حالهم عندما تأتي الحرب، أو تعلـــن غزوة وكيف ينظرون إلى النبي ﷺ بنظرات جزعة فزعة، وغير ثابتة، تـــدور أعينهم فيها دوراناً لا اتجاه له، مرة إلى اليمين، وأخرى إلى الشمال، وتارة

---

(١) لطائف الإشارات ، القشيري، ج٣، ص ٣٥-٣٦.

إلـــى الشـــرق، وأخرى إلى الغرب، وعيونهم في هذا تشبه في حركاتها الطائشة، وفقدان الوعي عين الإنسان المحتضر، الذي جاءت إليه سكرات الموت، وأحاطت بـــه أسبابه، فيذهل ويذهب عقله ويزول إدراكه، ويشخص بصره، فلا يرجع إليه، ويمد عينيه فلا يطرف، وهذه أبلغ العبارات في بيان جبن المنافقين وخوفهم الشديد وأكـــثرها جمـــالاً ودقة. والتاسعة: أنهم عندما يحل الأمن، ويزول خطر الحرب، بســـطوا ألسنتهم فيكم، وآذوكم بالكلام اللاذع، والألفاظ البذيئة، فهم ليسوا رجالاً، فالـــرجال يـــبرزون في وقت الشدة، ويؤدون دورهم في تحمل المشاق، وإنما هم أشباه رجال.(١)

ولو تدبرنا الآيات حق تدبر لانجلت أمامنا حقيقتهم وانكشفت كمائن نفوسهم، ففي التعبير لقطات فنية مصورة ترسم صورة نفسية لهؤلاء المنافقين، إنها "صورة نفسية داخلية، لوهن العقيدة، وخور القلب، والاستعداد للانسلاخ من الصف بمجرد مصـــادفة ، غـــير مبقيـــن على شيء، ولا متجملين لشيء".(٢) إنها آيات في غاية الـــروعة وهي تكشف النقاب عن نفوسهم فتجعلها عارية من كل ستار؛ فقد جمعت هـــذه النفوس الجبن والانزواء والفزع والهلع، في ساعة الشدة، فإذا ذهب الخوف انتفشـــت وبـــدت مـــنهم سلاطة اللسان وهي أنفس بخيلة شحيحة على الخير، وقد جمعت نفوسهم بين الكزازة في الجهد والمال والعواطف والمشاعر.

ولشـــدة خوفهـــم وجبنهم وهلعهم يتمنون أن لو كانوا من أعراب البادية لا يشـــاركون أهـــل المدينة في شيء ابتغاء النجاة من الخطر ، والأمان من الفزع ، هكـــذا تكشف الآيات عن مستكنات النفوس وتلقي الضوء على سراديبها وتظهرها مجسمة مجسدة.

نماذج من الصور النفسية في القصص القرآني:

ليس ثمة شك في أن العبرة من القصص القرآني، إنما هو غرض ديني لذا فقد "خضعت القصة القرآنية في موضوعها، وفي طريقة عرضها، وإدارة حوادثها

---

(١) المنافقون في القرآن الكريم. د. محمد يوسف عبد بن حسن. ص ١٨٤-١٨٥.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج٢١، ص ٢٨٣٩٣.

لمقتضى الأغراض الدينية"[1] بيْد أن هذا الخضوع لمْ يكن بمنأى عن النسق الفني، ورونق الأسلوب، وبلاغة النظم، وجمال الصورة، ولم يمنع من بروز الخصائص الفنية في عرضها، بل نجد القرآن يؤلف بين الأغراض العقدية والأغراض الفنية.

والمتأمل المتدبر في القصص القرآنية حقّ تأمل يدرك هذا الأمر إدراكاً لا يساروه شك وبخاصة فيما هو أصل بموضوع البحث "الصورة النفسية" إن كثيراً من القصص تميط اللثام عن مضمرات النفوس وخباياها، فالآيات في القصص القرآني بالإضافة إلى ما تحويه من صور فنية رائعة كذلك تصور نفسية أولئك الذين تتحدث عنهم بصورة واضحة بينة الاتجاه، لا تهمل جزئية ولا تنسى مشهداً.

*** نماذج من الصور النفسية في القصص القرآني:**

١- الصورة النفسية في قصة بني إسرائيل

يسجد العقل في محراب الفكر والتأمل، سجود تعظيم لكلام الله الحق، عندما يقف عند قول الله متحدثاً عن بني إسرائيل، وذلك بعد خروجهم من مصر مغمورين في نعم الله إنجاءً من عدو، وإغراقاً لفرعون وملئه، واستخلافاً في الأرض، في إطار معجزة شق البحر.

يقول الله عز وجل: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَامُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨)﴾[2].

كلمات قلائل تكشف النقاب عن حقيقة نفسية بني إسرائيل وتعلقها برواسب الذل الذي أفسد فطرتها وسجيتها، وملأها التواءً، وانحرافاً في التصور والمعتقد، فغدت منحرفة مستعصية مخلخلة، إن الآية الكريمة تبرز نفسية بني إسرائيل من خلال هذا المشهد الذي تعرضه بصورة حيّة متحركة شاخصة، وكأنها ظاهرة للعيان تبرزه من خلال عرض الحدث بكل تفاصيله، بكلمات قلائل مصورة، وفي الوقت ذاته تترك للعقل مجالاً رحباً لكي يحكم على نفسية القوم من مسرح

---

(١) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص ١١٧.

(٢) الأعراف، ١٣٨.

الأحداث؛ فهي إذاً تبين أن القوم نَجَوْا تحت ظل آية كبرى، تدلّ دلالة لا يساورها شـك على أن القوم عاشوا أجواء طلاقة قدرة الله، واستشعروا تجلياتها من خلال شق البحر لهم، ورأوا بأمِّ أعينهم إيجاد المسببات بلا أسباب: (قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَـا يَشَاءُ(٤٠)) [١]، وسمعوا موسى -عليه السلام- وهو يقول بملء فيه: (قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِـي رَبِّـي سَـيَهْدِينِي(٦٢)) [٢]، نجد الآية تعرض نفساً بشرية طغت عليها رواسـب الجاهلـية ورواسـب الذل الذي أفسد طبيعتها، فملأها التواءً وانحرافاً وتخلخلاً، تعرضها من خلال قوله تعالى: (فأتوا على قومٍ يعكفون على أصنام لهم قالوا: يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة).

إنهـا صـورة الضعف والميل نحو الأسباب، والتمرد على التوحيد، وكأن ضعفهم وميلهم إلى الأسباب كان أقوى من ميراثهم الروحي، إذ كيف يطلبون من موسـى -عليه السـلام- أن (يجعل) [٣] لهم إلهاً وثناً وهم لتوّهم عاشوا أجواء المعجزة المنبثقة عن فاعلية الله المطلقة بلا قيود ولا حدود.

وكـأن نفـوس القوم فهمت الأمر على غير حقيقته، فحنّت للوثنية، وأبدت رغـبة علنـية اسـتلابية، وهذا دليل على أن القوم "لم تخلص في قلوبهم حقائق التوحيد، فتاقت أنفسهم إلى عبادة غير الله، حتى قالوا: أجعل لنا إلهاً"[٤].

يقـول سيد قطب في هذا الصدد: "وطبيعة بني إسرائيل متخلخلة العزيمة، ضـعيفة الـروح، ما تكاد تهتدي حتى تضل، وما تكاد ترتفع حتى تنحط وما تكاد تمضي في الطريق المستقيم حتى ترتكس وتنتكس"[٥].

---

(١) آل عمران، ٤٠.

(٢) الشعراء، ٦٢.

(٣) الجعـل في اللغة هو: "إيجاد شيءٍ وتكوينه منه أو تصيير الشيء على حالة دون حالة"، راجع المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ولسان العرب، ابن منظور، باب "الجيم".

(٤) تفسير القشيري المسمى لطائف الإشارات، القشيري النيسابوري، ج١، ص ٣٥٠.

(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج٣، ص ١٣٦٦.

ولهـذا الأمر ثار موسى -عليه السلام- دهشة فقال: (تجهلون) في إطلاق (الجهـل)[1]، الكامل الشامل، "الجهل من الجهالة ضد المعرفة والجهل من الجهالة ضد التعقل، فما ينبعث هذا القول إلا من الجهالة والحمق إلى أبعد حدود! ثم ليشير إلى أن الانحراف عن التوحيد إلى الشرك إنما ينشأ من الجهل والحماقة، وأن العلم والتعقل يقود كلاهما إلى الله الواحد"[2].

لذلـك انحدرت نفوسهم لجاهلية جهلاء وضلالة عمياء، "ومع هذا الانحدار المفاجـئ سـيطرت القسوة الروحية عليهم في أفئدتهم. والأفئدة هي مركز الحس والعواطف، فتصلبوا، ومع تصلبهم ذاك نحوَ الوثنية ... والتصلب الوجداني عادة يـنعكس علـى التفكير، فيشارك العقل، والفؤاد في التصلب ذاك، وعندها يضعف الإنسان نفساً وضميراً، فيخرج عمّا هو مقبول ومألوف"[3].

وفـي مشـهد آخـر، تبرز صورة حية أخرى لنفسية بني إسرائيل، ترسم صورة واضحة المعالم لشخصيتهم وما طبعوا عليه وفطروا:

(وَإِذْ قَـالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَـالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْجَاهِلِينَ(٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ(٦٨) قَالُوا ادْعُ لَـنَا رَبَّـكَ يُبَيِّـنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّـهُ لَمُهْتَدُونَ(٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ(٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًـا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ(٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ

---

(١) الجهل: "اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه" راجع التعريفات، الجرجاني، باب "الجيم".

(٢) في ظلال القرآن، ج٣، ص ١٣٦٦.

(٣) نفسية بني إسرائيل في القرآن الكريم، د. زاهية الدجاني، ص ٧٨.

فَـيَخْرُجُ مِـنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)).[1]

مـن الواضح أنّ موسى -عليه السلام- طلب من بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة، وهذا الطلب إنما هو أمر من الله -عز وجل- الذي يسير بهم على هداه. لقـد كـان من الواجب عليهم تنفيذ الأمر، بلا تلكؤ ولا تباطؤ، ولكن القوم أجابوه إجابـة سفاهةٍ وسوءِ أدب، واتهاماً لنبيهم الكريم بأنه يسخر منهم ويهزأ؛ إذ قالوا: "أتـتخذنا هزواً"، فكأنما يجوز لنبي ورسول، أن يتخذ تكليفات الله -سبحانه- على سـبيل الهـزل والمزاح والفكاهة بين الناس. لقد قالوا لنبيهم إنك تهزأ بنا، وكأن نفسية القوم استنكرت أنْ يكلفها الله - تبارك وتعالى- بذبح بقرة على إطلاقها دون تحديـد، وكـأنهم يـرون المسألة لا يمكن أن تُحلّ بمجرد ذبح البقرة. بمعنى: أن المسألة شائكة صعبة على الله حسب رأيهم.

لـذا عندما سمع موسى -عليه السلام- كلامهم ذُهل، وعرف أنهم جاهلون بـربهم وبرسـولهم وجـاهلون بآخـرتهم، وأنهـم يحاولون أن يأخذوا كل شيءٍ بمقاييسهم، وليس بمقاييس الله -سبحانه-، فاتجه إلى السماء يستعيذ بالله من هؤلاء الجاهليـن، الـذي يأتـيهم اليسر فيردونه صعباً، ثم توجه إليهم ليردّهم إلى جادة الصواب، وجادة الأدب الواجب في جانب الحق سبحانه، وليبين لهم أن ما ظنوه به لا يلـيق إلا بجـاهل لقدر الله (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِـيسَ تُـبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُـمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ(٩١))[2] لذلك ردّ عليهم قائلاً: "قال أعوذ بالله أن أكون مـن الجاهلين"، ولقد كان في هذا الردّ كفاية لمن أراد الكفاية، وكفاية ليثوبوا إلى أنفسهم، وليرجعوا إلى ربهم، وينفذوا أمره.

"إن السـمات الرئيسـة لطبيعة بني إسرائيل، تبدو واضحة في قصة البقرة هـذه: "انقطاع الصلة بين قلوبهم، وذلك النبع الشفيق الرقراق: نبع الإيمان بالغيب

---

(١) البقرة، ٦٧-٧٤.

(٢) الأنعام، ٩١.

والـثقة بـالله، والاسـتعداد لتصديق ما يأتيهم به الرسل، ثم التلكؤ في الاستجابة للتكاليف، وتلمس الحجج والمعاذير، والسخرية المنبعثةِ من صفاقة القلب وسلاطة اللسان"[1].

لذا فقد طال الحوار بينهم وبين موسى -عليه السلام- واستمر لفترةٍ طويلة، يوجهون السؤال لموسى، فيدعو الله، فيأتيه الجواب من الله -تبارك تعالى- مع أنه كـان بوسعهم -وهم في سعة الأمر- أن يمدّوا أيديهم إلى أيّةِ بقرةٍ فيذبحونها، فإذا هم مطيعون لأمر الله، منفذون لإشارة رسوله.

ولفتة إلى أسئلة بني إسرائيل .. يقول الحق سبحانه "قالوا: أدع لنا ربك يبين لـنا ما هي" .. وهذا السؤال لا معنى له ولا محل، ذلك لأن الله -سبحانه وتعالى- قال لهم إنها بقرة، ولم يقل -مثلاً- إنها حيوان على إطلاقه، والسؤال عن الماهية فـي هـذا المقـام إنكارٌ واستهزاءٌ، أضف إلى ذلك، إن سؤالهم يبين نقص درجة الإيمـان عـندهم، إذ لـم يقولوا: ادع لنا ربنا، بل قالوا: ادع لنا ربك، وكأنه ربٌ موسـى وحـده، لا ربّهـم كذلك، وكأن المسألة لا تخصهم ولا تعنيهم، إنما تعني موسى وربه لذلك نجد الحق يجيبهم على لسان موسى "إنها بقرة لا فارض ولا بكر عـوان بين ذلك"، لقد أجابهم عن صفتها، ثم أعقب بعد ذلك بنصيحة آمرة قارعة حازمة: "فافعلوا ما تؤمرون" يعني كفاكم مجادلة، وتقيدوا أمر الله، واذبحوا البقرة، ولكـنهم لم يسكتوا، لقد راحوا يسألون مغيرين صيغة السؤال: "قالوا: ادع لنا ربك يبيـن لـنا ما لونها" مع أن الحق قال لهم: "فافعلوا ما تؤمرون"، إلا أنهم ما فعلوا ولكـنهم سـألوا عن لونها، فكان الجواب: "قال: إنه يقول: إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسرُّ الناظرين".

لقد ضيقوا على أنفسهم دائرة الاختيار، فضيق الله عليهم، وزاد الأمر مشقةً وتعقـيداً ، وزادت دائـرة الاختـيار المتاحة لهم حصراً وضيقاً ، وذلك بإضافة أوصاف جديدة للبقرة المطلوبة، مع أنهم كانوا في سعة الأمر.

وفـي غنى عن ذلك كلِّه: " قال إنه يقول: إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسرُّ الناظريـن" لقـد كـان فـيما سألوا كفاية، ولكنهم يمضون في طريقهم وعادتهم،

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج١، ص ٧٧.

ويعقدون الأمور ويشدّدون على أنفسهم، فيشدد الله عليهم، لقد عادوا الكرة وسألوا عن الماهية متلمسين العذر بأن البقر تشابه عليهم، وهنا ذكروا الله الذي نسوه، ولم ينفذوا أمره، منذ أن قال لهم: اذبحوا بقرة ثم قال لهم: "افعلوا ما تؤمرون"، وطلبوا منه الهداية بعد أن تاهوا بسبب عنادهم وجدلهم:" قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون" ولم يكن بدٌّ كذلك أن يزيد الأمر عليهم مشقة وتعقيداً: "قال: إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لاشية فيها". والمتأمل في وصف البقرة كما جاء في الآيات، يرى الصعوبة والتشدد في اختيار أوصافها، كأن الحق -سبحانه- يريد أن يجازيهم على أعمالهم، لذلك لم يجدْ بنو إسرائيل إلا بقرة واحدة تنطبق عليها المواصفات "كما جاء في الأثر"[1]، فقالوا: "الآن جئت بالحق" كأن ما قاله موسى -عليه السلام- قبل ذلك ليس حقاً، أو كأنهم لن يستيقنوا أن ما جاءهم به هو الحق إلا اللحظة. وذبحوا البقرة، ولكن عن كره منهم، لأنهم كانوا حريصين على ألا يذبحوا "فذبحوها وما كادوا يفعلون"، وهذا دليل على مماطلة أو حرص على عدم تنفيذ المنهج. ولعلّ عرض القصة بهذا الشكل، أي لماذا: يأمر الله بني إسرائيل أن يذبحوا بقرةً؟ أقول: لعلّ ذلك، أسلوب من أساليب اختبار النفوس، والكشف عن مدى استجابتها لتنفيذ المنهج، وهذا ما حدث بالفعل، إذ كُشفت نفوسهم على حقيقتها، بما تنطوي عليه من اللجاج والتعنت، وقلّة الاستبصار ، والالتواء، والكيد والقسوة، والتمرد والفسوق ...والجذاع واللؤم، وكل المعاني الخبيثة والشريرة، وكأنها لم تخلق إلا لتتجسد في نفوسهم وطباعهم[2].

وفي مشهد آخر وحلقة من حلقات قصة بني إسرائيل يطالعنا قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنْ الْعَالَمِينَ(٢٠) يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي

---

(١) تفسير الطبري، الطبري، ج١، ص ٢٤٥، ولا تكاد التفاسير الأخرى تزيد على ذلك.

(٢) يُراجع: الصورة الأدبية في القرآن الكريم، د. صلاح الدين عبد التواب، ص ١٠٨-١١٥، وفي ظلال القرآن، سيد قطب، ج١، ص ٧٧-٨٠، وتفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، ج١، ص ٣٨٨-٤٠٠، والقصص القرآني، د. فضل حسن عباس، ص٣٢٤-٣٢٥.

كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ(٢١) قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ(٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(٢٣) قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ(٢٤)) (١).

تأتي الآية الأولى في معرض تذكير بني إسرائيل بما أنعم الله عليهم، "وذكر النعمة يؤدي إلى شكر المنعم، ويؤدي -أيضاً- إلى الاستحياء من أن نعصي من أنعم، ويجعلنا نستحي أن نأخذ نعمته، لتكون مُعيناً لنا على معصيته"(٢).

ولقد أنعم الله على بني إسرائيل نعماً كثيرة منها: فلق البحر (فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ(٦٣))(٣).

وانفجار الماء من الحجر: (وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ(٦٠))(٤). وكلها عجائب عظيمة تتجلى فيها قدرة الخالق العظيم، كما جعل فيهم أنبياء، إذ كلما أدركتهم غفلة، أرسل الحق نبياً كأسوة سلوكية، وجعلهم ملوكاً، أي جعل منهم ملوكاً.

وما كان ذلك التذكير، من موسى -عليه السلام- لهم إلا إذا كان قد رأى منهم عملاً لا يتناسب مع النعم التي أنعم الله بها عليهم. فكأن قوم موسى -عليه السلام- قد أرهقوه، وتحمل منهم الكثير، لدرجة أنه قال لهم على سبيل الزجر ما قد يجعلهم يفيقون، ويتنبهون ويفطنون إلى ذكر نعمة الله عليهم، ومعنى ذكر النعمة، الاستماع إلى منهج الله، وتنفيذ أوامر الحق، واجتناب النواهي، لذلك جاء الأمر التشريعي بأن يدخلوا الأرض المقدسة، ويأمرهم أن لا يرتدوا على أدبارهم، فما كان جوابهم إلا أن قالوا: إن فيها قوماً جبارين، وإنا لن ندخلها ما داموا فيها،

---

(١) المائدة، ٢٠-٢٤.

(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، ج٥، ص ٣٠٤١.

(٣) الشعراء، ٦٣.

(٤) البقرة، ٦٠.

واشـــترطوا دخولها خروج سكانها منها، وعندما برز اثنان من الذين يخافون الله، يحضُّـــونَهم علـــى الدخول بمنطق الإيمان، والتوكل على الله، قالوا لموسى: إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها، فاذهب أنت وربك فقاتلا، إنا هاهنا قاعدون.

وهكـــذا ســـارت القصة وهكذا كان الحوار. وفي القصة هذه، مجال رحبٌ للحديـــث عـــن نفسية بني إسرائيل من خلال عرض السياق، ومضمون الحوار، ووصـــف المشـــاهد، "وكثير ما يشترك الوصف، والحوار، وجرس الكلمات ونغم العبارات، وموسيقى السياق، في إبراز صورة من الصور".(١)

إن الصـــورة النفســـية لطبيعة بني إسرائيل، تبدو واضحة في هذه القصة، وذلـــك من خلال ما كان عندهم من انحراف وفسوق عن سبيل الله، ومن إعراض عـــن الآيات بعد وضوحها وجلائها، وقوة دلالتها، ومن التواءٍ وتلكؤٍ في الاستجابة للتكالـــيف وتلمس الحجج والمعاذير، والسخرية المنبعثة من صفاقة القلب وسلاطة اللسان.

لقـــد قال لهم نبيهم: "اذكروا نعمة الله عليكم" وما أكثرها، وما أوضحها وما أجلاهـــا ومـــا أدلّهـــا علـــى طلاقـــة قدرة الخالق العظيم، إلا أن "الجبن والتمحل والنكوص والعقاب، ونقض الميثاق"(٢) من طبيعتهم: "قالوا: يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون".

لقـــد نكصـــوا عـــن الأرض المقدســـة، وهو معهم على أبوابها، فانكشفت عورتهم، وبدا جبنهم للعيان مكشوفاً بلا حجاب، حتى لو كان دخولها كتاب تشريع مـــن الله لهـــم ؛ لقد تمحلوا. ذلك أنهم أمام الخطر، فلا مجال للمداهنة والمجاملة، والســـبب كمـــا هو باد، أنهم يريدونه نصراً رخيصاً بلا ثمن، نصراً يتنزل عليهم تـــنزل المـــنّ والسلوى. هذا من جهة، أما من جهة أخرى، فقد بدا موقفهم يومىء بالـــتحدي لا لموسى فحسب، بل لرب موسى أيضاً، مما دفعهم لتوجيه أوامر منهم لموســـى وربـــه فيقاتلا، ويفتحا الأرض المقدسة، وهم في حالة انتظار لهذا الفتح. فيدخلوها من غير أهلها صافية لهم وحدهم.

---

(١) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص ٣٣.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج٢، ص ٨٠.

إن الآيـــة -كما هو باد- تظهر القوم في أنانية مطلقة بلا حدود، وتغطرس بـــلا قيود، لقد زاد شموخهم وتحدّيهم وتطلعهم للأرض من غير أهلها، بل وضعوا نفوســـهم فـــي بوتقـــة اســـتعلائية، لإطلاق الكلمات التي يريدونها في إطار غير موضـــوعي، فوصـــفوا أهـــل الأرض المقدســـة بالجبابرة من دون مواجهتها، أو الـــتعرف علـــيهم، لقـــد بُنيت رؤيتهم على إثارة العواطف تجاههم، فكأنهم أرادوا إظهـــار أنفســـهم كالمظلومين، في الوقت الذي يصورون به أهل الأرض المقدسة بالجبابرة، أو كطغاة يخافون من جبروتهم وظلمهم، وهذا الاتجاه يحمل قمة الظلم، إذ يمكنـــنا طـــرح الســـؤال التالي: هل من العدل حرمان أهل أرض من أرضهم ومعاشـــرتهم وكـــيانهم، إن هـــذا يخالف ثوابت الحياة والقيم والعدالة، إنه منتهى الـــتطاول المـــرفوض بكل دين وبكل تفكير، لقد عادوا للمراوغة والاحتيال، وهو أســـلوب مـــن أساليب الخدعة، لاستجلاب الشفقة، لقد قدموا صورة قبيحة لسكان الأرض المقدسة، بنعتهم جبارين، وفي الوقت نفسه تظاهروا بالمسكنة، بل والخشية مـــن الفـــتك بهـــم والإذلال لهم من قبل السكان الأصليين، وفوق ذلك كله، أظهرَ جوابهم وردُّهم، كوامن أنفسهم، بما فيها من أهواء وشهوات، وحبٌّ للتملك وغيره.

إذْ أرادوا لسكان الأرض المقدسة الخروج منها، والتشرد والحلول مكانهم، وهـــذا يبدي نفسيتهم، ونواياهم، بأنهم أهل كل الحقوق دون اكتراث لتجريد غيرهم من كل الحقوق.

لذلـــك، نجـــد الحق-سبحانه- عاقبهم بما يناسب فهمهم، لقد عاقبهم بالتيه، ليفهموا معنى التشرد الذي أرادوه لأهل الأرض المقدسة علّهم يرجعون ويفقهون.

قـــال تعـــالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ(٢٦)﴾.[1]

---

(١) المائدة، ٢٦.

* **الصورة النفسية في شخصيات قصة عرش بلقيس**

يــبدع التصوير القرآني في إبراز نفسية أشخاص القصة، القصة التي تبدأ بتفقد سليمان -عليه السلام- "النبي الملك" الطيرَ، فلا يجد الهدهد (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَــا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ(٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ(٢١)).(١)

إن المتدبر لنص الآية يدرك -تماماً- أن افتقاد سليمان لهذا الهدهد سمة من ســمات شخصيته، وسمة خاصة لشخصية الهدهد، أما السمة الأولى فتتجلى بسمة اليقظة، وحسن القيام والتكفل بأمور الرعية، حيث لم تخفَ عليه غيبة طيرٍ هو من أصــغر الطيور، في هذا الحشد الكبير من الجن والإنس والطير. أمّا السمة الثانية فتــتجلى في أنّ هذا الهدهد يحمل سمة خاصة، تميزه عن باقي الهداهد. على ذلك، فالمشـــهد يبرز لنا صورة "النبي الملك" الملك الحازم، والنبي العادل، الملك الذي يــتفقد الرعية، ويغضب على من يخالف النظام، ويتغيب بلا إذن، ولكنه ليس ملِكاً جــباراً، ولا ســلطاناً جائراً، فقد يكون للمخالف عذراً؛ ومن هنا تبرز سمة النبي العادل، إذ لم يقضِ في شأن الهدهد قضاءً نهائياً قبل أن يسمع حجته ويتبين عذره "أو ليأتيني بسلطان مبين".

ويحضر الهدهد، فماذا كان من أمره؟

(فَمَكَــثَ غَــيْرَ بَعِــيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّــي وَجَــدتُّ امْــرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ(٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَــنْ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ(٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْــأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ(٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦)).(٢)

لقد حضر الغائب، ولعلّه علم توعُّد سليمان -عليه السلام- له، وهو يعرف حزم الملك وشدة بطشه،(فيبدأ بمفاجأة تطغى على موضوع غيبته، وتضمن إصغاء

---

(١) النمل، ٢٠-٢١.

(٢) النمل، ٢٢-٢٦.

الملك إليه)[1]. "أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين" إنه أسلوب المفاجأة التي أعدّها للملك، تبرر غيبته، وتضمن الإصغاء، فأيّ ملك لا يصغي؟ وأحد جنده يقول له: "أحطت بما لم تحط به".

وعلى أية حال فإننا نجد -من خلال الآية- إصغاء الملك له، لذا نجده يطنب في تفصيل النبأ اليقين الذي جاء به من سبأ، وفوق ذلك كله يبدي رأيه في مسلك القوم وينكره، ثم يبين ما كان عليه أن يكونوا، "ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض"، وفي لفتة عظيمة دقيقة غاية في الدقة في إشارة لمسألة الخبْء بصفة خاصة، وهو الذي يبحث بمنقاره عن طعامه المخبوء في الأرض، أقول: لفتةٌ إلى طبيعته من جانب، ولفتةٌ أخرى إلى مخبوءات النفس ومكنوناتها من جانب آخر. والهدهد حتى هذه اللحظة، لم يسمع ردّ الملك عليه بمعنى أنه ما زال يقف موقف المذنب، لذا نجده، يلمح في ختام النبأ الذي يقصه، بأن هناك إلهاً عظيماً قوياً قادراً، الله الملك القهار، رب الجميع، صاحب العرش العظيم، الذي لا تقاس إليه عروش البشر، وتضعف دونه كلّ سلطة في الوجود "الله لا إله إلا هو ربُّ العرش العظيم"، ذلك لكي يطامن الملك من عظمته الإنسانية، أمام القدرة والعظمة والقوة المطلقة.

إن هذا المشهد باستغراقه لتلك المضامين، يثير احساسات كثيرةً، تجعل المتلقي، يقف وقفة تأملية بهذا المخلوق العجيب، صاحب الإدراك والذكاء والإيمان، والبراعة في تصديقه أو تكذيبه، حتى يقف على حقيقة ما يرويه، شأن النبي العادل والحازم:(قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ(٢٧) اذْهَب بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ(٢٨)).[2]

وهنا يبرز المشهد الثالث، وتبرز من خلاله شخصية الملكة، وها هي ذي في هذا الأمر الخطير، فليست قاطعة أمراً من دونهم، (قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ(٢٩)إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ(٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ(٣١) قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا

---

(١) قصص الرحمن في ظلال القرآن ، أحمد فائز الحمصي ، ج٤ ، ص٥٨.

(٢) النمل، ٢٧-٢٨.

حَـتَّى تَشْهَدُونِي(٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ(٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ(٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ(٣٥)).[١]

والمـتأمل فـي الآيـات، يشهد الحالة النفسية لتلك الملكة، فالصورة التي يرسـمها القرآن لهذه المرأة آية في الروعة والجمال، فهي امرأة غاية في الذكاء والدهاء، وهذا واضحٌ من خلال الحديث الذي دار بينها وبين الملأ من قومها.

بعـد أن عرضت عليهم الأمر طلبت منهم الرأي والمشورة، بأدب ولطف جانب، مكررّة: "يا أيها الملأ أفتوني في أمري"، "والفتوى هي الجواب في الحادثة، اشتقت على طريق الاستعارة من الفتى في السن، والمراد بالفتوى هاهنا: الإشارة علـيها بمـا عـندهم فيما حدث لها من الرأي والتدبير، وقصدت بالانقطاع إليهم والرجوع إلى استشارتهم واستطلاع آرائهم: استعطافهم وتطييب نفوسهم ليمالئوها ويقوموا معها"[٢].

وأكدت ذلك بقولها "ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون"، ونسبت الأمر إليها فقالـت: "أفتونـي في أمري"، ولم تقل: أمرنا، مما يؤكد حرصها وذكاءها، وكأنها تنـبههم، إلى أنه أمر شخصي بالنسبة لها، وهي صاحبة القرار الأخير فيه، ولكنها ترغـب برأيهم ومشورتهم، وفي هذا ما يظهر احترامها لهم، وكأنها تقول: أشيروا علـيَّ أيهـا القـوم، فأنا لن أتخذ قراراً دون رأيكم، وقولها: "حتى تشهدون" غاية القطع.

إنَّ شخصية المرأة برزت في اللحظة الأولى لتسلم الكتاب، فقد "أخذ الكتاب بمجـامع قلـبها وقهرها"[٣] من حيث لا تعلم، وهذا واضح من خلال ما ظهر في مـنطوق كلامها لقومها، حيث نقلت الأثر إلى نفوس الملأ من قومها، وهي تصف الكـتاب، وواضح أنها لا تريد المقاومة ولا الخصومة، على الرغم أنها لم تصرح بذلك، لكنها مهدت له بما وصفت.

---

(١) النمل، ٢٩-٣٥.

(٢) الكشاف، الزمخشري، ج٣، ص ٣٥٢.

(٣) لطائف الإشارات، القشيري، ج٢، ص ٤١٧.

وفـــي الآيـــة -كمـــا هو باد- دقة في انتقاء الألفاظ، وحسن في اختيارها، وجمـــال في موضعها المناسب، ففي قولهم: "نحن أولوا قوة" في الأجساد والآلات والعـــدد، "وأولـــوا باسٍ شديدٍ" نجدةً وشجاعة مفرطة في الحرب، "والأمر إليك"، وصف بديع لا تجد نظماً أجود منه، إذ لا تجد في صفتهم أنفسهم أبرع مما وصفهم به القرآن، وفي قولهم: "فانظري ماذا تأمرين" إيحاء بالقدرة على إحداث الخوارق والاستعداد لكل هول، والخبر هنا يفيد الفخر والاعتزاز، ويدلّ على النفوذ الواسع وشدة البأس، كما عبّر عنه بضمير الجمع "نحن"، وقال: أولو قوة" ولم يقل: أقوياء لأنها "أولو قوة" أبلغ في الدلالة وأعظم أثراً في النفس"(١).

إنهـــم مـــن أبناء الحرب لا من أبناء المشورة والرأي، أما أنت فمن ذوات الرأي والمشورة، فانظري ماذا ترين فنتبع رأيك.

وهـــنا تبرز شخصية "المرأة" من خلف شخصية الملكة، "المرأة التي تكره الحروب والتدمير، والتي تنضي سلاح الحيلة والملاينة قبل أن تنضي سلاح القوة والمخاشـــنة"(٢)، والتي تتهيأ في نفسها لمواجهة سليمان -عليه السلام- بغير عداء ولا خصام.

"قالـــت إن الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذلّةً وكذلك يفعلون. وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرةٌ بم يرجع المرسلون".

إذن بعد أن بينت ضعف رأيهم، عليهم أن يسمعوا رأيها، الذي كان إرسال هديـــة إلى سليمان -عليه السلام- فإن قبلها فهو من ملوك الدنيا، تضمن مصالحته وإن حاربها، فليس بندٍ لها، أما إن رفضها، فإنه ملك لا قدرة لها على حربه.

ونستشـــف من الآية الكريمة "وإني مرسلة بهدية" عدم رغبتها في الحرب، فإرسال الهدايا ينشرُ المحبة والألفة، كما أنها لم تطلب من قومها الاستعداد للحرب سواء أقبل الهدية أم لا، بل اكتفت قائلة لهم: "فناظرة بم يرجع المرسلون" وهنا يبدأ المشـــهد الرابع؛ إذ تصل سليمان -عليه السلام- الهدية فيردّها، (فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَـــالَ أَتُمِدُّونَنِـــي بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ(٣٦)

---

(١) روائع الإعجاز في القصص القرآني، محمود السيد حسن، ص ٨٦-٨٧.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج١٩، ص ٢٦٤٠.

ارْجِــعْ إِلَــيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧)).[١]

والملحــوظ مــن الآية الكريمة أن سليمان -عليه السلام- ليس ممن يفرح بهديــة كهديتهم، وهذا واضح من خلال التعبير: "بل أنتم بهديتكم تفرحون" فقد قدّم المسند إليه (أنتم) وجعله مبتدأ، هذا بالإضافة إلى أن لفظ "بل" المشعر، بالإضراب، يفضي بأن المراد: بل أنتم لا غيركم، على أن المقصود نفي فرحه هو بالهدية، لا إثــبات الفــرح له بهديــتهم، أضف إلى ذلك، أن الردّ مشعرٌ بالاستهزاء بالمال، والاســتنكار للاتجاه إليه في مجال غير مجاله، ثم يتبع ذلك بتهديد عنيف "فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون".

ثم يدرك سليمان -عليه السلام- أن هذا الرد سينهي الأمر مع ملكة لا تريد العداء، فيؤكد أنها ستجيب دعوته.

فيطلــب إحضار عرشها قبل أن تجيء، وأن يمهّد لها الصرح من قوارير، وما كان هذا إلا لكونه يعلم بفطرته أن المرأة" تبهرها القوة الخارقة.

(قَــالَ يَاأَيُّهَــا الْمَلَــأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ(٣٨) قَالَ عِفْرِيــتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ(٣٩) قَــالَ الَّــذِي عِــنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِــهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ(٤٠) قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ(٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ(٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ(٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَــالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٤٤)).[٢]

---

(١) النمل، ٣٦-٣٧.

(٢) النمل، ٣٨-٤٤.

وفي الآيات يبرز شخص "النبي" في نفس سليمان -عليه السلام- أمام هذه النعمة التي أنعم الله عليه بها، فيستطرد سليمان -عليه السلام- في شكره لله على نعمته يحقق الغرض العقدي للقصة.

وتصل المرأة إلى سليمان -عليه السلام- فتدخل عليه وترى "عرشها عنده مع بعض التغيير فيه، ويسألها قائلاً: "أهكذا عرشك" ولم يقل: أهذا عرشك؟ "لئلا يكون تلقيناً لها"(١)، فأجابت: "كأنه هو" أي يشبهه ويقاربه، ثم طلب إليها أن تدخل الصرح (القصر) فلما رأت روعة بنائه (كونه من الزجاج) ظنت مدخله ماء كثيراً "وكشفت عن ساقيها" واستخدام القرآن للواو إشعاراً بأنها ترددت قبل الكشف عنهما لتخوض فيه، فعند ذاك قال لها سليمان -عليه السلام-: "إنه صرح ممرّد من قوارير"، أي ملمس من زجاج، لقد أراها عظمة سلطانه وتمكنه، فهالها ما رأت، فأيقنت أن سليمان -عليه السلام نبي مرسل، واعترفت بظلمها فلم تعاند ولم تتكبر، أذعنت واستسلمت لله الواحد القهار.

وهكذا كانت الملكة "امرأة" كاملة تتقي الحرب وتلجأ للملاطفة والحيلة بدل المعاندة والمخاشنة، ثم هي لم تسلم بعقلها وذكائها، بل وصلت إلى وحدانية الله -سبحانه- عن طريق نبي مرسل، وهذا يدل على قصور العقل البشري وضعفه مهما بلغ به الذكاء والفطنة، لذلك كانت تعبد وقومها الشمس من دون الله، لكنها لما رأت الحقائق الباهرة والمعجزات العظيمة استسلمت في اطمئنان.

---

(١) الكشاف، الزمخشري، ج٣، ص ٣٥٧.

الصورة النفسية في قصة ابنيْ آدم عليه السلام:

قال تعالى : (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ(٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ(٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ(٣١)).[1]

لا شك أن القصة – كما تعرضها الآيات الكريمة – صورةٌ لأنموذجين من نماذج الطبيعة البشرية ، أنموذج لطبيعة الشر والعدوان ، وإنموذجٍ لطبيعة الخير والسماحة ، تقفهما وجهاً لوجه ، كلٌّ منهما يتصرف وفق طبيعته.

لقد كانا في موقف طاعةٍ بين يدي الله ، موقف تقديم قربان يتقربان به إلى الله "إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر". يحقُّ لنا الآن أن نطرح السؤال : هل يثور في هذا الموقف خاطر الاعتداء في نفس طيبة ؟! لقد كان أمْرَ القبول ، أو عدمه موكولاً إلى قوة غيبية ، وهذا ما يشير إليه بوضوح تام ، بناء الفعل للمجهول "فَتُقُبِّلَ"، بمعنى أن الذي قُبل قربانه ، لم يكن له يدٌ فيه، سوى أنه قدَّم أفضل ما عنده ، وما قدّم أفضل ما عنده إلا لكون نفسه طيبة ، وهذا يعني – أيضا – أن خاطر القتل لم يردْ إلا في نفس غير سوية وغير مستقيمة ، وبخاصةٍ في هذا الموقف التعبدي.

إنَّ هذا التجسيد لحقيقة قوله : "قال لأقتلنك" ، الذي يحمل كل معاني التأكيد والإصرار ، فيه إشارةٌ واضحةٌ إلى طبيعة نفسية خالية من أية جذوة إيمانية ، وامتلائها بالحسد ، وما أجمل قول الزمخشري في هذا الصدد ، قال : "لمّا كان الحسدُ لأخيه على تقبل قربانه ، هو الذي حمله على توعده بالقتل ، قال له : إنما أتيت من قبل نفسك لا نسلاخها من لباس التقوى ، لا من قبلي ، فلِمَ تقتلني ؟ ومالك لا تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى الله التي هي السبب في القبول ؟

---

(١) المائدة ، ٢٧ – ٣١ .

فأجابـــه بكـــلامٍ حكيم مختصر جامع لمعانٍ . وفيه دليل على أن الله تعالى لا يقبل طاعة إلا من مؤمن متقٍ".(١)

إذن لا مندوحة أن تجد في الدراسات النفسية الحديثة مصطلحاً شائعاً أسمه "العقـــدةُ القابيلـــية ".(٢) وفـــي هـــذا ، يقول د. خريستو نجم : "فعقدة قابيل توقظ المشاعر السلبية منْ غيْرة وكراهية وحسد ورغبة في الثأر".(٣)

وعوْد على بدء ، نرى أن الصورة باستغراقها ، تثير كل معاني الاستنكار ، لأنها منبجسة من نفس استلابية مغمورة بالخبث المنكر والحسد الأعمى.

أما الصورة النفسية للأنموذج الآخر ، فتتجلى في قوله : "إنما يتقبل الله من المتقيـــن" ، إذ تبْدو الصورة فيه واضحة المعالم بينة الاتجاه ، إنها طبيعة إيجابية بكلِّ معاني الوداعة والطيبة.

وعلى أية حال ، فإن القول تجسيدٌ لأبعاد إيجابية منها : ردُّ الأمر إلى أصله ، والإدراك لأسباب القبول، وتوجيه لطيف للمعتدي أن يتقي الله ، وتعريض لطيف لا يُصـــرِّح بما يخدش. وفي استعمال أداة الحصر "إنما" جمال وروعة في حصر القـــبول بالتقوى لا غير. وفوق ذلك كلِّه ، لم يكتف الأخ المؤمن بهذا القول ، لكنه أضـــاف قائلا : "لئن بسطت إليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك ، إني أخاف الله رب العالمين".

هكذا ترتسم الصورة النفسية بهذا الملفوظ القولي ، وكما نعلم "بأن الأسلوب القولي طريقة من طرق التعبير عن الذات".(٤) ، وبهذا تبدو صورة النفس المطمئنة الهادئة المسالمة الوادعة ، حتى في أشد المواقف ؛ وذلك لأن خوفاً من الله تملكها ، لا عجزاً ثبّطها.

---

(١) الكشاف ، ج١ ، ٦١١ ، ٦١٢.

(٢) نسـبةً إلـى عقـدة قابيل ، وهذا مذهبُ من يرى أنّ ابني آدم اللذان جاء ذكرهما في القرآن هما : هابيل وقابـيل ، علما أنه لم يرد ذكر اسمهما في القرآن أو كتب الحديث ، ولعلّ أهل التفسير أعتمدوا في ذلك على أخبار العهد القديم ، راجع في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ج٦ ، ص ٨٧٢.

(٣) في النقد الأدبي والتحليل النفسي ، د.خريستو نجم ، ص ٣٦.

(٤) الأسس النفسية ، د.مجيد عبد الحميد ناجي ، ص ١٢.

وتكتمل الصورة النفسية للأنموذج الشرير ، بعد اندفاع نفسه الشريرة بقتل أخيه ، فقتله ، دون أدنى استجابة لكل أنواع التذكير والعظة والمسالمة والتحذير.

هكـذا طافـت بـنا تلـك الآيات الكريمة في آفاق نفس ذينك الأنموذجين وأبرزتهما ، وبينت دفائن وخبايا كلٍّ منهما.

الصورة النفسية في قصة يوسف عليه السلام:

ومـن الصـور النفسية التي رسمها القرآن الكريم،لتنم عن مكنونات نفوس أصـحابها،وما اختلجها بكل براعة وإتقان،وأجلى بيان،تلك التي جاءت في سورة يوسـف عليه السلام،السورة التي فصلت الأحداث تفصيلاً دقيقاً، منذ أن بدأت بما وقـع ليوسـف علـيه السـلام مـع إخوتـه وما حدث له في مصر بعد شرائه وتربيـته،ومراودة امرأة العزيز له،وسجنه وتعبيره للرؤيا،وخروجه،وولايته على خزائن الأرض،ومجيء إخوته إليه،ومجيء أخيه ثم عودة إخوته لأبيهم بدونه،إلى مقدم أبيه وأهله إليه.

والمـتأمل فـي السورة حق تأمل يرى توافقاً في الختام من نوع خاص مع القصـة في الابتداء،فقد بدأت القصة برؤيا يوسف عليه السلام،وختمت بتحقق هذه الرؤيا.

وعلـى أية حال،فإن القصة قد بدأت بقول يوسف عليه السلام لأبيه:(إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَابُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَـدُوٌّ مُبِيـنٌ(٥)).[1] والمشـهد كمـا هـو باد: يوسف الصبي يقص رؤياه على أبـيه،والملحوظ أن "هـذه الـرؤيا كما وصفها لأبيه،ليست من رؤى الصبية ولا الغلمـان"[2]؛ لقد رأى الكواكب والشمس والقمر متمثلة في صورة من يعقل، تحنو رؤوسها بالسجود تعظيماً.

---

(١) يوسف: ٤، ٥.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج١٢، ص١٩٧١.

والسياق يسروي عنه في صيغة الإيضاح المؤكدة،"إذ قال يوسف لأبيه إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر"، ثم يعيد لفظ رأي، "رأيتهم لي ساجدين" مما يدل على قوة الوضوح،ولهذا أدرك الوالد بنفاذ بصيرته أن وراء هذه الرؤيا شأناً عظيماً لهذا الغلام،ولهذا بدا بصورة الشفيق الحذر،معبراً عن ذلك بقوله: "لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين".

وينتهي المشهد ، ليبدأ مشهد آخر يعبر بكل جلاء عن صور نفسية أبناء يعقوب -عليه السلام- ، (إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ(٩) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ(١٠)).[1]

وفي هذا المشهد نرى إخوة يوسف -عليه السلام- وهم يدبرون ليوسف ما يدبرون،وأول ما يلفت الانتباه قولهم:"ليوسف وأخوه أحبُّ إلى أبينا منا ونحن عصبة" مؤكدين ذلك بلام التوكيد، مما يدل على إنكارهم لهذا الحب،إلا أن في قولهم ومضة من إنصاف،فقد أثبتوا حب أبيهم لهم،ولكن قولهم فيه بعض من غفلة البشر،ولو أنصفوا لالتمسوا العذر في زيادة حبِّ أبيهم ليوسف وأخيه الصغيرين، لما يحتاجان له من حنان ورعاية.

وعلى كلٍّ فإن حسداً، قد ملأ قلوبهم، وحقداً قد ساور نفوسهم، مما أبعدهم عن جادة الصواب، وجعلهم لا يملكون زمام الحقيقة،فاختل تقديرهم للوقائع،وهذا كله ناتج من إيثار فرد بالحب عن الآخرين، مما أنشأ في نفوسهم عقد النقص،فأدت بهم إلى أن يكون السلوك غير منطبق على المبدأ الخلقي،وقولهم:"يخلُ لكم وجه أبيكم" فيه إشارة واضحة لما ألمعتُ، بالإضافة لوجود ظاهرة نفسية مفادها أن تعبيرهم بلفظ "الوجه" دليل واضح على أن حب يوسف الذي تملك قلب الوالد قد ظهر على وجهه،ولا غرابة في ذلك،فكثير من مكنونات النفس وخوالجها، يصدح بها الوجه، حتى لوْ حاول صاحبها إخفاءها،فالوجه الإنساني مرآة النفس، فكثير ما تكون قسماته معبرة ومفيدة في الكشف عن الشعور.

---

(١) يوسف، ٨- ١٠.

وعلـــى أية حال فإن الانفعال البشري جعلهم يفكرون في إيذاء يوسف –عليه السلام– إلا أن الملفت للانتباه، أن التفكير في الإيذاء سار من المستوى الأعلى إلى الأدنى،فقولهـــم:"اقـــتلوا يوسف" تعبير عن قمة الشر،وبعد أن خفت ثورة الانفعال قالوا: "أو اطرحوه أرضاً"، وحين أرادوا التنفيذ قالوا:"والقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة"،بمعنى أن التفكير في الإيذاء صاحبه التفكير في النجاة،وهذا يعني أن الأنمـــوذج الخـــيِّر، عندما يفكر في الشر، لا يُصَعِّدُه ولكن يتنازل ويتدنى،وهذا إشـــارة إلى طبيعة الخير في نفوسهم،على عكس الأنموذج الشرير،فإنه إذا فكر في الإيذاء،يصعِّد الأمر من الأدنى إلى الأعلى.

ولـــو دققـــنا الـــنظر فـــي قولـــه:"إن كنـــتم فاعلين" لأدركنا "روح التشكيك والتثبيط،كأنه يشككهم في أنهم مصرون على إيقاع الأذى بيوسف،وهو أسلوب من أساليب التثبيط على الفعل"[1].

ومن الآيات التي عبرت عن نفسية إخوة يوسف –عليه السلام– قوله تعالى: (وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ(١٦)).[2]

والآيـــة كمـــا هـــو بادٍ،تبين مدى ستر الليل للحقائق،والعامة تقول:"الليل أبو ســـاتر"،لذا فقد اختار إخوة يوسف –عليه السلام– وقت العشاء للقاء أبيهم والعشاء محـــل الظلمـــة،وهو ســـترٌ للانفعـــالات النفســـية التـــي تظهر على الوجوه من الاضـــطرابات،لأنهم لن يخبروا أباهم بالحقيقة؛ بل بحديث مختلق. لذا فقد تخدعهم حركاتهم،وتصـــرفاتهم، ويفضـــحهم تلجلجهم، وتنكشف حقيقتهم من انفعالاتهم أمام أبيهم، فتواروا بالظلمة من أجل ذلك.

لعـــل مـــا تقدم قد أوضح الصورة النفسية لإخوة يوسف – عليه السلام– إذ كشفت الآيات النقاب عن مكنونات أنفسهم، وأظهرت جانب الحسد وجانب التآمر وغير ذلك.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج١٢، ص ١٩٧٤.

(٢) يوسف ، ١٦.

والحقيقة أن القصة مليئة بالصور المعبرة،ولكثرتها أعرض عن بعضها،خشية الإطالة لأنتقل مباشرة، من بيت النبوة إلى القصور المترفة. لنرى صورة نفسية لامرأة ساء سلوكها،فكانت مثلاً.

قال تعالى: (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(٢١)).[١]

وتمرُّ الأيام، وإذا بالغلام شاباً يافعاً، قد بلغ أشدَّه،فتحبه المرأة حباً وصل "شغاف"[٢] قلبها، فأخذها بها عنها، قال تعالى:(وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(٣٠)).[٣]، أي تمكن من قلبها.

ونتيجة لهذا الحبِّ، بدأت تحاول معه،لتصل إلى مبتغاها بشتى الطرق، وليس هذا فحسب،بل دفعتها الغريزة الجنسية إلى فقدان السيطرة على نفسها الهائجة الكاسحة،وما أجمل الصيغة القرآنية وهي تعبر عن حجم قوة الحركة: (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ(٢٣)).[٤]، صيغة الفعل المضعف، المفارقة لـ (أغلقت)، وهذا إشارة إلى شدة الإحكام والتأكد الشديد من إغلاق الأبواب،وارتفاع الهمة في ذلك كما "يبعث في الذهن صورة الدفع القوي للأبواب"[٥].

وعلى أية حال، فإن المرأة بدأت (تراود) [٦] يوسف –عليه السلام– قال تعالى معبراً عن ذلك: (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ

---

(١) يوسف، ٢١.

(٢) الشغاف: باطن القلب أو أوسطه. وقيل:"هو جلدة دونه"، يراجع المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، باب "شغف" ولسان العرب، ابن منظور، باب "شغف".

(٣) يوسف ، ٣٠.

(٤) يوسف، ٢٣.

(٥) جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير، أحمد ياسوف، ص ١٥٥.

(٦) المراودة: مطالبة برفق ولين بستر ما تريده ممّن تريده، يراجع: تفسير الشعراوي، ج١١، ص٣٩٠٤.

هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ(٢٣))[١]، وما أجمل التعبير حيث يعرض الحدث بصورة عدم التصريح باسمها؛للمحافظة على الستر ما أمكن،ويكتفي بـ"التي هو في بيتها"، ثم نجدها تنتقل من مرحلة المراودة إلى مرحلة الوضوح في طلب الفعل:(وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣)).[٢]، وهذا دليل على أنه استعصم ولم يستجب لها. وفي "هَيْتَ" أقوال كثيرة أغلبها تفيد الدعوة إلى نفسها، وهي "اسم فعل أمر مبني على الفتح"[٣] يدل على شدة الحدث، وهذا يعني أنها وصلت إلى حالة نفسية شهوانية هائجة كاسحة، عبرت عنها بأوجز الألفاظ "هيْت لك" وهي دعوة مكشوفة، لا تكون إلا الأخيرة، "ولا تكون إلا حين تضطر إليها المرأة اضطراراً "[٤] ورغم كل هذا ، يأتي الرفض صريحاً من يوسف عليه السلام،قال:"معاذ الله" ثم قال:"إنه ربي" أي الذي رباني وعشت في بيته و "أحسن مثواي" ويختم بقوله:"إنه لا يفلح الظالمون"، إلا أن هذا القول لا يلقى في نفسها أثراً،وتهم به وتجذبه إليها نحو المخدع،ولكنه يصر على الرفض والامتناع،ويصور القرآن جمال الصورة الحركية السريعة في قوله:"واستبقا الباب" أي "تسابقا إليه"[٥]فهو حريص على الهرب،وهي حريصة على الإمساك به، وتلحق به وتمسكه بقميصه من الخلف فتشده "القميص" وتمزقه، ويتوقفا عند الباب،وتأتي المفاجأة الكبرى:(وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ

---

(١)يوسف، ٢٣.

(٢) يوسف ، ٢٣.

(٣) اسم الفعل ، ما ناب عن الفعل معنىً واستعمالاً ، والمراد بالاستعمال كونه عاملاً غير معمول به والحاجة إلى وضع أسماء الأفعال وعدم الاكتفاء بمدلولاتها – وهو الأفعال نفسها على أرْجَح المذاهب– أن المتكلم قد يقصد المبالغة ويريد أن يعبر عن مقصوده بأوجز لفظ، والستر في هذا أن اسم الفعل يدل على شدة الحدث، يراجع: أوضح المسالك إلى ألفية بن مالك، ابن هشام ، وينظر–أيضا– الحاشية، محمد محي الدين عبد الحميد، ج٣، ص١١٦.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج١٢، ص١٩٨٠.

(٥) لسان العرب، ابن منظور ، باب "سبق".

أَلِـــيمٌ(٢٥)) [١]،"وهنا ألقت المرأة الاتهام على يوسف عليه السلام في شكل سؤال تـــبريري للهـــروب من تبعية الطلب وإلقاء التهم على يوسف"[٢] ،(وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّـــا أَنْ يُسْـــجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٢٥))[٣]، ثم حددت العقاب : (وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْـــجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٢٥)).[٤]،لقد "جاءت بحيلة جمعت فيها غرضيها:وهما تبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة، والغضب على يوسف وتخويفه طمعاً في أن يؤاتيها خيفة منها ومن مكرها،وكرهاً لمّا أيست من مؤاتاته طوعاً"[٥].

والملحـــوظ من الآية أنها لم تصرح باسمه،بمعنى أنها "أظهرت بهذا الإجمال الحـــياء والحشـــمة أن تقـــول لبعلها: هذا أراد بي سوءا، ولذلك كنّت بالسوء عما أضـــمرته من الهناة مبالغة في المكر والكيد ، وإبعادًا للتهمة عنها بتوقي ما يشعر منها بالتبرج والقحة(كذا)، وعلى الضد من مقصودها وإن وافق ملاحظتها بحشمة الإجمـــال: قـــول ابـــنة شعيب تمدح موسى عليه السلام، فيما حكى الله عنها"قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين " ولم تقل : إنه قوي أميـــن، حـــياءٌ مـــن التعيين وحشمة وخفراً، ولكن هذه إنما بعثها على هذا الأدب وشـــيمة الحـــياء،وامرأة العزيز،إنما بعثها عليه التكلف والاستعمال لذلك الغرض الفاسد من المكر"[٦].

كمـــا يلحـــظ في صيغة الفعل "يسجن" "الذي يدل على الحدوث والتجدد"[٧]، اختيار العقاب المأمون، فالسجن بهذه الحالة قد يكون يوماً أو أياماً، ولو أرادت له السجن لفترة طويلة لقالت"من المسجونين" مستخدمة في ذلك "الأسم الذي يدل على

---

(١) يوسف ، ٢٥.

(٢) تفسير الشعراوي ، محمد متولي الشعراوي، ج١١، ص٦٩٢١.

(٣) يوسف، ٢٥.

(٤) يوسف، ٢٥.

(٥) الكشاف، الزمخشري، ج٢، ص٤٤١.

(٦) الانتصاف من الكشاف ، أحمد بن المنير الإسكندري ، حاشية الكشاف، ج٢، ص٤٤١.

(٧) التعبير القرآني، فاضل السامرائي، ص ٢٤.

الثبوت"[1]، ونظير ذلك حين تهدد فرعون موسى –عليه السلام– قائلاً له: (قَالَ لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنْ الْمَسْجُونِينَ(٢٩)).[2]،"فعبر هنا بالحبس الدائم"[3]. كما يلحظ أنها خيرته ما بين الحبس أو العذاب الأليم،وهو "النكال،(مأخوذ من القيد) والعقوبة"[4].وهذا يعني أنها اختارت له عقوبة خفيفة، لأنها تحبه ولا تريد إيذاءه،وتطمع في أن يؤاتيها،أو خوفاً من أن يفضح أمرها،ويتكلم بما لا تريد أن يسمع سيدها.

وتستمر القصة، إلى أن انتشر الخبر، وتتحدث به نساء المدينة،فتجمعهن،وتحضر لهنّ متكأً، وتحضر لهن مأدبة في قصرها، ثم طلبت من يوسف عليه السلام أن يخرج إليهن.

إنها تظهر سيطرتها عليه أمامهن في تبجح ، ولا ترى بأساً من الجهر بنزواتها الجنسية في محضر النساء،(قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَ مِنَ الصَّاغِرِينَ(٣٢)).[5]

والملحوظ من الآية التبجح والتهديد والإغراء في آن واحد،إلا أن هذا التهديد أشد من الأول؛ففي الأول استعملت "أو" للتخيير،وهنا استعملت "و" للجمع، وهذا يبين مدى الحالة النفسية التي وصلت إليها،إنها مصممة هذه المرة على سجنه،وليس كما قالت سابقاً:"إلا أن يسجن"، والفرق واضح بين دلالة كل من الكلمتين "ليسجنن" و "أن يسجن" كما أنّ كلامها السابق "أو عذاب أليم" أما الآن "من الصاغرين" .

هكذا سارت القصة،يرسم التعبير الفني فيها خفقات مشاعرها،وانتفاضات الوجدان في نفسها،فأبداها صوراً للمعنى الذي يساور تجاويف نفسها وما يتهامس في دخائلها،ولا غرابة أن تجد ألفاظاً وجدانية،فالتعبير يستلزم ذلك،وذلك لأن التعبير عن الوجدان يستلزم ألفاظاً ذات دلالات نفسية وشعورية خاصة قادرة على

---

(١) التعبير القرآني، فاضل السامرائي، ص ٢٤.

(٢) الشعراء، ٢٩.

(٣) تفسير الرازي، الفخر الرازي، ج٢٤، ص ١٣٢.

(٤) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ، باب "نكل".

(٥) يوسف ، ٣٢.

تصوير ما في دخائل تلك النفوس،وهي في الوقت ذاته قادرة على التأثير في نفس الملتقى لتحدث عنده هزّةً شعورية وإحساساً مماثلاً.

اكتفي بما قدّمت، خشية الوقوع في الإطالة،مع أن المقام يجلُّ عن الحصر،لذا أرجـــو باستعراض هذا النزر اليسير البركة والفائدة لكل دارس وساع لولوج هذا البحر.

الفصل الثاني

وظيفة الصورة النفسية في القرآن الكريم

١-الموعظة والاعتبار

٢-سبر أغوار النفس

٣-التشريع

وظيفية الصورة النفسية في القرآن الكريم

١- الموعظة والاعتبار:

إنَّ الصـــورة النفســـية في القرآن الكريم، من الذرائع اللطيفة لتأثيل الحق وإبـــرازه، ودرء الشبهة وقمعها، وإقامة الحجة وتثبيتها، وأقوى وسيلة لقمع ثورة الجـــامح. كيف لا؟ وهي اعتلاج واختلاج لما تخفي الصدور للمعنى الذي يساور تجـــاويف الـــنفس، وما يتهامس في دخائلها، ومن ثم إبرازها بصور مثيرة لنفس المتلقي، تدفعه إلى معرفة المراد منها، واتخاذ موقف مناسب إزاء ذلك.

فلا غرو إن قلنا: إنها وسيلة لطيفة للإرشاد والإيمان والعظة والاعتبار. إذ هـــي تارة تثبت الفكرة في النفوس، وتقرها في الأفئدة، إقراراً ينتهي إلى الإيمان، كمـــا ينبثق منها العمل الصالح، المبني على أساس من الإيمان المكين، وهي تارة أخـــرى ترفع الوهم وتزيله، وتقيم الحجة وتبلجها، وتظهر معايب النفس، فيستدل العاقل بذلك على ما وراءها فيتخلص منها...الخ.

"إن علـــم النفس يجدُّ جاهداً لاستكناه أغوار النفس الإنسانية، وسبر بواعث معاناتهـــا وأســـبابها واضطراباتها، بيْد أن القرآن المعجز سيظل النبع الدفاق، منه يغـــترف من أراد أن يقف على حقائق نفس الإنسان، واستجلاء مكنونات شخصيته على امتداد آفاق الزمان واتساع معالم المكان".(١)

"وفـــي الـــنفس الإنسانية قوتان: قوة تفكير، وقوة وجدان. وحاجة كل واحد منهما غير حاجة أختها. فأما إحداهما فتنقب عن الحق لمعرفته، وعن الخير للعمل بـــه، وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم. والبيان التام هو الـــذي يوفيّ لك هاتين الحاجتين، ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين، فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معاً".(٢)

ولعـــلّ روعة التصوير، هي التي تجمع بين هذين الجناحين: الفائدة العقلية والمـــتعة الوجدانـــية، ففـــي روعـــة التصوير تعانقٌ بين الاقناع المنطقي العقلي، والاقناع الشعوري القلبي، وبالتالي التفاعل فيما بينهما.

---

(١) علم النفس القرآني والتهذيب الوجداني، د. عبد العلي الجسماني، ص ١١.

(٢) النبأ العظيم، د. محمد عبد الله دراز، ص ١١٣، ١١٤.

ولهـذا كانـت روعة التصوير ثيمةٌ أسلوبية من سبل القرآن الكريم الذي يـتفجر منه الهدى والرحمة والبشرى للمسلمين، وفي المقابل هو ثيمةٌ أسلوبية من سبل القرآن الذي ينبجس منه الإنذار والتهديد والوعيد لغير المسلمين.

"ولهذا اتجه القرآن إلى مزج التأثير الوجداني بحُجَجِهِ ودلائله الهادية لقوى الفكـر في الإنسان، لتهيمن بلاغته على قوى الفكر والشعور في الإنسان [1]" وهذا الأسلوب لا يتأتى لمخلوق، وأنّى يتأتى له ذلك، والأمر يحتاج إلى غوْرٍ في خلجات النفوس.

"إن سـرَّ النفس من حيث جوهرها وحقيقتها، ومآلِها، وما ترمي إليه، وما تروم لا يحيط به إلا خالق النفس".[2]

لـذا جاءت "كل آية من آياته المحكمات، تكشف عن حقيقة النفس المؤمنة، وعـن زيـف النفس الزائفة عن محجة الصواب، وهو بالنفس الحائدة عن السبيل السوي أدرى".[3]

إنّ سـمو الصـورة النفسية في الإضاءة لخفايا النفس الإنسانية وتسطير ما يـتهامس فـي دخائلها، طريقة يُهتدى بها، ومفتاح شعوري وفكري، يتخذ لولوج أبـواب المشـاعر والأفكـار التـي تتضمنها، وهذا كله بابٌ من أبواب الموعظة والاعتبار .

بـناءً علـى ما سبق، فإنه ينبغي أن ينظر إلى مقدرة الصورة النفسية في القـرآن الكريم على الموعظة والاعتبار، كونها أداة من الأدوات التي أودعها من الأسـرار الجلـيلة مـا يكون بها أشبه بآيات الكون الدالة على عظيم قدرة الخالق العظيم.

هـذه الحقيقة السامقة تجعلنا نقف أمام هذا البيان المعجز وقفة تأمل وتدبر وإجـلال، بالإضـافة إلى الشعور بالعجز. عن استخراج كل ما تتضمنه الصورة النفسية من دقائق لا يعلمها إلا الله.

---

(١) خصائص التشبيه في سورة البقرة، د. إبراهيم علي حسن داود، ص ٣٣.

(٢) علم النفس القرآني والتهذيب الوجداني، د. عبد العلي الجسماني، ص ١١.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٠.

غير أنا لن نألو جهداً في استجلاء شيءٍ من ملامح الموعظة والاعتبار في الصور النفسية.

ففـــي الآيـــات التي مثلنا بها في الفصل الأول، نجد عناية الصورة النفسية بالمحـــاور الـــثلاثة، عناية لا تخفى على ذي لب، إذ وضع أمام كلٍّ أنموذج منها، صـــفاته وحـــدد سماته، وأبرز خفايا نفسه، هذا بالإضافة إلى أنه أضاف إلى هذا الكشف، الثواب والعقاب، والمأوى والعاقبة.

وهـــذا الاعتـــناء وهـــذا الاهتمام بشؤون النفس البشرية، يفسر لنا وظيفة الصـــورة النفســـية فـــي التركيز على مهمة سامقة في الوعظ والإرشاد، وبالتالي الاصـــلاح والهدايـــة ومعالجـــة أمـــراض القلوب، وملابسات النفوس وتوجساتها وتهويشـــاتها. وهذا قريب جداً إلى ما يسمى في عصرنا الحديث بـــ "علم النفس". فهـــو في موطن التبشير للأنموذج المؤمن، وفي موطن الإنذار والتهديد للأنموذج الكافـــر والتحذير للأنموذج المنافق، "يخلص إلى كشف القيم، ورصد المثل العليا التـــي تخلـــق أنموذجـــاً رائعـــاً للإنسان الصالح، أو يرمي إلى تحديد الطريق في التخلص من العناصر الفاسدة أو يدمج بينهما في التحذير من الفئات المترددة التي لا تقرُّ مبدأ ولا تنتهج هدفاً".(١)

ففـــيما يخـــص المؤمنين، نجد الصورة النفسية قد جسدت الوجود الإيماني، وثّمنـــت الكـــيان العقـــدي، وأبـــرزت الجانب الخُلقي، وأحيت المعراج الروحي، وأظهرت المظهر الخارجي، وكشفت السجوف عن الجزاء المرتقب.

كـــل ذلك بكلمات موجزة، معبرة أجمل تعبير، مصورة أبدع تصوير، تبثُّ البشـــارة فـــي القلـــوب فتثبـــتها، وتبعث الراحة والطمأنينة والسكينة في الأنفس "فتهشـــها"(٢)، وذلـــك لأن هذه الصور وهذه الأوصاف، ما تأتت إلا لكون المؤمن على المحجَّةِ البيضاء.

إنّ الصـــورة النفســـية، أبرزت الملامح العامة والخاصة للأنموذج المؤمن وثبتت القواعد والأصول المستقيمة.

---

(١) الصورة الفنية في المثل القرآني، د. محمد حسن علي الصغير، ص ٢٩٢.

(٢) هش: لان وارتاح، هشن فؤاده أي خفيفاً إلى الخير، راجع لسان العرب، ابن منظور، باب "هشش".

إنّ المتأمل في الصورة النفسية للأنموذج المؤمن، من خلال الآيات السالفة الذكـــر، يدرك تماماً أنها قائمة في أكثر الأحيان على أساس نفسيٍّ منبعث من البعد العقـــدي والوجـــود الإيمانـــي، المتغلغل في كيان ذواتهم، فلا غرو أن تصورهم بالشـــفافية وصـــدق النية وجدية العمل، ووحدة التوجه، والتحرر العقلي الشعوري والـــتحرر الأخلاقـــي ... الـــخ، فكأن حالتهم النفسية وانفعالاتهم الوجدانية بمدّها وجزرها تتجه إلى طاعة الله أنّى وجدت.

إنّ الحديث عن السرائر والوجدانات والشعور، وما يصاحبها من انفعالات، هـــو كشـــف الـــنقاب عن النفس والنية، وهي -الصورة النفسية- إذ تكشف ذلك تحـــرص على البيان والإيضاح لكلّ ما يختلج تلك النفوس، فهم "يبتغون فضل الله ويحرصـــون على رضوانه، متجردين عن عوامل الطمع ودوافع الأثرة ومظاهر الـــرياء، فكل همهم الاتصال الروحي، والتفرغ المجرد، والاندماج الكلي مع تلك العوالم المضيئة الفذة، فلا شغل إلا في ذات الله، ولا أمل إلا عند الله، ولا رضوان إلا في رحاب الله"(١)

لقـــد أبدعـــت الريشة المعجزة في إبراز الملامح الخفية بصورة المحسوس المرئي، فنقاء النفس وصفاؤها، متصل بنقاء الشكل وصفائه، ونور الباطن يشرق علـــى مُحيا الوجه، فلا غرو أن تجد لهم سيمة ظاهرة، سيمة الخشوع والخضوع والتواضع والتواد والرحمة والحنان إلى غير ذلك مما ألمعنا إليه في الفصل الأول.

إن فـــي الصـــورة النفســـية وظيفة وعظ وإرشاد واعتبار وتذكير، تتضح معالمها وأبعادها في استخلاص العبر، لما تتضمنه من فوائد كثيرة.

وتـــرجمة ذلـــك تـــتجلى بمـــا نستشفه من الآيات التي صورت نفسية هذا الأنموذج.

ففي معرض الآيات الأولى من سورة البقرة (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(٤)أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٥))(٣-٥)

---

(١) الصورة الفنية في المثل القرآني، د. محمد حسن علي الصغير، ص ٢٩٤.

غايــة ســامقة في الحث على التنافس، من خلال التبصرة بمراتب هذا الأنموذج، للترغيب في طلب ما طلبوا، والتحفيز لتقديم ما قدّموا، وترك ما تركوا.

وأمّا آيات الأنفال (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(٢)الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ(٤))(٢-٤)، بما فيها من مذاق خاص، وبما تتضمنه من الصور النفسية التي تشــي بالارتعاشات الوجدانية التي تنتاب قلب المؤمن، والارتقاءات في الدرجات الإيمانــية، وصــورة التوكل الحقة ...الخ، كذلك جاءت لتحقق غايتها في الهداية والإصلاح والموعظة والإرشاد كل ذلك لإبراز الأنموذج الأكمل، وخلق الأنموذج الأمثل.

وكذلــك الحال في آيات سورة المؤمنين(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(١)الَّذِينَ هُمْ فِي صَــلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ(٢)وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ(٣)وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِيــنَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(٥)إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَــيْرُ مَلُومِينَ(٦)فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ(٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ(٨) قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(١)الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ(٢)وَالَّذِينَ هُــمْ عَــنِ اللَّغْــوِ مُعْرِضُونَ(٣)وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ(٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(٥)إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(٦)فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِــكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ(٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ(٨) وَالَّذِينَ هُــمْ عَلَــى صَــلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ(٩)) (١-٩)، فإنها توجه الانتباه إلى صورة هذا الأنمــوذج كونــه مرآة ومثلاً يقتدى به، لذا فهي بمثابة الدعوة للهداية والإصلاح والإرشــاد والتوجــيه والعظة والاعتبار، ألا ترى ما في هذه الصورة من شفافية ونقــاء؟ إنّ التأكيد على فلاح وفوز هذا الأنموذج الذي هذه صفاته وصورته، هو بحــدِ ذاتــه إيحــاءٌ إلى النفوس التي ترغب الفلاح، بأن تقتدي بمن كانت صورة نفوســهم هكــذا، حتى حُقّ لهم هذه الصفات، التي تعشقها النفس وتطمئن لها، إنها صــورة توحــي وتدعو للتعلق والتخلق والتطلع لهذا الأنموذج لما فيها من صفاءٍ ونقاءٍ وترغيب.

وهكذا نجد الغاية نفسها في بقية الآيات، التي أماطت اللثام عن حقيقة نفسية المؤمن، وصورتها بتلك الصورة الصافية النقية الشفافة.

إن المؤمن باستجلائه لتلك الصور وتمثلها، توقظ عنده بواعث اليقين، بأنه على الطريق القويم، فيتمثل ثمار غرسه، ويستحضر جزاء عمله، وذلك لأنها -أي الصور النفسية، بمثابة البيان والتوضيح لحقيقة الواقع، وبمثابة الثناء لما هم عليه.

فلا غرو -إذن- أن تدفع المؤمن إلى الاستزادة من فعل الخير والعمل الصالح، والتنافس في تحصيله.

ومما هو جدير بالذكر حريٌّ بالانتباه أن الصورة بالإضافة إلى ما ذكر نجدها تعالج كثيراً من القضايا التي تعترض النفس المؤمنة، فتخرجها عن جادة الصواب.

فمن ذلك مثلاً قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(٢٦٤)وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٢٦٥)) [1]

ففي الآيات تبرز صورتان: صورة من ينفق ماله رياءً وسمعة وظهوراً بين الناس، وصورة من ينفق ماله ابتغاء مرضاة الله.

والسياق واضح الدلالة على تربية النفوس وصقلها، لذا فهو يريد أن يكون الإنفاق ذا طابع سلوكي في حياة الفرد والمجتمع، ليعود خيره على الجميع، فمن هنا نجده يراعي الآداب في بذل الإنفاق، حتى يعود على الجميع بما يهذب النفوس ويصقلها ويجعلها مثلاً يُحتذى به.

---

(١) البقرة، ٢٦٤، ٢٦٥.

وهكذا نجده يبرز صورتين للنفس: صورة للنفس المؤذية تتقنع الصدقة تُبذل رياءً، والرياءُ "إظهار جميل الفعل رغبةً في حمد الناس لا في ثواب الله تعالى"[1] وهو "ستارٌ رقيق يخفي القلب الغليظ"[2]، وفي المقابل صورة للنفس العامرة بالإيمان الندية ببشاشتها.

وهو إذ يبرز صورتين للنفس متقابلتين، يدعو ويوحي بيسر لطيف اختيار الطريق الأفضل والأنسب.

وأما فيما يخص الآيات التي صورت نفسية الكفار، فقد قامت بوظيفة سامقة في الوعظ والإرشاد والاعتبار، من خلال الاستدلالات العقلية والتأثيرات النفسية، التي تبثها في ثنايا الصورة.

لقد تبوأت مكانة عالية في إبراز الحق، واستئصال شأفة الباطل، وإقامة الدليل الواضح، والحجة الدامغة والبرهان القاطع.

إن الصورة النفسية، قد هتكت حاجز نفوسهم، فأظهرت خواء قلوبهم من أي جذوة إيمانية، وأغلقت منافذ الحق أن تصل إلى قلوبهم ... الخ، وبالتالي أبرزت نفوسهم في ضلال وانقطاع عن الحياة، بالإضافة إلى إعلان مصيرهم المحتوم: عذاب أليم، جهنم وبئس المصير، هم وما يعبدون من دون الله، تبكيتا لأنفسهم وإهانة لعقولهم.

هذا التصوير بما فيه من روعة وجمال، يشتمل على الترهيب والتحذير، بالإضافة إلى البيان والتوضيح والتأكيد على ثبات الحق وزلزلة الباطل، كل ذلك محمول على الموعظة والاعتبار؛ "فهو عندما يدعو إلى الإفادة من سابق الأحداث والاعتبار بسالف التجارب، والتأمل بواقع الدلائل، إنما يريد أن يفيد منها الإنسان في حاضره ومستقبله، ويحمل نفس المرء على العظة والاستجابة، محاولاً السيطرة على النوازع الداخلية والتأكيد على التجاوب وخوض العمق النفسي، ناظراً في

---

(١) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص ٢٥١.

(٢) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص ٣٦.

ذلـك باعتـباره وسائل لتهيئة المناخ المناسب الفعال لبث تعاليمه وقِيمَه وتأصيل مفاهيمه ومثله، والقيام بوظيفته ومهمته".[1]

إن الصـورة النفسـية تـؤدي غرضاً وظيفياً واضحاً، باعتبارها أداة لها طريقـتها في الموعظة والإرشاد، فهي عندما تعرض المعاني النفسية والانفعالات الوجدانـية بشتى أنواعها، بصيغ مبدعة، لتثير في المتلقي التأمل والتفكير، يَدْفَعَانه إلى اتخاذ موقف مناسب للوصول إلى قبلة الخير وسدرة الصواب.

لذلـك عندما نقرأ آيات البقرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُـنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُـمْ عَـذَابٌ عَظِـيمٌ(٧)﴾(٦، ٧)، ونستجلي معانيها، ونشهد صورة نفوس هذا الأنمـوذج، ندرك قيمة النعمة التي أنعمها الله علينا بالإيمان. فنشكره ونحمده على ذلك ونطلب منه المزيد والثبات.

وعندما يصور الحق -سبحانه وتعالى- نفسية "الكفار"[2] بأنها معتمة مطبقة مغلقـة تائهـة في لجج الضياع وسديم التخلف، لا نور فيها فيهتدي ولا ريّ فيها فيروي، ولا خير فيها، ولا قبول لها، هي -أي الصورة النفسية-، في الوقت ذاته تـؤدي غرضاً في الموعظة والإرشاد، فباستجلائها يتجه المتلقي إلى إعمال العقل وتحريك الفكر في ربط النتائج بالأسباب فيدرك عندها الأسباب التي أدت للوصول إلى هذه النتيجة، وهذا يعني أنّ الصورة النفسية، قد أدت غرضاً واضحاً في شحذ خيال المتلقي، وأيقظت ذهنه، فكانت عند ذلك بمثابة الواعظ والمرشد.

وأما الآيات ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(١٩٦)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَـنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(١٩٧)﴾(١٩٦، ١٩٧) من سورة آل عمران، فقد كانت علاجاً لمـا يـثار في أنفس المؤمنين من تساؤلات حول ما يتنعم به الكفرة في هذه الدار الفانية، واصفة هذا النعيم، بأنه متاع قليل، كاشفة النقاب عن المآل، لذلك فهي تعظ المؤمنيـن بـأن لا يغتروا بما عليه أهل الكفر من نعيم زائل، فإنما هو قليل إذا ما قيس بنعيم الآخرة الدائم.

---

(١) الصورة الفنية في المثل القرآني، د. محمد حسن علي الصغير، ص ٣٧٧.

(٢) ارجع الآية (٤٠) من سورة النور.

وعـــندما صور الحق -سبحانه- أنفس الكفار بالجهل والغفلة وعدم إدراك البديهـــي المـــنظور، وأنهم عناكب ضئيلة واهنة، فهو يريد بذلك لفت الانتباه إلى ضـــعف المعـــتمد، ليحقق بذلك سمّواً بالنفس الإنسانية نحو المعتمد الآمن والركن الركين، عبادة الله الواحد الأحد، عبادة تقوم على رسالة استخلاف الله الإنسان في هـــذه الأرض، (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ(٤١))[1].

وكذلك الأمر في قوله: (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ(١٤))[2] عندما صوّر نفوسهم في توجهها إلى ما لا فائدة في دعوته، هو فـــي حدّ ذاته، دعوة للاستدلال من وراء ذلك بأن الأغيار، في الحقيقة تفقد المنفعة ولا تملكها.

ومـــع مـــا في الصورة من سخرية وتهكم في دعوة من لا يفقه، هي كذلك إرشـــاد وتوجـــيه وتهذيب وصقل للنفوس البشرية لكي تتوجه إلى خالق الوجود، والابتعاد عن الاتجاهات المادية المحض، لأنها من دون إيمان تعود وبالاً وحسرة على صاحبها في الدنيا حيث لا ناصر وفي الآخرة حيث لا راحم.

ولا نعـــود إلـــى اســـتعراض كلّ الصّور التي مثلنا بها في الفصل الأول، فحســـبنا هـــذا القدر مع عدم شكنا بأن كلّ الصور تؤدي هذا الغرض بكل براعة وإتقان، توجيها وإرشاداً وسلوكاً ووعظاً وموعظةً وإصلاحاً.

وأنتقل مباشرة إلى الوظيفة فيما يخص الصورة النفسية للمنافقين.

وأول ملحـــظ يمكنـــنا استجلاءه، من خلال الآيات التي مثلنا بها في الفصل الأول، إن القرآن قد اتجه إلى تفصيل صفات المنافقين النفسية والجسدية، وأفاض فـــي ذلك، متجاوزاً القضايا الكلية إلى تفصيلات فرعية دقيقة، فمن وصف مطول إلـــى ضخامة في التمثيل، إلى هولٍ في التصوير، هذا بالإضافة إلى كثرة الآيات التي تتحدث عن هذا الأنموذج.

---

(١)العنكبوت ،٤١.

(٢)الرعد ،١٤.

ولعلّ ذلك يعود إلى ضخامة وخطورة الدور الذي يقوم به هذا الأنموذج في إيذاء الجماعة المسلمة؛ فهم قوم يظهرون الإيمان والولاء لدولة الإسلام، ويبطنون الكفر والعداء لها.

إنّ هذا الأنموذج يحتاج إلى مزيد من الإيضاح والكشف، لأنه لا يدرك إلا بضرب من المراقبة والفحص والتحليل والتعليل، لذلك جاءت عناية القرآن الكريم بإبراز سماتهم وخصائصهم؛ فصورت حالهم ورسمت ما في نفوسهم، بأسلوب عجيب، أسلوب تجسيم الصور الشعورية والأحوال النفسية، وكأنها مشهد محسوس.

ومما هو جدير بالانتباه، حريّ بالتأمل، أنّ الله – سبحانه – لم يكشف أسماء المنافقين لرسول الله ﷺ وإنما جاء بتفصيل أعراض النفاق، ومن ثم ترك الأمر لفراسة وفطنة الرسول ﷺ تكشفهم من خلال ما وضّحَهُ، ورسمه وأبرزه من صفاتهم وأحوالهم وسقطات لسانهم، "وسقطات الألسنة إحدى العلامات الكثيرة التي ذكرها القرآن لكشف المنافقين"[1] لأن في ذلك من المنفعة ما لا يُحصى، وذلك أن النفاق لا ينحصر في زمن، فإبراز معالمه وتوضيح علاماته وتبيانُ أعراضه، أنفع للمسلمين من تعريف رسول الله ﷺ بأسمائهم، وهذا دليل واضح على ما يُطلب من المسلمين من اليقظة والفطنة والفراسة. فإذا ما أتقنوا ذلك وأحسنوه من خلال تدبّرهم لآي الذكر الحكيم، كشفوا كل منافق مخادع وأخذوا حذرهم منه ومن مخططاته وكيْده.

وعلى أية حال فإنّ الصورة النفسية في آيات النفاق لم تخلُ من العظة والاعتبار، كيف لا؟ والقرآن كلُّه كتاب دعوة، ووسيلة للإصلاح والإرشاد والعظة والاعتبار ... الخ، لذلك لا أغالي إن قلت أنها –أي الصورة النفسية– في القرآن الكريم تتنوع تنوعاً عجيباً تبعاً لاختلاف طبائع النفوس، إذ لكل طبيعة نفسية أسلوب يناسبها ولكلٍّ منها ألفاظ تلائمها، وهي وإن كانت كذلك، هي في الوقت

---

(١) أسلوب الوعيد في القرآن الكريم، د. عبد الحليم حفني، ص ٢٢٣.

ذاته حُقَنُ خيرٍ لكلِّ نفسٍ، لتقويم السلوك الإنساني، لما فيه الضمان القوي للمجتمع من الفساد والانحراف.

وعلى ضوء ما ألمعنا، يمكننا القول: بأنّ الصورة النفسية في القرآن الكريم، ركنٌ من أركان الدعوة الإسلامية، لما لها من تأثير نفسي، وهيمنة على الوجدان، وإثارة للعواطف، وسيطرة على العقل والفكر، فهي خير حافز إلى توجيه السلوك وجهة واحدة إلى تثبيت الأخلاق، وإخلاص الأعمال لله وطلب مرضاته، واتباع المنهج الذي نزله على رسول الله ﷺ في كل سلوك، فردي، واجتماعي وفكري وتربوي وسياسي واقتصادي ...الخ.

وعوْد على بدءٍ: فإن الصورة النفسية في القرآن الكريم، تضع حدّاً واضحاً وجلياً في حمل النفس على اتخاذ موقف مناسب إزاء المنافقين والنفاق، فهي بما توحي به تحقق واقعاً عملياً، يتجلى في التسامي إلى المُثل السامقة والرفيعة، والتحلي بالخلق الكريم، والتخلي عن كلِّ ما من شأنه أن يكون من أعمالهم أو شبهه.

ففي سورة البقرة(وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ(٨)يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(٩)فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمْ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ(١٠)وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ(١١)أَلَا إِنَّهُمْ هُمْ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ(١٢)وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمْ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ(١٣)وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ(١٤)اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ(١٧)صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ(١٨)أَوْ كَصَيِّبٍ مِنْ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنْ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ(١٩)يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ

مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢٠)) (٨-٢٠)، رسمت الريشة المعجزة صورة نفسية المنافقين وأعمالهم، بما يضع حدّاً واضحاً بين الإيمان والنفاق، وبما يدفع المؤمن أن ينأى عن جميع صور النفاق وأشكاله، وهذا واضح من خلال التدرج في "تصوير حال أولئك المنافقين من صورة إلى أخرى أشد منها وقعاً، وأكثر تأثيراً في النفوس، وتحريكاً للأحاسيس، إذ قدم صورة النار أولاً، ثم صورة الصيّب بعد ذلك. وليس من شك في أن لهذا التدرج، علاقة بالغرض الديني الذي سيق إليه التشبيهان، وهو الازراء بحال المنافقين، وتوهين أعمالهم"(١)

قال الزمخشري: "فإن قلت: فأي التمثيلين أبلغ، قلت: الثاني لأنه أدلُّ على فرط الحيرة وشدة الأمر وفظاعته، ولذلك أُخر، وهم يتدرجون في نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ".(٢)

وفي هذا التصوير، "صورة متكاملة عن هذا النوع من البشر، ترى فيها هذا النوع من البشر مكشوفاً في كلِّ أمره، ظاهره وباطنه، عقيدته وسلوكه، وعلاقته وأهدافه".(٣)

وهذا التصوير بما فيه من روعة وجمال، ودقة وإتقان، تنبعث منه ضربات نفسيةٌ أليمةٌ موجعةٌ، ولكي ندرك ذلك، دعنا نتفيأ ظلال الآيات.

ففي قوله تعالى : (... وما هم بمؤمنين) فيه نفي الإيمان مع ادعائهم أنهم مؤمنون (قالوا :آمنا) بمعنى أن الآية أظهرت قولهم بألسنتهم، ونفت حقيقتهُ في قلوبهم ووجدانهم، وهذا يوضح حقيقة الشذوذ المتأصل في نفوسهم، إذ ليس شيئاً عارضاً، فيستشفى منه. وإنما هو مرضٌ عضال في سويداء القلب، "في قلوبهم

---

(١) الطبيعة في القرآن الكريم، د. كاصد ياسر الزيدي، ص ٣٨٧.

(٢) الكشاف، الزمخشري، ج١، ص ٨٨.

(٣) أسلوب الوعيد في القرآن الكريم، د. عبد الحليم الحفني، ص ٢٢٥.

مـــرض فـــزادهم الله مرضـــا"، ولـــيس هذا فحسب، بل من طبيعتهم حبُّ الفساد والإفساد، وكراهية الصلاح والاستقامة "ألا إنهم هم المفسدون".

ومن أعجب ما تراه، حين إنعام النظر في الآيات، أنك ترى الضربة الأليمة تأتـــي من النافذة التي يَصبُّوا آمالهم فيها، ومن الزاوية التي تسيطر على أمانيهم، وهي حب الكسب وتحقيق المنفعة العاجلة، فقوله: "فما ربحت تجارتهم" فيه كفاية لمـــن أراد الكفاية، إذ لم يحققوا الكسب الذي يؤملون، وذلك لأنهم سلكوا الطريق الفاشل فيها، لقد باعوا الدنيا بالآخرة فما ربحت تجارتهم.

وفـــي مقام آخر (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّـــكَ لَرَسُـــولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ(١)اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَـــبِيلِ اللَّـــهِ إِنَّهُـــمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِـــمْ فَهُـــمْ لَا يَفْقَهُونَ(٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَـــأَنَّهُمْ خُشُـــبٌ مُسَنَّدَةٌ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤)وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْـــتَكْبِرُونَ(٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَاسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ(٧) يَقُولُونَ لَئِـــنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِـــنَّ الْمُنَافِقِيـــنَ لَـــا يَعْلَمُونَ(٨))[1] لا يفتأ هذا الأنموذج من ترديد ما يشهد لهم بالإســـلام، "فيحلفون الأيمان كلما انكشف أمرهم أو عرف عنهم كيد أو نقلت عنهم مقالـــة ســـوء في المسلمين، كانوا يحلفون ليتقوا ما يترتب على افتضاح أمر من أمورهـــم فـــيجعلون أيْمانهم وقاية وجُنّة يحتمون وراءها، ليواصلوا كيدهم ودسهم وإغواءهـــم للمخدوعين فيهم، "فصدوا عن سبيل الله" صدوا أنفسهم وصدوا غيرهم مســـتعينين بتلك الأيْمان الكاذبة."إنهم ساء ما كانوا يعملون": وهل أسوأ من الكذب

---

(١) المنافقون ،١-٨.

للخـــداع والتضليل؟!"[1]، وهم إلى جانب ما هم عليه من سوء النية والطوية، ومن الخوف الهلع، أصحاب جسوم تعجب الناظرين "تعجبك أجسامهم" ... إلا أنه كانت حقـيقة هـــذه الأجرام الجميلة أنها خاوية من الخير ولا ترجى ليوم كريهة وسداد ثغر".[2]

يقـــول الزمخشري: "شُبِّهوا في استنادهم بالخشب المسندة إلى الحائط، لأن الخشب إذا انتفع به كان في سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع، وما دام مـستروكاً فارغـساً غير منتفع به أسند إلى الحائط، فشبهوا به في عدم الانتفاع".[3] ونضـــيف إلى قول الزمخشري، أن لفظ "مسندة" فيها معنى جليل لطيف ما يوحي بعـــدم المقـــدرة علـــى الثبات والاستقرار ذاتياً، بل لا بُدّ من وجود وسيلة إسنادية تساعد على الوقوف، أو الاستقرار والثبات، وهذا ليس تمحُّلاً، فالاستدلال بالألفاظ ومطابقـــتها لمقتضى الحال، فيه فائدة عظيمة للوصول إلى سدرة الصواب، وكما قيل: "سياسة القرينة في العربية شريعة من شرائع الألفاظ".

ومـــن هنا ينساب المعنى المقصود، إذ هو جانب من الموعظة والاعتبار، وبخاصـــة للفئة المؤمنة، بأن يكونوا يقظين فطنين من هذا الأنموذج الذي لا يقوى على شيءٍ دون الاتكاء على سندٍ (جدار) يقيهم السقوط والافتضاح، وهذا يعني أن الصـــورة، توحـــي بشتى الإيحاءات، أن لا يكون المؤمن ظهيراً للقوم المنافقين، فيطـــيل من أمد بقائهم، وهذا ضربٌ من ضروب حمل المؤمن على أن ينأئ عن المنافقيـــن وأعمالهم وأن لا يغترَّ بهم وبما يقولونه بألسنتهم، فهم في حقيقة الواقع، ضـــعفاء واهنيـــن إذا فقدوا الاستعانة بغيرهم، وبخاصة أغبياء المسلمين، والسذج منهم، والقرآن إذ يعرض هذه الصور ويكشف النقاب عن مكنونات النفوس، يعقب عليها بقوله تعالى: "والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ... إنهم ساء ما كانوا يعملون ... فهم لا يفقهون ... فاحذرهم قاتلهم الله أنّى يؤفكون ... وهم مستكبرون ... إن الله لا يهـــدي القـــوم الفاسقين ... ولكن المنافقين لا يفقهون ... ولكن المنافقين لا

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج٢٨، ص ٣٥٧٤.

(٢) مخاصمة المنافقين في القرآن، د. محمد أبو زيد، ص ١١٢.

(٣) الكشاف، الزمخشري، ج٤، ص ٥٢٨.

يعلمـــون"، إشـــعاراً وإيحـــاءً بأن الصورة إنما سيقت للموعظة والاعتبار والتفكر والإرشـــاد والإصـــلاح والـــتأمل والاتعاظ، لا مجرد الإثارة الوجدانية الخالية من الغرض النبيل الهادف والتربية الموجهة.

وفـــي مقـــام آخر (لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَـــيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُـــمْ لَكَـــاذِبُونَ(٤٢)عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِيـــنَ(٤٣) لَـــا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِـــهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ(٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَـــتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ(٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِـــنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ(٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُـــمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِيـــنَ(٤٧) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ(٤٨) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَـــنَّمَ لَمُحِـــيطَةٌ بِالْكَافِرِيـــنَ(٤٩)إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَهُمْ فَرِحُونَ(٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(٥١) قُلْ هَلْ تَتَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُـــمْ مُتَرَبِّصُـــونَ(٥٢) قُـــلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ(٥٣)وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّـــلَاةَ إِلَّـــا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ(٥٤) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَـــزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ(٥٥) وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَـــوْمٌ يَفْـــرَقُونَ(٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧) وَمِـــنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُـــمْ يَسْـــخَطُونَ(٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَـــيُؤْتِينَا اللَّـــهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ(٥٩)إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ

وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٦٠) وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْوَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١)يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢)أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ(٦٣) يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ(٦٤)وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ(٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ(٦٦)الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمْ الْفَاسِقُونَ(٦٧))(التوبة: ٤٢-٦٧)، وغيرها من الآيات، نلحظ إسهاباً وتفصيلاً لا يخفى على ذي بصيرة، في كشف صفات المنافقين وأحوال نفوسهم، فمن ذلك مثلاً: "مرض القلب، والشك، وظن السوء، واللدد في الخصومة والعزة بالإثم، والخداع، والرياء، والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، والغدر وعدم الوفاء، والهزء بالدين، والذبذبة والإعراض عن الهدى، والستكامل عن أداء العبادات، والإفساد بين المؤمنين، ورمي الفتن، وتفجر الحقد الدفين، والتربص بالمؤمنين، وإشاعة الفتنة والكذب والخوف، وكره المسلمين، والتواصي بترك الجهاد، وتلمس الأعذار في النكوص عن الجهاد وتركه، والإفساد في الأرض، وموالاة الكافرين، والتحاكم إلى الطاغوت ..." [1]، كل ذلك محمول على العظة والاعتبار، والهداية والصلاح، والتوجيه والإرشاد، بمعنى أن هذا الإسهاب والتفصيل والكشف، ما تأتى لمجرد السرد، ولكنه جاء لغاية سامقة في

(١) ينظر في: مخاصمة المنافقين في القرآن، د. محمد أبو زيد أبو زيد، عناوين فصول الكتاب.

العظـــة والاعتـــبار، حتى لا يسمح للباطل أن يجول ويصول في ساحة الحياة أو يسرح في مرعى الخير، أو يسبح في الماء العذب.

ومـــن جهـــة أخرى، فإنها دعوةٌ -بصريح الدلالة- للأمة المؤمنة، كي لا تـــنزلق في حمأة الكفر ومستنقعات النفاق الرذيلة؛ فما أكثرها! وما أكثر أغوارها المظلمـــة! وما أكثر "فخوخها"[1]، التي تخطف بريقها عيون الضعفاء، فتوقعهم في شراكها، إنّ "البعد عن أخلاق المنافقين من عظيم الحكمة التي أمر الله بها".[2]

فـــلا غـــرو أن يكـــون هـــذا الإســـهاب وهذا التفصيل، والكشف والبيان، والتوضـــيح، عناية من القرآن الكريم، إذ هو بمثابة الواعظ المرشد، إرواءً لحاجة الفـــئة المؤمنة، كي تتقي هذا الخطر الجرثومي اللئيم، وكما قيل: "درهم وقاية خير من قنطار علاج".

وإذا مـــا انتقلـــنا إلـــى القصـــص القرآني، واستقرأنا ما تنطوي عليه تلك القصـــص مـــن الوظـــائف، نجد أنها من أوسع الوسائل على تحقيق هدف القرآن الأصيل، ولست أدعي بأني أول من يصدح بحكم ذلك، فقد تحدث كثير من علمائنا القدامى والمحدثين عن وظيفة القصص القرآني لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها، شأنها فـــي ذلـــك شـــأن الصـــور القرآنية الأخرى، بل نجد القرآن نفسه يبين الغاية من القصص، يقول عزّ من قائل: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَـــاءَكَ فِـــي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ(١٢٠)﴾[3]، وفي هذا الصدد يقـــول الدكـــتور صلاح الدين عبد التواب: "من النماذج الأدبية الرفيعة التي تجلت بوضـــوح في القرآن الكريم، تلك الآيات الواردة فيه على سبيل القصص، جاءت لتســـهم بدورهـــا فـــيما يهدف إليه القرآن من التوجيه والإرشاد إلى خيْري الدنيا والآخـــرة، بمـــا فيها من العبرة والعظة، وليكون فيها -أيضاً- خير معين ومواسٍ

---

(١) "فخـــوخ": جمـــع فخ، وهي المصيدة التي يصاد بها وتجمع على فخوخ وفخاخ، ينظر: لسان العرب، ابن منظور، باب: "فخخ".

(٢) مخاصمة المنافقين في القرآن، محمد أبو زيد أبو زيد ، ص ١٥٣.

(٣) هود، ١٢٠.

للرسـول العظيم، الذي يجابه قوى البغي والشرك، فيثبت ويصبر كما ثبت وصبر أولو العزم من الرسل".[1]

ويـتابع قولـه: "والقصـص القرآني ليس عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطـريقة عرضـه، وإدارة حوادثه، كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة، التي ترمـي إلـى أداء غرض فني مجرد؛ بل كانت القصة القرآنية وسيلة من وسائل القـرآن الكثيرة إلى تحقيق هدفه الأصيل والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء، والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوى وتثبيتها".[2]

ولكـي يكون ما ألمعنا إليه أكثر وضوحاً وجلاءً، دعنا نتفيأ ظلال الصورة النفسية في القصص القرآني وما تؤديه من وظيفة في الموعظة والاعتبار.

ففـي قصـة بنـي إسرائيل كثيرٌ من المشاهد التي جاءت تكشف "النفسية اليهودية المعقدة واستعصائها على التربية والتقويم والاستفادة"[3]، ويكفي أن نشير هـنا إلى بعضها، ملتمسين ما تؤدي الصورة من أغراض في الموعظة والإرشاد والاعتبار. ففي قوله تعالى: (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَـى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨)إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٣٩))[4]

كثيراً من الإرشادات التي تتمحور حول قضية قمة القيم، إنها قضية الإيمان القضية العقدية، لقد أبرزت لنا الصورة جانباً عقدياً متمثلاً بالانحراف الذي طبعت بـه بنو إسرائيل، وكأن المعجزات التي أيّد الله بها موسى –عليه السلام– لم تؤثر كثيراً في نزع رواسب الوثنية التي ألفوها طوال عهدهم مع فرعون والمصريين.

إن هـذه الصـورة –إذا أخـذت بسياقها– مزيجاً من الانفعالات الإيجابية والسـلبية، فهـي إذ تكشف جهل بني إسرائيل وتسجل طبيعتهم الملتوية المنحرفة، لـتؤكد جانـباً وعظـياً في الصبر على تربية النفوس وإصلاحها، فموسى –عليه

---

(١) الصورة الأدبية في القرآن الكريم، د. صلاح الدين عبد التواب، ص ٩٠، ٩١.

(٢) المرجع نفسه، ص ٩١.

(٣) الشخصية اليهودية من خلال القرآن، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص ٧٧.

(٤) الأعراف، ١٣٨، ١٣٩.

السلام- في مواجهته لهذه النفوس الملتوية المنحرفة، يسجل مثلاً يحتذى في التحمل والصبر على الانتكاسات النفسية التي فُوجيءَ بها في هذه النفوس، لذا فهي دعوة أو زاد لأصحاب الدعوة في احتذاء حذو الرسل الكرام وأولي العزم منهم خاصة في التحمل والصبر المضاعفين على تقويم اعوجاج الأنفس المنحرفة والطبائع الملتوية.

وفي لوحة ومشهد آخر (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ(٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ(٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ(٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ(٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ(٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ(٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(٧٤))[1]. مشهد قصة ذبح البقرة، والمتدبر والمتأمل لـيرى في هذا المشهد أسلوباً بديعاً يأخذ بمجامع القلوب، ويحرك الوجدان، ويقرع أبواب الفكر للنظر والاعتبار.

فمن جانب نجد الصورة تبكيت وتهوين لشأن هذا الحيوان الذي عبدوه وعظموه وأحبوه، وهو في الوقت ذاته تبكيت وتهوين وإزدراء لجهالتهم في توجههم لعبادة هذا الحيوان الذي لا يصلح إلا للحرث والعمل والذبح ...

ومن جانب آخر "فيه كذلك إشارة إلى أن بعث الله تعالى الحياة في الميت لا يتوقف على سبب من الأسباب التي تدركها عقولهم، وإنما أمر الله إذا أراد ذلك أن

---

(١) البقرة ، ٦٧-٧٤.

يقــول له كن فيكون، فيحدث بدون سبب ما، أو يجيء عقب أمر لا يتصور العقل أن يكون سبباً له، وذلك أن العقل لا يتصور أن ضرب جثة الميت بجزء من جثة ميت آخر يمكن أن يكون سبباً لبعث الحياة فيه"[1]

والصــورة كذلــك توحــي بكثير من المواعظ التي لا حصر لها فمن ذلك أيضاً: "أن القصاص من الجناة يحفظ على الناس حياتهم بدون إلتواء في العبارة أو تعمــيه ....، وتفســير الإحــياء، بردّ الحياة إلى الموتى، يؤدي إلى غرس الإيمان بصــحة البعــث في القلوب لأن المعنى عليه، كهذا الإحياء العجيب –وهو إحياء القتــيل بضــربه بــبعض البقرة ليخبر عن قاتله– يحيي الله الموتى بأن يبثهم من قبورهم يوم القيامة ليحاسبهم على أعمالهم، فيكون إثباتاً للبعث عن طريق المشاهدة حتى لا ينكره منكر".[2]

ونضــيف إلى ما سبق ذكره أن سرعة الامتثال لأمر الداعي إلى الله أولى مــن التلكؤ والتماطل، وشدة الفحص في تحقيق المسألة، وعلى الداعي إلى الله أن يصبر إزاء التساؤلات التي يثيرها المدعو إلى الإيمان.

وفــي لوحة أخرى ومشهد آخر (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّــهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنْ الْعَالَمِينَ (٢٠)يَــاقَوْمِ ادْخُلُــوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِــبُوا خَاسِــرِينَ(٢١) قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ(٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنْ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّــهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمْ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْــتُمْ مُؤْمِنِينَ(٢٣)قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَــا إِنَّــا هَاهُنَا قَاعِدُونَ(٢٤))[3]. مشهد الجبن والنكوص على الأعقاب ونقض الميــثاق، إنــه مشــهد النكوص عن دخول الأرض المقدسة وفي هذا المشهد من

---

(١) الشــعب الملعــون فــي القرآن، د. محمود بن الشريف، ص ٤٨، وهو نقله عن كتاب الأسفار المقدسة للدكتور عبد الواحد وافي، ص ٣٧.

(٢) بنو إسرائيل في القرآن والسنة، د. محمد سيد طنطاوي، ج٢، ص ١٨٢.

(٣) المائدة ،٢٠-٢٤.

الـــدروس والعـــبر ما يهز القلوب هزاً عنيفاً ولعل المسلمين الأوائل قد وعوا هذا الـــدرس واتعظوا منه، إذ "واجهوا الشدّة وهم قلة أمام نفير قريش في غزوة بدر، وقـــالوا لنبيهم ﷺ :إذن لا نقول لك يا رسول الله ما قاله بنو إسرائيل لنبيهم "فأذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون" لكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا فإننا معكما مقاتلون..." [1]، بمعنى أن الواجب يجب تنفيذه وعدم التمحل في تنفيذه وأدائه.

هـــذا وفـــي قصة بني إسرائيل –كما وردت في القرآن الكريم– الكثير من المواعـــظ والعـــبر والإرشـــادات والحكم، ولعله سبب من الأسباب التي تذكر في تفصيل هذه القصة، وعرضها بهذا الأسلوب المسهب المفصل، لذا فإننا نكتفي بما قدمـــنا مـــن هذه الإرشادات السريعة لنعود إلى قصة أخرى من القصص القرآني واستجلاء ما بها من مواعظ وعبر وحكمة واعتبار.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج٦، ص ٨٧١.

قصة عرش بلقيس:

قال تعالى:(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠)لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ(٢١)فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ(٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ(٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ(٢٤) يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ(٢٥)اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ(٢٦) قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ(٢٧)اذْهَب بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨)قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ(٢٩)إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ(٣٠)أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ(٣١) قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ(٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ(٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ(٣٤)وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ(٣٥)فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ(٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ(٣٧)قَالَ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ(٣٨)قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ(٣٩)قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ(٤٠)قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ(٤١)فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ(٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ(٤٣)قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا

قَـالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٤٤))[١].

إن المتأمل لهذه القصة، وما تبرزه من الصور النفسية، يدرك دقة التعبير، إذ فـيها مـن العبرة والعظة، لأصحاب العقول الراجحة، والأفكار السليمة ما فيه الكفايـة لمـن أراد الكفايـة، وكل ذلك بسبب ما اشتملت عليه من الحكم والآداب والإرشادات والمواعظ ... الخ.

فشخصية سليمان –عليه السلام– كما تبرزها الآيات شخصية شاكرة لأنعم الله، لقـد أعطى الله سليمان –عليه السلام– نعمة النبوة والملك والعلم النافع "ومع هذه النبوة والملك والعلم تأتي العبودية الصادقة لتتوج هذا كله"[٢]، فقابل تلك النعم بالشكر لله، واستعملها في ما يرضي الله، وفي سبيل ما كُلِّف به، إذ "أقام سليمان – عليـه السلام– دولته على الإيمان بالله –تعالى– وعلى العلم النافع والقوة العادلة. أمـا الإيمـان بـالله –تعالى– وإخلاص العبادة له –سبحانه– فهو كائن له –عليه السـلام– بمقتضى نبوته التي اختاره الله لها، وبمقتضى دعوته غيره إلى وحدانية الله –عـز وجل– ... وأما العلم النافع، فيكفي أن القصة الكريمة قد افتتحت بقوله تعـالى:(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِـبَادِهِ الْمُؤْمِنِيـنَ(١٥)) [النمل، ١٥]، واشتملت على قوله سبحانه(وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَـالَ يَاأَيُّهَـا الـنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ(١٦)) [النمل، ١٦]، وعلى قوله عز وجل: (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِـتَابِ أَنَـا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِـيٌّ كَـرِيمٌ(٤٠)) [الـنمل، ٤٠] وأما القوة فنراها في قوله تعالى: (ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَـنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ(٣٧)) [النمل، ٣٧]"[٣].

---

(١) النمل ٢٠٠-٤٤.

(2) قصص الرحمن في ظلال القرآن، أحمد فائز الحمصي، ج٤، ص ٧٧.

(3) القصة في القرآن الكريم، د. محمد سيد طنطاوي، ص ٦٧٧، ٦٧٨.

والصور المتتالية في الآيات ترمز بكل معاني الاستجلاء لهذا النبي الكريم المتصل بالقوة المطلقة، فهو "يمثل الحاكم اليقظ المتنبه لأحوال رعيته حيث يعرف شؤنها الكبيرة والصغيرة، ويعرف الحاضر من أفرادها والغائب حتى ولو كان الغائب طيْراً بين آلاف الخلائق الذين هم تحت قيادته ... ثم هو يمثل الحاكم الحازم العادل، الذي يحاسب المهمل، ويتوعد المقصر، ويعاقب من استحق العقاب، وفي الوقت نفسه يقبل عذر المعتذر متى اعتذر عذراً مشروعاً ومقنعاً ... بل يضع قوله موضع التحقيق والاختبار"[1]، فالصور تستدعي حالات من الإيمان عميقة، وذلك ما يستغرق وعي المتدبر المتأمل، وطالب الهدى إذ ينطبع في ذهنه وكيانه وقلبه، أنها صُوَرٌ تقدم أنموذجاً رائعاً مثالياً للحاكم الحازم العادل الشاكر لأنعم الله، الذي يستعمل ما وُهِبَ من نعمة وقوة وعلم فيما يُرضي الله، وفي سبيل الدعوة إليه.

وفي شخصية الهدهد، ما يكشف لنا جانباً من الموعظة عظيم، وهو أن الجندي مهما كان صغيراً، فإنّ صِغره لا يمنعه من قول رأيه، وعلى القائد أو الحاكم أن يستمع له؛ فما في النهر لا تجده في البحر، ورُبَّ مفضول عنده من العلم والحكمة ما لا يوجد عند الفاضل.

وفي شخصية الملكة، ما يبرز لنا كثيرٌ من الأمور التي تخص الراعي والرعية، فها هي ذي ملكة سبأ تستشير ذوي الرأي والمشورة من قومها في ما حدث وفي هذا دليل قاطع على صحة المشاورة، وصدق الله حين قال:(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ(١٥٩)) [2].

نكتفي بهذا القدر اليسير، لننتقل إلى قصة أخرى، لنستجلي من خلالها ما تؤديه من مواعظ وعبر وإرشادات.

---

(١)القصة في القرآن الكريم، د. محمد سيد طنطاوي، ص ٦٧٨، ٦٧٩.

(٢) آل عمران، ١٥٩.

قصة ابنيْ آدم –عليه السلام–

قال تعالى :(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ(٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ(٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ(٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ(٣١))[1].

ما من شك أن قصة ابني آدم –عليه السلام– فيها من العظات والعبر ما ينتفع به العقلاء الأخيار، الذين يروا سبيل الرشد والحق فيتبعوه، وما ينذر ويحذّر الأشرار الذين إنْ يروْا سبيل الرشد والحق لا يتبعوه، بل يتخذوا سبيل الغي، فساء ما يصنعُون.

وعلى أية حال فقد كرّست القصة طاقتها في التشنيع بجريمة القتل، ومع ذلك فقد كشفت النقاب عن نفسية كلٍّ من ابنيْ آدم –عليه السلام– ولم تذكر اسمهما، بل جاءا غُفلاً بدون أسماء، ولعلّ هذا بحدّ ذاته، تذكير وتنبيه إلى التركيز على من تنطبق عليهم القصة، إذ العبرة في القصص القرآني تأتي على الشيوع، أي تأتي على من تنطبق عليهم القصة، وفي إغفال الأسماء إيحاءٌ بالتركيز على الحادثة. ولا يعني هذا أن القصة القرآنية تخرج عن الحقيقة المطلقة، بل هي وقائع حقيقية. يقول الدكتور صلاح الخالدي: "إن ابنيْ آدم يمثلان أنموذجاً مختلفاً من نماذج البشر: نموذج المؤمن الهادئ المسالم الوادع، ونموذج الشرير الحاقد الظالم، وهذان النموذجان لا تخلو منهما البشرية في أي زمان ومكان"[2].

وعلى أية حال فإن القصة باستجلائها تحتوي على كثير من المضامين الوعظية والإرشادية، التي تأخذ بلباب العقول؛ فمن ذلك –مثلاً– أن الله –سبحانه–

---

(١)المائدة ،٢٧-٣١.

(٢) مع قصص السابقين في القرآن، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، ج٣، ص ١١٧.

لا يتقبل إلا من المتقين، وعلى كل إنسان "إذا كان الحق مع أخيه، فعلى المؤمن أن يتنازل له وأن لا يسمح بأي شيء أن يؤثر على علاقته مع أخيه ومحبته له"[1].

"إن رذيلة الحسد إذا تمكنت من النفس أوردتها المهالك وزينت لها البغي والطغيان والإثم والعدوان"[2]، ومن المواعظ التي يمكن استجلاءها -أيضاً- أن النصح واجب، والتذكير بمراعاة الأخوة والعمل بتقوى الله من واجب الأخيار.

وأخيراً دعنا نتفيأ ظلال قصة يوسف -عليه السلام- كما أوردتها الآيات القرآنية، فهي قصة زاخرة "بالحكم والأحكام وبالآداب والأخلاق، وبالمحاورات والمجادلات، وبأحوال النفوس البشرية في حبها وبغضها، وعسرها ويسرها وخيرها وشرها، وعطائها ومنعها، وسرها وعلانيتها، ورضاها وغضبها، وحزنها وسرورها، ... ومن الدروس النافعة، والعظات البليغة التي يجب أن نتعلمها من هذه القصة"[3]، ولعلّ هذا ما دعا كثيراً من العلماء الأجلاء أن يتناولوها بالدرس والتحليل، أذكر منهم الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السّعدي - جزاه الله خيراً- في كتابه "قصص الأنبياء"، إذ فيه الكفاية لمن أراد الكفاية، وهو يقول: "أنّ هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها، لما فيها من أنواع التنقلات من حال إلى حال، من محنة إلى محنة، ومن محنة إلى مِنْحة، ومن ذل إلى عز، ومن أمن إلى خوف وبالعكس، ومن ملك إلى رق وبالعكس، ومن فرقة وشتات إلى انضمام وائتلاف وبالعكس، ومن سرور إلى حزن وبالعكس، ومن رخاء وجدب وبالعكس، ومن ضيق إلى سعة وبالعكس ومن وصول إلى عواقب حميدة، فتبارك من قصها وجعلها عبرة لأولي الألباب"[4].

ويضيف قائلاً: الحذر من الخلوة بالنساء الأجنبيات، وخصوصاً اللاتي يُخشى منهن الفتنة، والحذر أيضاً من المحبة التي يخشى ضررها، فإن امرأة

---

(١)مع قصص السابقين في القرآن، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، ج٣، ص ١١٨.

(٢) القصة في القرآن الكريم، د. محمد سيد طنطاوي، ص ٥١.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣١٤، ٣١٥

(٤) قصص الأنبياء، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ص ١٧٩.

العزيز جرى منها ما جرى بسبب توحدها بيوسف وحبها الشديد له، الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة ثم كذبت عليه فسجن ذلك السجن الطويل"[1].

ويقـول الدكتور محمد سيد طنطاوي في هذا الصدد: "أن الحسد رذيلة إذا سـيطرت على النفوس، أفقدتها رشدها وصوابها، وتقديرها الصحيح للأمور، وإن الإنسـان الحقـود هو الذي يتمنى زوال النعمة عن غيره ... وبسبب الحسد، فعلَ إخوةُ يوسف معه ما فعلوا من كراهية، ومن إلقاء به في غيابة الجب، دون رحمة أو شفقة منهم له. والحسد حقيقة واقعة، وأثرها لا شك فيه"[2].

وعلـى أيـة حال، إذا رجعنا إلى الآيات التي مثلنا بها في الفصل الأول(إِذْ قَـالَ يُوسُـفُ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَـاجِدِينَ(٤)قَالَ يَابُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَـانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ(٥) وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَـيْكَ وَعَلَـى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٦) لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ(٧) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَـبُّ إِلَـى أَبِيـنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(٨)اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْـرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ(٩) قَالَ قَائِلٌ مِـنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) قَـالُوا يَاأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ(١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَـهُ الذِّئْـبُ وَأَنْـتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ(١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِـرُونَ (١٤)فَلَمَّـا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَـنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(١٥) وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ(١٦) قَالُوا يَاأَبَانَـا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ(١٧)وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ(١٨) وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ

---

(١)قصص الأنبياء، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، ص ١٨٥.

(٢) القصة في القرآن الكريم، د. محمد سيد طنطاوي، ص ٣١٥.

فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَابُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ(١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ(٢٠) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(٢٢) وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ(٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ(٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٢٧)فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ(٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ(٢٩) وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(٣٠)فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ(٣٢))[1] نجد أنها تقف على عدة وجوه مهمة في الموعظة والاعتبار، وصدق الله العظيم حين قال: (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ(٧)) [2].

فما تكشفه الآيات من انفعالات وجدانية، وما تبديه في رسم الشخصيات، يخفي من ورائه غرضاً دينياً كما ألمعنا، لذلك عندما يقول الحق حكاية عن أخوة

---

(١) يوسف ،٤٠-٣٢.

(2) يوسف، ٧.

يوسف –عليه السلام–: (إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ(٩) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ(١٠)) [١]، يوحي بشتى الإيحاءات أن أخوة يوسف –عليه السلام– وصلوا إلى حُكمٍ نهائي وهو أن يوسف أحبُّ إلى أبيهم منهم لذلك صعَّدوا الأمر حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه من التخلص من يوسف ليخلُ لهم وجه أبيهم.

والأمر الذي يجب معرفته الآن هو كيف ينبغي أن يُفسَّرَ هذا الحب بهذه الطريقة وهم كما قالوا: "ونحن عصبة" بمعنى أنهم "وصلوا إلى نتيجة غير منطقية"[٢]، وهي قولهم: "إنّ أبانا لفي ضلال مبين"، وهذا القول هو نتيجةٌ لا تنسجم مع قولهم: "ونحن عصبة"، وهذا يعني أنهم لو قدّروا حُبَّ أبيهم ليوسف وأخيه كونهم أطفالاً صغاراً لما آخذوا الأب على ذلك، وذلك لأن الظروف قد حتمت عليه أن يحبهما هذا الحب، ويقدّم لهما هذا الحنان، بذلك نرى أن التقدير مع عدم التمحيص يوصل إلى نتائج خاطئة.

وأما قولهم: "وتكونوا من بعده قوماً صالحين" فيه تقدير خاطئٌ أيضاً، إذ كيف يُقدّرون الصلاح في ما هو آت، وما هو آتٍ منوط بتقادير الغيب، لذلك يجب على الإنسان أن يكون صالحاً في كل وقت وفي كل مكان، لا أن يَقْدُمَ على عملٍ قبيح ليقول: سأكون من بعده صالحاً.

هذه بعض الدروس والعظات التي يمكن أن نتعلمها من هذه القصة على كثرتها إلا أنني اكتفي بما قدّمت ملتمساً البركة في ذلك.

---

(١) يوسف، ٨–١٠.

(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، ج١١، ص ٦٨٦٨.

سبر أغوار النفس:

لـــيس ثمـــة شك، في أن حجب الغيب كثيرة، منها حجاب الماضي، ومنها حجاب المستقبل ومنها حجاب المكان، ومنها حجاب النفس، وإن ما يعنينا من هذا كلـــه هو النفس البشرية وذلك لأن النفس البشرية عليها يدور اهتمام القرآن الكريم وعنايته في أكثر الأحيان.

إن النفس البشرية صندوق مغلق أُحكم إقفاله، ولغز حير جهابذة العلماء، من فلاسفة ومفكرين وعلماء نفس وغيرهم، منذ أقدم العصور، وفي العصر الحديث، بذلـــت جهود كبيرة لسبر أغوار النفس، والوصول إلى كنه أسرارها، فأنشئت دور علـــم متخصصـــة في هذا المضار، وتجرد كثير من العلماء لهذا الغرض، إلا أن الأمـــر بقي في أكثره تنظيرا لا يستند إلى قاعدة ثابتة، بل يؤكد العلماء أنفسهم أن الجهل في أسرار النفس أكثر من العلم بها.

يقـــول العالم الكبير الكسيس كاريل في كتابه(الإنسان ذلك المجهول):"وفي الحـــق لقد بذل الجنس البشري مجهودا جبارا لكي يعرف نفسه، ولكن بالرغم من أننا نملك كنزا من الملاحظة التي كدسها العلماء والفلاسفة والشعراء وكبار العلماء الروحانييـــن فـــي جمـــيع الأزمـــان، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفســـنا.إنـــنا لا نفهـــم الإنســـان ككـــل ... إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة،وحـــتى هذه التي ابتدعتها وسائلنا، فكل واحد منها مكون من موكب أشباح تســـير في وسطها حقيقة مجهولة... وواقع الأمر أن جهلنا مطبق... وأن معرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائية في الغالب".(١).

وعبثا أن تحاول الدراسات النفسية إيجاد مفتاح لمغاليق النفس البشرية دون الاعـــتماد علـــى الكـــتاب الأعظم، وذلك- كما أشرت- أن النفس البشرية تحاط بسجوف كثيرة لا يعلمها إلا خالقها. ولا يعني أنني أقلل من الدراسات النفسية التي قـــام بهـــا كثيرٌ من العلماء، ولكن الذي أود أن أقوله: أن علماء النفس"قد حصروا أنفســـهم فـــي دراسة الظواهر النفسية التي يمكن فقط ملاحظتها ودراستها دراسة

---

(١) نقلاً عن دراسات في النفس الإنسانية، محمد قطب، ص١٦.

موضـــوعية، وتجنـــبوا البحـــث في كثير من الظواهر النفسية الهامة التي يصعب إخضاعها للملاحظة أو البحث التجريبي، وبذلك أبعدوا النفس ذاتها من دراساتهم، لأن الـــنفس شـــئ لا يمكن ملاحظته وقصروا دراساتهم على السلوك الذي يمكن ملاحظته وقياسه. وقد نادى بعضهم بتغيير اسم"علم النفس" وتسميته "علم السلوك" لان علـــم الـــنفس الحديث يدرس السلوك ولا يدرس النفس... بل إنهم جعلوا من دراستهم لسلوك الحيوان المدخل الطبيعي لفهم سلوك الإنسان، مغفلين في كثير من الأحـــيان الاخـــتلاف الكبـــير في طبيعة تركيب الإنسان الذي يتميز عن الحيوان بالروح"[1].

ومـــن ههنا ينساق بنا الكلام إلى القول: أن القران الكريم بحديثه عن النفس تصـــريحا وتلميحا، إنما هو حديث خالق النفس العالم بخباياها وخفاياها، كيف لا ؟ والله سبحانه أقرب إلى الإنسان من خلجات صدره ومضمرات نفسه.

قال الله تعالى(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ(١٦)) [2].

وقـــال:(وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(١٣)أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ(١٤)) [3].

لقـــد توغـــل القرآن الكريم في أعماق النفس البشرية، ليشق السجوف عن مضـــمرات الـــنفوس، إيجابية واستلابية، وهو بذلك، يضفي على الرسالة القرآنية إعجـــازا تبليغيا ، يهدف من خلاله إيصال رسالته إلى البشرية بكل جلاء ووضوح إذ القـــران لم يخاطب نوعا خاصا من البشر ولم يكن لزمن معين من الأزمنة بل جاء لكل البشرية ولكل زمان ومكان.

ويقيني إن المتأمل المتدبر في هذا كله، لا بد أن يصل إلى سدرة الصواب، ويجنـــي خيرا كثيرا، يتجول في عوالم تلك النفس من خلال ما توحيه تلك الآيات القرآنية، وبخاصة تلك الصور النفسية التي رسمتها الريشة المعجزة ، فلا غرو –

---

(١) القران وعلم النفس، محمد عثمان نجاتي، ص ٢٠٠

(٢) ق ،١٦.

(٣) الملك، ١٣، ١٤

إذن – إن قلنا أن الصورة النفسية وظيفة جلية لسبر أغوار النفس البشرية وكشف خـــباياها ، لقد عمدت الصورة النفسية في القران الكريم ، إلى تقديم نماذج بشرية، لتســـلط الضـــوء من خلالها على سلوكيات قارة،"لتدل بسلوكياتها على طرح القيم الإيمانـــية وهـــدم الانحرافات الخلقية، وحفل القران بالكثير من هذه النماذج التي تحـــدث بعظاتهـــا شـــحنات إيمانية، وتربي النفس وتهديها ... وقد كانت عمليات التوصـــيف تعمـــد إلـــى التدعيم أو التشويه طبقا لنوعية السلوك الذي تملكه هذه النماذج، وقد قدمت هذه النماذج مجسمة لتراها العين ويستوعبها الفكر، وتنفذ إليها البصيرة، وتستقر في الأذهان "[1].

والصـــورة النفســـية إذ تعمد لسبر أغوار النفس، وتكشف خباياها، وتهتك حجبها وتجسمها للعيان، هي في الوقت ذاته تخاطب النفس مخاطبة العالم بمداخلها التأثرية فالله سبحانه خلق النفس وسواها وخاطبها بما يثير نجواها ويمس أوتارها، ويحرك مكنوناتها.

ولكـــي نقرب الصورة، دعنا نتفيأ ظلال الآيات التي مرت معنا في الفصل الأول ونتمعن من خلالها هذه النفس وما يكمن فيها من انفعالات وجدانية، إيجابية كانت أو استلابية:

ففـــي الأنموذج المؤمن، يجسم الصورة "في سلوكات بشرية معينة تتخذ من حـــياة الأنبياء أو الأولياء الصالحين مسرحا لها، ولعله أبلغ في النفس والسلوك أن يكون الحديث عن ظواهر الصلاح من خلال سلوكات بشرية معروفة، كأنبياء الله وعـــباده الاتقـــياء، لأن المقصـــود فيه رسم القدوة الصالحة، والقدوة لا تكون إلا بملامح بشرية معروفة في سيرها على الخط الإلهي. ولكن هذا لم يمنع القرآن من الحديث عن المظاهر النفسية الإيجابية من خلال ذكر صفات عامة المؤمنين".[2].

لقـــد حفل القرآن الكريم في سبر أغوار النفس المؤمنة، وصورها تصويرا دقيقا من لدن حكيم عليم ببواطن النفوس.

---

(١)فنون التبليغ القرآني ونظرياته، د. إحسان عسكر، ص ٢١٦ .

(٢)الإعجاز القرآني أسلوبا ومضمونا، د. شلتاغ عبود، ص١٥٢.

ففـي قولـه تعـالى(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُـنفِقُونَ(٣)وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٥)) [١]. فيه توغل في أعماق هـذه الـنفس، ووصف داخلي لما يعتمل فيها، فهي نفس ممتلئة بالإيمان، مستنيرة بـنور الله، ثاقبة البصيرة، أدركت معنى الغيب فآمنت به، وأدركت أن الرزق من عند الله، فتطهرت من الشح والبخل، لذا فهي مستقيمة في أداء الواجب، ليس فيها اعوجاج، بل أداء فيه تَوَجُّهٌ لله، خالص من كل شوب.

وعلـى أيـة حـال، فإن المتتبع للآيات القرآنية الكريمة التي أوردناها في الفصـل الأول يدرك تماما إنها أماطت اللثام عن حقيقة نفسية المؤمنين، ورسمت شخصياتهم وأبرزت خصائصهم،، وطبعتهم بمياسم يعرفون بها.

خلاصـة القـول: أننا إذا جمعنا هذه الصفات، "فإننا نستطيع أن نتمثل في ذهنـنا صورة دقيقة نابضة بالحياة للإنسان المؤمن الذي يؤمن بربه إيمانا صادقا، ويعـبده حق عبادته، ويتمسك في حياته الخاصة وحياته الأسرية والاجتماعية في عملـه المهني بالمثل الإنسانية العليا وبالأخلاق الفاضلة الكريمة، ويكون في عمله مـثال الإخـلاص والأمانـة والاتقان. إن صورة الإنسان المؤمن الذي يصفه لنا القـرآن إنمـا هـي صورة الإنسان الكامل في هذه الحياة ، في حدود الإمكانات البشـرية، والتي يريد الله –سبحانه وتعالى– منا أن نسعى بكل جهدنا إلى تحقيقها في أنفسنا"[٢].

ويقينـي أن العقـيدة الواضحة الجلية المكينة في نفس المؤمن هي الأساس الـذي يجعله في حالة توازن روحي وبدني، وهي التي تمنحه السكينة والطمأنينة والـثقة واليقين، وتفتح له مغاليق الوجود، وتشق له سجوف حقائق الكون فتخرجه مـن ظلمة الكون إلى نور المكون، وهو إذ يتماهى بتلك الحقيقة ينعتق من الحيْرة والقلق والشك والارتياب.

---

(١)البقرة، ٣-٥.

(٢)القرآن وعلم النفس، د. محمد عثمان نجاتي، ص٢١٦.

والصـــورة النفســـية إذ تـــبرز هذه الخصائص، وهذه السمات، وتجسمها شاخصـــة حـــية للعيان، هي في الوقت ذاته، ذات طابع تأثيري في نفسية المتلقي، فهي بصورها الحية الفعالة، وصياغتها الرائعة الجميلة، تشحذ خياله وتوقظ ذهنه، وتحرك فكره، وعندها تسبر أغوار نفسه، فتثير فيها انفعالات وجدانية، وملكات لا يعلم حقيقتها إلا الذي برأها.

وهـــي حقيقة انتبه إليها أبو سليمان الخطابي (ت ٣٨٨هـــ) حين قال: "قلت فـــي إعجـــاز القـــرآن وجها آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحـــادهم، وذلـــك صـــنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوماً، ولا منثوراً، إذا قرع السمع خلص إلى القلب من اللذة والحلاوة في الحـــال، ومن الروعة والمهابة في آخر ما يخلص منه إليه، تستبشر منه النفوس، وتنشـــرح له الصـــدور حتى إذا أخذت حظها منه، عادت مرتاعة، قد عراها من الوجيـــب والقلق،ويغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها"[1].

أما عوائد هذا الانفعال وهذه الإثارة فترد إلى الصورة النفسية بإماطة اللثام عن حقيقة تلك النفوس بسبر أغوارها وإبرازها لتكون إشارة نفسية ومؤشراً داخلياً لاستقبالها.

وكمـــا استطاعت الصورة النفسية ان تسبر أغوار النفس المؤمنة، وتخرج كوامـــنها، وتجعلهـــا أنموذجـــاً يحتذى، فيما تتصف به من توازن روحي وبدني، وتوسمها بميسم الشخصية السوية... الخ، هي -كذلك- استطاعت أن تسبر أغوار الـــنفس الكافـــرة، وتـــتغلغل داخلهـــا، لتكشف بذلك عن صورة واقعها الداخلي، وإحساساتها ومشاعرها التي تختلج في جنباتها.

ولـــو أنعمنا النظر في الآيات التي أوردناها في الفصل الأول – فيما يخص الكافريـــن – لوجدنـــا أن الصـــورة النفسية التي ترسمها الآيات القرآنية لشخصية الكافريـــن، صورة فقدان التوازن في شخصياتهم، "فهم في صراع نفسي، وتمزق

---

(١)النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، الخطابي، ص٧٠.

داخلـــي، بين المنع والردع والتسيب والانحلال ... فهم بين فراغ قاتل مرير وبين حرمان مفزع رهيب"[1].

لا شك أن الصورة النفسية التي ترسمها الريشة المعجزة للأنموذج الكافر، صورة توحي بشتى الإيحاءات، ما عليه نفسية الكفار من الصراع النفسي المرير، وهـذه الصـــورة واضحة جلية في قوله تعالى:(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُـونَ وَرَجُلًـــا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُون (٢٩)) [2].

فالصـــورة ترمـــز بكل معاني الاستجلاء لجو التشاكس في توزيع الآراء، "فأنت تلمح هنا رجلاً يتخاصم فيه الشركاء، ويتشاجرون بشدة، فهم بين أخذ ورد، ودفـــع ومـــنع، وهو بينهم موزع الآراء، مزعزع الاستقرار، لا يدري ما يصنع، فلكل فيه رأي، ولكل عليه تكليف، وهو في طحناء مظلمة، لا ينقذه عقل، ولا يشفع له تفكير، فكل يريد إفراده بالخدمة وإيثاره بالمنفعة، وهو يعد ولا يفي ولكنه يعجز عن الإتمام فتتقاذفه الأهواء في دوامة صراع نفسي مرير"[3].

والآيـــة واضـــحة في سبر أغوار تلك النفس وإخراج مكنوناتها وما يعتلج داخلهـــا، وإذا دققـــنا الـــنظر نلمـــح ذلك؛ فالصورة توحي بالقلق النفسي، ودوامة الـــتأرجح والـــتزعزع، وعدم الاستقرار، وهذا بحد ذاته إرهاق فكري وعصبي، وتمـــزق نفسي، والتمزق كما هو متواضع عليه "حالة ازدواج في الكيان النفسي، ينعكس معها انشطار الوعي الشخصي بفضل ضغوط خارجية أو تناقضات داخلية" [4]..

وعلـــى ذلك، فإن الدلالة التي تؤكدها الصورة النفسية لهذا الأنموذج – من خـــلال هـــذه الآيـــة – هي الحيْرة المرعبة، والتوزع القلبي أو التشظي النفسي، والانعـــزال الداخلي القاتل ... الخ، فإذا كانت الصورة النفسية المستنبطة من هذه

---

(١)الصورة الفنية في المثل القرآني، د. محمد علي الصغير، ص٣٨٥.

(٢)الزمر، ٢٩.

(٣)الصورة الفنية في المثل القرآني، د. محمد علي الصغير، ص٣١٢.

(٤)قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، د. عبدالسلام المسدي، ص١٧.

الآيــة تحمــل كل هذا وغيره، فإنها -كذلك- تسبر أغوار نفس المتلقي، فتثير فيه انفعــالات وجدانــية تحمله على العظة والاستجابة محاولة السيطرة على النوازع الداخلــية، مثــيرة في ذلك رغبة التجاوب، كل ذلك من خلال سبر العمق النفسي وتصــويره تصــويراً يثير في النفس هزة من خلال تهيئة الجو المناسب الفعال، لتأثــيل الهــدف المــرجو، والمــثل العلــيا، وبث الفكرة المتمثلة بالتعاليم والقيم والأغراض الدينية.

وقريب من هذا المعنى قول عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـــ) في وظيفة التمثيل: "واعلم... أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو أبرزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلــوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفاً، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً" (١).

وهكذا فإن الصورة النفسية قد سخرت لسبر أغوار النفس البشرية، ومراقبة حركاتها وانفعالاتها الداخلية، وإثارتها إلى أقصى حد ممكن.

فلــو أنعمــنا الــنظر في قوله تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَــبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ(٣٩)) (٢)، لوجدنا أن في دلالة لفظ (الظمآن) ما يشير إلى الحاجة، فالظمأ حاجة شديدة إلى الماء، قال الزجاج: هو "أشد العطش"(٣)، واللفظ بحد ذاتها صــورة حســية إلا أنهــا "بما تقترن به"(٤) صورة لحالة نفسية، لكنها منتزعة من الواقع المعاش، بمعنى أنها قد سبرت أغوار تلك النفس وسجلت واقعها، وحاجتها. ولــو أنعمــنا النظر في قوله تعالى: (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّــبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ

---

(١)أسرار البلاغة، عبدالقاهر الجرجاني، ص١٠١.

(٢)النور، ٣٩.

(٣)لسان العرب، ابن منظور، مادة "ظمأ".

(٤)يقول علماء البلاغة: "سياسة القرينة في العربية شريعة من شرائع الألفاظ".

الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(١٧٦)) [١]، لوجدنا -أيضا- أنها توقيعات نفسية، إذ الأصل في الفطرة الإنسانية هو عقيدة التوحيد، فإذا ما انحرفت عن سواء الفطرة؛ فهي بمثابة من يهبط من الكيان الإنساني- أحسن تقويم-إلى الكيان الممسوخ بصورة حيوان- أسفل سافلين- إنه الكلب الذي إن تطارده يلهث أو تتركه يلهث، إن الصورة تسجل واقعا نفسيا في اللهاث وراء الدنيا وملذاتها وزينتها. ومثل ذلك قوله تعالى: وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ(١٧١) [٢].

يقول الدكتور محمد حسين علي الصغير: "اعتبرهم كالبهائم التي يسوقها الراعي قسرا إلى مرعاها، فهي تزدجر بزجره، وتأتمر بأمره، فاقدة للحس والإدراك، وهم كذلك في تقليدهم لآبائهم في الكفر، وفي إصرارهم على العناد، دون رويـة وبصيرة..، لهم آذان لا يسمعون بها نداء الحق، وألسن خرساء لا تنطق بخير، وقلوب غلف لا تستجيب لما يحييها وأعين لا يبصرون بها من الغواية، فكأنهم لا يقرعون بحجة، ولا ينبسون ببنت شفة، ولا يبصرون دلائل الله في الآفاق، فهم وإن وهبوا اللسان والآذان والعيون، ولكنهم عادوا بمنزلة من لا عقل له إذ لم يستفيدوا من هذه الجوارح وقد عادت معطلة لا تؤدي وظيفتها،وبذلك أغلقوا على أنفسهم نوافذ التعقل والتدبر حتى عادوا مقلدين فيما يجب فيه التمحيص والبحث للاقتناع بما يعتقدون على بصيرة نافذة وادراك مميز. ولكنهم لجُّوا في طغيانهم واعتمدوا التضليل في تصرفهم، ومغالطة النفس في مجابهة النبي صلى الله عليه وسلم"[٣].

وعلى أية حال، فإن النص بعيد الغور في أعماق تلك الأنفس، وتسجيل واقعها، فباستغراقها، تستوحي صور البهائم التي يسوقها الراعي قسرا، وهذا تعريض وتهكم من طبيعة نفوس هذا الأنموذج بصورة البهائم، لذا فالصورة

---

(١)الأعراف، ص١٧٦.

(٢)البقرة، ١٧١.

(٣)الصورة الفنية في المثل القرآني، د. محمد علي الصغير، ص٣٠٠.

بسبرها أغوار تلك النفوس أبرزت حقيقتها وسجلت واقعها بما يثير الدهشة والاستغراب لما هي عليه من التقليد الأعمى.

أكتفي بهذه الومضة من الآيات، لأنتقل مباشرة إلى ومضة أخرى من الآيات التي ذكرت المنافقين ورسمت لهم أخرى صورة نفسية.

ولعل الصورة النفسية فيما يخص المنافقين، من أقوى أدوات التصوير القرآني في مجال التبيين المعتمد على الوصف الداخلي لنفسيتهم، بالإضافة إلى رسم الصورة المظهرية لهم، وذلك -في اعتقادي- ان هذا الأنموذج ليس في شفافية الأنموذج المؤمن، ولا في قتامة الأنموذج الكافر، ولكنه أنموذج متذبذب، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، يظهر خلاف ما يبطن، يظهر الإسلام ويخفي الكفر، يظهر الولاء لدولة الإسلام، ويكن لها العداء والحقد واللؤم.

لا شك أننا إذا تأملنا شواهد ذلك في القرآن الكريم، استبان لنا أنها تنطوي على كثير من الدقائق واللطائف والعجائب التي تشد الانتباه، وتسترعي التأمل والتفكير، وتحمل على الإصغاء، وتثير في النفس أسمى آيات الإعجاب.

وسوف نمضي قليلا في هدي من الآيات الكريمة التي توضح لنا المراد، نتوقف عند قوله تعالى: (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ(١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ(١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ (٢٠))[1].

هذه الآيات باستجلائها تنير لنا بعض الجوانب النفسية لهذا الأنموذج من الناس "إذ هي عبارة عن تصوير لحالات نفسية، وانفعالات شعورية إرادية وغير إرادية يقاسيها المنافقون بعد إخفاقهم في تجربة الإيمان الواقعية، وميلهم بالطبع إلى نوازع المحافظة في التسمية بالإسلام دون المسمى، وما يكتنف هذا الجو المتردد

---

(١)البقرة، ١٧-٢٠.

ما يعتلج في دواخلها بكل ما تستطيع من تملق في القول وتشدق في الكلام وتحذلق في الفصاحة وجهد في الأيمان الكاذبة إلا أن الآيات جاءت لتشق السجوف وتكشف ما يتهامس في دخائلها بكل وضوح وجلاء.

كما بينت الصورة ضعف قلوبهم وخواء أنفسهم، وعدم قدرتهم على فعل شيء دون الاعتماد على غيرهم، وهذا واضح من خلال قوله: "كأنهم خشب مسندة"، إذ دلالة هذا التعبير- بالإضافة إلى ما ألمعنا إليه في الفصل الأول – إنها لا تقوى على شيء دون أن تسند إلى قوة –جدار- تقيها السقوط.

والحقيقة أنّ في الآيات صوراً كثيرة، استطاعت أن تسبر أغوار تلك الأنفس وتبين ما هي عليه حقيقتها، وفوق ذلك كله استطاعت أن تسبر أغوار نفس المتلقي مسيطرة على انفعالاته الشعورية إزاء هذه الصور الداخلية.

أكتفي بهذا العرض لأنتقل مباشرة إلى القصص القرآني محاولا استجلاء ما في الصور النفسية من وظيفة داخلية في سبر أغوارها وكشفها وكأنها أمر مشاهد للنظارة.

ففي قصة بني إسرائيل استطاعت الصورة النفسية أن تسبر أغوار تلك الأنفس لتكشف بذلك عن حقيقتها وفساد فطرتها، لقد أبرزت الصورة النفسية بني إسرائيل نماذج منحرفة ملتوية متخلخلة كالطينة المائعة.

التي كلما شكلتها ماعت وسالت، ورحم الله سيد قطب إذ يقول في هذا الصدد: "وطبيعة بني إسرائيل متخلخلة العزيمة، ضعيفة الروح، ما تكاد تهتدي حتى تضل، وما تكاد ترتفع حتى تنحط وما تكاد تمشي في الطريق المستقيم حتى تسرتكس وتنتكس"[1].. وفي قصة البقرة استطاعت الصورة النفسية أن تسرح في طبيعة نفوس بني إسرائيل فقد كشفت للنظارة عدم صدقهم بما جاء به نبيهم، فبدا تلكؤهم في الاستجابة لنبيهم موسى وما يطلب منهم ، وفي قصة دخول الأرض المقدسة، بينت الصورة النفسية حقيقة طبيعتهم في أنانية مطلقة بلا حدود

---

(١)في ظلال القرآن، سيد قطب، ج٣، ص١٣٦٦.

وتغطـــرس بلا قيود، إذ طلبوا من موسى –عليه السلام– أن لا يدخلوها إلا بخلو أهلها منها... إلى غير ذلك من الصور الكثيرة التي بينت حقيقة وطبيعة نفوسهم.

وفـــي قصـــة "عرش بلقيس" تجلى البعد النفسي واضحا في شخوص تلك القصة، إذ استطاعت الصورة النفاذ إلى مدخلات تلك النفوس وإبراز ما يكمن في جنباتها.

ففـــي شخصية سليمان –عليه السلام – اليقظة وحسن القيام والتكفل بأمور الرعية بالإضافة إلى الجمع بين شخصية الملك الحازم والنبي العادل وفي شخصية الملكـــة الذكاء والدهاء، وكره الحرب والتدمير، والتعويض عن ذلك بسلاح الحيلة والملاينة قبل انضاء سلاح القوة والخشونة.

هكـــذا اســـتطاعت الصـــورة النفسية أن تسبر أغوار شخوص هذه القصة وإبرازها للنظارة.

وفي قصة ابني آدم –عليه السلام– استطاعت الصورة النفسية – كذلك– أن تســـبر أغوار نفسية ذيْنك الأنموذجين وإبرازهما في صور حسية، إذ أبدت نفسية أحدهمـــا خالـــية مـــن أي جذوة إيمانية، مع امتلائها بالحقد والحسد، وأبدت نفسية الثاني مطمئنة هادئة مسالمة، وادعة حتى في أشد المواقف.

وفي قصة يوسف –عليه السلام– أبدعت الصورة في سبر أغوار خفايا تلك النفوس وما اعتراها من مشاعر وأحاسيس ظاهرة وباطنة مادية ومعنوية، وقدمت صـــوراً حـــية للمشاعر والأحاسيس، والانفعالات. وقد ألمعت إلى ذلك في الفصل الأول، فلا داعي للتكرار.

٣- التشريع

والوظـيفة التشريعية تعني مجموعة الأحكام الشرعية التي يمكن استنباطها مـن الآيات القرآنية، كباقي آيات الأحكام، وهذا في الحقيقة من دقائق الأمور التي تحـتاج إلـى قـدرة على الاستنباط والغوص في أعماق الصورة، لمن يؤتى هذه المقدرة.

وذلـك لأن مهمـة الصورة النفسية، ليست مهمة تشريعية محضاً في إيجاد الأحكـام وبـيان الأمور الفقهية، ولكنها مهمة ثانوية، لذا فإنها تحتاج إلى استلال دقيق ورويّة وطول أناة وتدبر، ودقيق نظرة، إذ هي بغاية الدقة.

وقـبل الإصداح بحكم دعنا نتفيأ ظلال الآيات القرآنية التي مرت معنا في الفصل الأول فيم يخص الصورة النفسية.

ففـي قولـه: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣)﴾[١].

يقول محمد متولي الشعراوي: "وحين نتكلم عن الرزق يظن كثيرٌ من الناس أن الـرزق هو المال .. فنقول له .. الرزق هو ما ينتفع به. فالقوة رزق، والعلم رزق والحكمة رزق، والتواضع رزق .. وكل ما فيه حركةٌ للحياة رزق .. فإن لم يكن عندك مال لتنفق منه، فعندك عافية تعمل بها لتحصل على المال .. وتتصدق بهـا على العاجز المريض .. وإن كان عندك حلم .. فإنك تنفقه بأن تقي الأحمق من تصرفات قد تؤذي المجتمع وتؤذيك .. وإن كان عندك علم انفقه لتعلم الجاهل .. وهكذا نرى: "ومما رزقناهم ينفقون" تستوعب جميع حركة الحياة"[٢].

فكـأن الشـعراوي قد فسر الرزق على إطلاقه دون تقييد له، لا كما فسَّره غـيره بأنه: الزكاة أو الشكر أو العلم أو المال؛ فقد ذكر القرطبي في الجامع عِدّة آراءٍ قـائلاً: "واخـتلف العلمـاء في المراد بالنفقة ههنا؛ فقيل: الزكاة المفروضة لمقارنـتها بالصـلاة . ... وقيل: نفقة الرجل على أهله، ...، وقيل: المراد صدقة الـتطوع، ... وقيل: إنه الحقوق الواجبة العارضة في الأموال ما عدا الزكاة، ...

---

(١) البقرة، ٣.

(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، ج١، ص ١٢٩.

وقـيل هو عام وهو الصحيح .... وقيل: الإيمان بالغيب حفظ القلب. وإقام الصلاة حـفظ الـبدن. ومما رزقـناهم ينفقون ، حظ المال، ... وقيل: أي مما علّمناهم يعلّمون"[1].

وقـد حمـل قوله تعالى: (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ(١٥))[2].

علـى سـجود التلاوة فقد "ذهب جمهور العلماء إلى أن سجود التلاوة سنة للقارئ والمستمع"[3].

وفي قوله تعالى: (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(١٦)) [4].

قـولان: "أحدهما: لذكر الله تعالى، إما في صلاة وإما في غير صلاة، .. . والثانـي: للصـلاة. وفي الصلاة التي تتجافى جنوبهم لأجلها أربعة أقوال: أحدها: التـنقل بالليل .. والثاني: صلاة العشاء التي يقال لها العتمة .. والثالث: التنقل ما بيـن المغـرب والعشـاء ... والرابع: تجافي الجنب هو أن يصلي الرجل العشاء والصبح في جماعة"[5].

وفي قوله تعالى: (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(٦) فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ(٧)) [6].

يقول القرطبي: "لا يحل لامرأة أن يطأها مَنْ تملكه إجماعاً من العلماء لأنها غير داخلة في الآية"[7].

---

(١) يراجع الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج١، ص ١٢٥-١٢٦.

(٢) السجدة، ١٥.

(٣) فقه السنة، السيد سابق، ج١، ص ١٩٤.

(٤) السجدة، ١٦.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج١٤، ص ٦٧.

(٦) المؤمنون، ٥-٧.

(٧) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج١٢، ص ٧١.

وفـــي قولـــه تعالى: (وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا(٦٧)) [١].

يقـــول الطـــبري: "اخـــتلف أهـــل التأويل في النفقة التي عناها الله في هذا الموضع، وما الإسراف فيها والإقتار، فقال بعضهم: الإسراف: ما كان من نفقة في معصـــية الله، وإن قلّـــت، قال: وإياها عنى الله، وسماها إسرافاً. وقالوا: والإقتار: المـــنعُ مـــن حقٍ الله. وقال آخرون: الإسرافُ هو أن تأكل مال غيرك بغير حق. وقال آخرون: الإسراف: المجاوزةُ في النفقة الحدّ. والإقتار: التقصير عن الذي لا بُد منه. والصواب من القول في ذلك، قول مَنْ قال: الإسراف في النفقة الذي عناه الله فـــي هذا الموضع: ما جاوز الحدَّ الذي أباحه الله لعباده إلى ما فوقه، والإقتار: ما قصر عما أمر الله به، والقوام: بين ذلك"[٢].

وفـــي قولـــــه تعالى: "للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضـــرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم"[٣].

فيه مسائل فقهية كثيرة، أذكر منها ما يخص معنى قوله: "لا يسألون الناس إلحافـــاً"، يقـــول القرطبي: "قال قوم منهم الطبري والزجاج: إن المعنى لا يسألون البـــتة، وهـــذا على أنهم متعففون عن المسألة عفة تامة؛ وعلى هذا مذهب جمهور المفســـرين؛ يكـــون التعفف صفة ثابتة لهم، أي لا يسألون الناس إلحاحاً ولا غير إلحاح، وقال قوم: إن المراد نفي الإلحاف، أي أنهم يسألون غير إلحاف"[٤].

وفي قوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ(٣٩)) [٥].

---

(١) الفرقان، ٦٧.

(٢) تفسير الطبري، من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، ج٥، ص ٤٨٤-٤٨٥.

(٣) البقرة، ٢٧٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج٣، ص ٢٢٢.

(٥) النور، ٣٩.

يقول الدكتور محمد علي الصغير، قال الجبائي: "إنه تعالى يحاسب الجميع في وقت واحد، وذلك يدل على أنه لا يتكلم بآلة وإنه ليس بجسم، لأنه لو كان متكلماً بآلة لما تأثر ذلك في أزمان كثيرة"[1].

وفي قوله تعالى: (لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(١٩٦)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(١٩٧))[2].

"قيل الخطاب للنبي ﷺ والمراد الأمة، وقيل للجميع"[3].

وفي قوله تعالى: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنْ الْغَاوِينَ(١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(١٧٦))[4].

يقول الدكتور محمد علي الصغير: قال الجبائي: "هذا إخبار عن قدرته أنه لو شاء لحال بينه وبين الكفر والارتداد، وهو الذي نختاره، لأنا قد بيّنا أن المؤمن لا يجوز أن يرتد" ... ويضيف قائلاً: "وفي الآية تنزيه لله عن الظلم وعدم تجويز ذلك عليه بدليل المخالفة لقوله: "وأنفسهم كانوا يظلمون"؛ فالظلم يقع من نفس الإنسان، وهو غير جائز على الله تعالى"[5].

وفي قوله تعالى: (وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ(٨)) [6] فيه دلالة واضحة على أن المنافقين من جملة الكافرين وذلك "النفي للإيمان عنهم بقول الحق: " وما هم بمؤمنين". وفي هذا ردّ على الكرّامية حيث قالوا: إن الإيمان قول باللسان وإن لم يعتقد بالقلب"[7].

---

(١) الصورة الفنية في المثل القرآني، د. محمد علي الصغير، ص ٤٠٧، وهو نقله عن التبيان للطوسي، ج٧، ص ٤٤٧.

(٢) آل عمران، ١٩٦، ١٩٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج٤، ص ٢٠٣.

(٤) الأعراف، ١٧٥-١٧٧.

(٥) الصورة الفنية في المثل القرآني، د. محمد علي الصغير، ص ٤٠٦-٤٠٧.

(٦) البقرة، ٨.

(٧) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج١، ص ١٣٥.

وقال: (قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ(٥٣)) [١].

فـــيه دليل واضح على أن "أفعال الكافر إذا كانت برًّا كصلة القرابة وجبر الكسير وإغاثة الملهوف لا يثاب عليها ولا ينتفع بها في الأخرة"[٢].

وفـــي قولـــه تعالى حكاية عن بني إسرائيل: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُـــرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْجَاهِلِينَ (٦٧)) [٣].

"فـــي الآيـــة دليل على منع الاستهزاء بدين الله ودين المسلمين ومن يجب تعظـــيمه وأن ذلـــك جهل وصاحبه مستحق للوعيد، وليس المزاح من الاستهزاء بسبيل"[٤].

وفـــي قولـــه تعـــالى: (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِي لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنْ الْغَائِبِينَ(٢٠))[٥].

"في هذه الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته؛ والمحافظة عليهم"[٦].

وفـــي قوله تعالى: (لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢١))[٧].

دليل على أن الحدّ على قدر الذنب لا على قدر الجسد"[٨].

وفـــي قوله تعالى: (فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ(٢٢))[٩].

"ردٌّ على من قال: أن الأنبياء تعلم الغيب"[١٠].

---

(١) التوبة، ٥٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج٨، ص ١٠٣.

(٣) البقرة، ٦٧.

(٤)الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج١، ص ٣٠٣.

(٥) النمل، ٢٠.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج١٣، ص ١١٩.

(٧) النمل، ٢١.

(٨) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج١٣، ص ١٢٠.

(٩) النمل، ٢٢.

(١٠) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج١٣، ص١٢١.

وقولـه تعـالى: (اذْهَـب بِكِتَابِـي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ(٢٨))[١].

"فـي هـذه الآيـة دليل على إرسال الكتب إلى المشركين وتبليغهم الدعوة ودعائهم إلى الإسلام"[٢].

وفـي قوله تعالى: (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ(٣٢))[٣].

"في هذه الآية دليل على صحة المشاورة، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ(١٥٩)) [آل عمران، ١٥٩]، وقد مدح الله الفضلاء بقوله: (وأمرهم شورى بينهم) [الشورى، ٣٨] ..."[٤]، وفي الآيات كثير من الأحكام الشرعية، لذا اكتفي بما أشرت إليه فيما يخص قصة عرش بلقيس.

وفي قوله تعالى: (وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ(١٦))[٥].

"هـذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدلّ على صدق مقاله، لاحتمال أن يكون تصنعاً؛ فمن الخلق من يقدر على ذلك، ومنهم من لا يقدر"[٦].

وفي قوله تعالى: (وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ(١٨)) [٧].

---

(١) النمل، ٢٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج١٣، ص١٢٧.

(٣) النمل، ٣٢.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج١٣، ص ١٢٩.

(٥) يوسف، ١٦.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج٩، ص٩٦.

(٧) يوسف، ١٨ .

"استدل الفقهاء بهذه الآية في إعمال الأمارات في مسائل من الفقه كالقسامة وغـيرها ... ويجب على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات إذا تعارضت، فما ترجح منها قضى بجانب الترجيح"(١).

أكتفـي بمـا قدمت من المسائل الشرعية فيما يخص الصورة النفسية على كثرتها والحمد لله أولاً وآخراً.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج٩، ص٩٩.

الفصل الثالث

خصائص الصورة النفسية

١-التناسق الفني

٢-الإبداع في عرض الصور

٣-التقابل (المقابلة)

٤-الإيجاز

٥-الإقناع العقلي والإمتاع الوجداني

٦-قوة البيان ودقة الجمال

خصائص الصورة النفسية

التناسق الفني:

بعـد أن عكـف الباحث على تأمل الصور النفسية في نماذج من آي الذكر الحكيم، ورأى مقدرة العبارة القرآنية على اختراق الحجب المحيطة بأغوار الحياة النفسـية، والنفاذ إلى بواطنها، مصورة ما يعتلج ويختلج دخائلها، مبرزة حركاتها وانفعالاتها الباطنية، بصورة دقيقة حية متحركة باهرة.

وجـد الباحث -أيضاً- أن الصورة النفسية تتناسق تناسقاً فنياً يساور الحالة النفسـية؛ لذا فقد امتازت الصورة النفسية في القرآن الكريم بتناسق فني منبثق من وحـدة الانسـجام والصور الرائعة الأخاذة، التي تسترعي الانتباه، وتملك حاستي العقل والوجدان. والمتمعن المتأمل معالمها، يجد تناسقاً فنياً بين مفرداتها، وتناسقاً فنياً بين معانيها وتناسقا فنياً بين صورها وتناسقاً فنياً بين صيغها التعبيرية...الخ.

((إنّ مـا تتمـيز بـه عبارة القرآن هي أنها تشع بالصور الحية، وظلال المشاهد المتحركة وكان لا بد لهذه الصورة أن تتناسق، إذ تتمثل في التناسق وحدة الانسـجام مـن حيث الدقة والقوة، ومن حيث الإثارة والتأثير، ومن حيث الهدف الـذي مـن أجلـه صيغت الصور، ونبعت من محيط البيئة العربية، لتظلل الذهن البشـري بظلال الصورة الحسنة ليدرك المغزى، ويزداد عمقاً في فهم كنه القرآن في تعابيره الفنية وأسلوبه وخصائصه وفلسفته))[1].

ولكـي يقـرب الباحث الصورة لا بدّ من استجلاء هذه الخاصية، تطبيقاً لا تنظـيراً؛ إذ القـرآن بدقة عباراته وجودة سبكه وتدفق صوره...الخ، لا يقف عند حـدود مـا نظّـره العلماء وقعّدوه، وإن أسهمت نظرياتهم في استجلاء كثير من مضامينه.

إن فـي القرآن الكريم تناسقاً فنياً بين مفرداته، وذلك بتبوءِ كل لفظة مكانها الذي وضعت فيه، ((وتلاؤمها مع السياق والمعطيات: من معنى ومغزى وصور

---

(١) الإعجاز الفني في القرآن، عمر السلامي، ص ١٩٨.

وظـــلال وإيحـــاء بحيث تتداعى الألفاظ وتتقارب في الأذهان بمجرد السماع وهي متسلسلة متناسقة لا تحمل خللاً بل إحكاماً وأداءً متيناً))[1].

يقـــول مصطفى صادق الرافعي: " ومن أعجب ما رأيناه في إعجاز القرآن وإحكـــام نظمه، أنك تحسب ألفاظه هي التي تنقاد لمعانيه. ثم تتعرف ذلك وتتغلغل فـــيه فتنتهي إلى أن معانيه منقادة لألفاظه، ثم تحسب العكس وتتعرفه متثبتاً فتصير منه إلى عكس ما حسبت وما إن تزال متردداً على منازعة الجهتين كلتيهما، حتى تـــرده إلى الله الذي خلق في العرب فطرة اللغة ثم أخرج من هذه اللغة ما أعجز تلك الفطرة))[2].

يقـــول عزّ من قائل: (الم(١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ(٢)الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(٤)أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ(٥))[3].

إن لفظـــة " المفلحـــون" التـــي تعبر عن الفوز والنجاح، أجملت فضل الله ونعمـــته علـــى عباده المؤمنين، وقد تبوأت مكاناً في الآية يتناسق ويتناسب مع ما ســـبق قبلها من مفردات، فكانت خاتمة ملائمة لما قبلها: معنى ولفظاً وتناسقاً، بما تســـتوجبه تلـــك المعانـــي مـــن جزاء، في صيغة فنية تراعي السياق والجو العام للآيات.

فـــلا غرو أن تأتي في عبارة تقريرية " وأولئك هم المفلحون"، ولا غرو أن تأتـــي بصيغة الاسم الذي يدل على الثبات أو الإثبات المطلق غير المشعر بزمان، وكأنها -بل هي كذلك- هذا الطريق المرسوم، فكانت - كما أسلفت - خاتمة ملائمة لما قبلها.

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٦٤.

(٢) إعجاز القرآن، مصطفى صادق الرافعي، ص ٤٠-٤١.

(٣) البقرة، ١-٥.

كمـــا أنها " المفلحون" أحدثت تناسقاً فنياً منبجساً من التجاوب النفسي، وهو سريان معناها في نفوس العرب، فيما اعتادوا عليه من الفلح والفلاح وحبهم له، لما فيه من استمرارية الحياة.

إن التناسُـــق الفنـــي بيـــن مفردات الآيات، يحدث تسلسلاً في المعنى الذي يســـاور تجاويف النفس " الوضع النفسي"، ويزداد وضوحاً عندما نستجلي تكرار الفعل: " يؤمنون، يقيمون، ينفقون، يوقنون" والخاتمة بالاسم "المفلحون"، إذ الفعل " يـــدل علـــى الحقـــيقة وزمانهـــا، وكل ما كان زمانياً فهو متغير، والتغير مشعر بالـــتجدد"(١). والاسم يدل على الثبات غير المشعر بزمان، ومثل هذا الموقف يحدد دور التشكيل والتناسق الفني في بناء الآيات، فيكون الختم بهذا الشكل دليل الإثبات المطلـــق غـــير المشعر بزمان، وكأن تلك الأفعال والأعمال قد وسمت من الكريم المـــنان بالثـــبات، وهذا ألصق بالنفس وأبقى في بعث الطمأنينة والسكينة، ويؤكد لطف المنان بعباده ومنّه عليهم بالنعم.

وهكذا يتحقق للمتلقي من وراء هذا الترتيب وهذا التناسق لهذه الألفاظ وهذه الآيـــات ســـرٌّ عميق يقرِّب المعنى المراد والدلالة البعيدة. ولا أنسى أن أشير إلى قولـــه " أولـــئك علـــى هدى من ربهم"، إذ في هذه الآية ما يتناسق مع الجو العام للآيات، وما ترسمه من صورة لنفسية المؤمن.

لـــيس بخاف على دارس العربية أن حرف الجر "على" يفيد هنا الاستعلاء، وهـــذا يتناسق مع الجو العام لسياق الآيات، ففي الآيات ألفاظ ومعان كما هو باد، داخلـــة علـــى التكلـــيف: يؤمنون بالغيب، يقيمون الصلاة، مما رزقناهم ينفقون؛ فبالـــنظر إلى ذلك نستشعر تقييداً لحركة النفس، بمعنى أن المنهج الذي قيدّ حركة الـــنفس، قـــيدها إعزازاً لها؛ فلا تأخذ من بشر تشريعاً ولا من ذاتها حركة، وإنما تتلقاه عن الواحد الأحد، وهذا بحد ذاته استعلاء لا انتكاس.

وإن ممـــا يؤسس لخصوصية التناسق في الصورة النفسية قدرته على تأكيد المعنى وتحقيقه، يقول تعالى: " قد أفلح المؤمنون"(٢).

---

(١) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، الفخر الرازي، ص ١٥٦.

(٢) المؤمنون، ١.

إن الآية تبدأ بـــ "قد" التي تفيد التحقيق والتأكيد للفلاح، والفلاح في الأصل علـــى اعتـــبار ما سيكون، لكنه أبرز في معرض الماضي، وهذا بحد ذاته توكيد، يتمـــثل فـــي صيغة التعبير الفنية، وكأن الآية تجمع بين تأكيدين: تأكيد بقد وتأكيد بإبراز الفعل في معرض الماضي.

لقد كان لهذا الحرص على تجويد التناسق في الآية والاهتمام بذلك، لما في ذلك من القيمة الفنية والأدبية، إذ بهذا التعبير إثارة لنفس المتلقي، وتشويق لمعرفة الصـــفات والخصـــال الطيبة التي تحلى بها حتى نال هذا النجاح والفوز، لذا نجد القـــرآن يعقـــب هـــذه الآيـــة بما يدلل ويقدم صورة للنفس المؤمنة تتضمن جميع الخصال الطيبة، ويمكننا استشعار ذلك من خلال التفصيل الذي جاء بعد هذا الوعد الصادق بل القرار الأكيد، بفلاح المؤمنين[1].

كمـــا أن " الســـبك المتيـــن بين أجزاء العبارة بصيغة موجزة كل الإيجاز وبإيقـــاع خاص يزيدان في تناسق أجزائها، ويبرزان حسن التعقيب فيها"[2] ويظهر ذلـــك جلياً من خلال التعقيب الذي جاء بعد هذه الآية " قد أفلح المؤمنون"، إذ هو تعقيب جليل لطيف جميل تفصيلي، يوازي فلاح هذا الأنموذج، ويؤكد المعنى الذي تضمنه الابتداء " قد أفلح المؤمنون"، ويعزِّزُه الاسم الموصول "الذين" المتكرر في أغلب الآيات: " الذين في صلاتهم خاشغون، الذين هم عن اللغو معرضون، الذين هـــم للـــزكاة فـــاعلون، الذين هم لفروجهم حافظون، الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، الذين هم على صلاتهم يحافظون".

وفـــي قوله تعالى: (أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَـــا يَـــتَذَكَّرُ أُوْلُـــوا الْأَلْبَابِ(١٩)الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ(٢٠) وَالَّذِيـــنَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِيـــنَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ(٢٢))[3].

---

(١) المؤمنون، ٢-٩.

(٢) الإعجاز الفني في القرآن، عمر السلامي، ص ١٩٥.

(٣) الرعد، ١٩-٢٢.

إنّ الآيـــات يـــتجلى فيها تناسق من خلال التقابل، فتبدو من خلاله الصورة واضحة جليّة، وقد قيل- وبالضد تعرف الأشياء وتتضح- والذي نلحظه من خلال هـــذا التعبـــير قوة في التناسق الفني، فاستعمال لفظتي: يعلم، وأعمى، فيه مقاربة للحقائق المرئية؛ فالنسق الفني لهذه الآيات هو: المقابل لمن يعلم، أن أنزل إليك من ربـــك هـــو الحق، ليس هو من لا يعلم هذا، ولكنه جعل المقابل هو الأعمى، ليدل على أن الآيات من المرئيات، وليدل على أن الأعمى وحده هو الذي ينشيء الجهل بهذه الحقيقة الواضحة التي لا ينكرها إلا أعمى.

((إن أدوات الوصـــل فـــي القرآن الكريم، تصل الكلام في وحدة متناسقة عجيبة، يعسر على قلم الكاتب محاكاته في فطرة سلاسته، وطبيعة اتساقه بالسياق، إن هـــناك وسائل أخرى تخص فن الأسلوب، واتساق الكلم بعضه مع بعض حيث تحدث بلاغة في الوصل بالصيغة الفنية[1].

ففـــي الآيـــات السابقة، انتقل من السياق إلى الخاتمة بالوصل "أولئك" يتبع خلجات النفس وترتيب المعاني فيها، بحيث نجد تناسقاً في اللفظ وتناسقاً في المعنى وتناسقاً في الصورة، فلا ثقل على اللسان والنفس، بل سلاسة متناهية.

ويلحظ تقديم من يعلم على من هو أعمى لتأكيد نوعية النفوس واختصاصها بذلك، لذا نجده بعد عقد الموازنة أو المقايسة أشار إلى أن الإدراك والتذكر والتدبر من خاصية أولي الألباب: " إنما يتذكر أولو الألباب".

إن وحـــدة التناسق بين الآيات تمّت بالنسق الحاصل في قوله: "أفمن، أنما، كمـــن، إنمـــا" وهذا قد وضع العبارة في تناسق فني عميق، فيه إثارة وتأثير. هذا بالإضـــافة إلى التفصيل المسهب في بيان خاصية الخصال الطيبة لأولي الألباب، وتكرار الاسم الموصول " الذين" وبصيغة الجمع،: " الذين يوفون بعهد الله...، الذين يصـــلون مـــا أمر الله به أن يوصل...، الذين صبروا ابتغاء وجه ربهم..." كل ذلك لتأكيد خاصية هؤلاء واستحقاقهم بذلك.

ولـــنقرأ قوله تعالى: (وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَـــبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا(٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا(٦٤)وَالَّذِينَ

(١) الإعجاز الفني في القرآن، عمر السلامي، ص ٢٠٧.

يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا(٦٥)إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا(٦٦)وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا(٦٧) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا(٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩)إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا(٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا(٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا(٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا(٧٤)أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا(٧٥)خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا(٧٦))[1].

إن لفظة " عباد" تناسب مفردات مطبوعة بطابع التقوى والصلاح والانصياع لأوامر الذات العلية، التي استقام أصحابها مع الفطرة الإيمانية السوية، وهذا التناسب تم بربطها بما بعدها من الخصال الطيبة التي ألزموا أنفسهم بها، وبالمنهج الحق الذي ألزموا به.

إن اللفظة " عباد" تقوم بمفردها بإيجاد تناسق فني في الصيغة، وذلك من خلال التجاوب النفسي، إذ في اللفظة -كما هو باد- سريان للمعنى في النفس بانشراح، وفي مجراه الطبيعي، فلفظة "عباد" التي تدل على الناحية الاختيارية تختلف عن لفظة عبيد التي تدل على الناحية القهرية، فمن اختار أن يكون عبداً لله بمحض إرادته، استحق أن ينسب لهذا الاسم الجليل " الرحمن" إذ هو مشتق من الرحمة، والرحمة أجلُّ صفة تتدفق بفيض العطاء.

ويزداد هذا وضوحاً بحسن الخاتمة في قوله تعالى: "أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما"، إن الذين تحلوا بتلك الخصال تقف إليهم الملائكة قائلة " سلاما، بالإضافة إلى البشرى بالجنة يوم القيامة والتعبير" أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما" يفتح أمام النفس كل أبواب

---

(١) الفرقان، ٦٣-٧٦.

الغبطة والفرح والسرور بالإضافة إلى الطمأنينة والانشراح، ولذلك تنطق نفوسهم بحقيقة واقعهم " حسنت مستقراً ومقاما".

ومـــن هنا يتضح كيف تبوأت الألفاظ مكانها، لتضع المعنى في نصابه، وما أجمل لفظة "سلاما" التي تشع بالراحة والأمن في النفس، وهذه تشعرنا بقوة التناسق بيـــنها وبين مجمل الآيات التي قبلها، وكل ذلك مستوحى من الوضع النفسي الذي عليه عباد الرحمن والوضع النفسي الذي عليه أهل الجنة.

إن دقـــة الاختـــيار فـــي الألفاظ تسهم في إبراز المعنى بدقة وإحكام، وهي -كذلـــك- تـــبرز قـــوة التناسق في اللفظ ليستبين من خلال ذلك تناسقا في المعنى وتناسقاً قوياً في الصورة، لنقرأ قوله تعالى: (الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(٦)خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٧))[١].

يلحـــظ استعمال القرآن في هذه الآيات لفظ "ختم" بدل "طبع" التي استعملت فـــي قوله تعالى: "أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغـــافلون "[٢]. والمتدبر للآية يدرك دقة الاختيار،" فختم تشعر بمعنى حسي، وهو الإغـــلاق المحكـــم"[٣] وطـــبع تشـــعر بوضع شيء عليها، والطبع:" أثر يثبت في المطـــبوع ويلزمه فهو يفيد من معنى الثبات واللزوم ما لا يفيده الختم، ولهذا قيل: طـــبع الدرهم طبعا، وهو الأثر الذي يؤثره فلا يزول عنه، كذلك أيضاً قيل: طبعُ الإنســـان لأنـــه ثابـــت غير زائل"[٤] والتناسق الفني في هذه الآيات يتجلى بتكرار حرف الجر "على" الذي يفيد أن كلاً من القلب والسمع له ختم غشاوة تخصه ، أي ختم تفصيلي كما يتجلى التناسق الفني في التصوير، وقد أشار سيد قطب إلي أن " التصـــوير هـــو الأداة المفضـــلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخـــيلة عـــن المعنى الذهني والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس والمشهد

---

(١) البقرة، ٦-٧.

(٢)النحل، ١٠٩.

(٣) الإعجاز الفني في القرآن، عمر السلامي، ص ٧٩.

(٤) الفروق، أبو هلال العسكري، ص ٧٨.

المـــنظور، وعـــن الـــنموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها، فيمنحها الحياة الشاخصة، والحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حـــركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية، فأما الحوادث، والمشاهد والقصص والمناظر فـــيردها شاخصة حاضرة، فيها الحياة وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل"[1].

ويلحـــظ هذا التناسق " من خلال الحركة الثابة الجازمة، حركة الختم على القلـــوب والأسماع، والتغشية على العيون والأبصار"[2]، كما يتجلى التناسق الفني من خلال التسلسل المنطقي في المعنى، إذ الواقع المنطقي يكتمل بالخاتمة في قوله تعالى: "ولهم عذاب عظيم".

ولنـــتأمل قوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ(٤٠))[3].

يقول عمر السّلامي: " إن التناسب بين مفردات العبارة، يحدث تسلسلاً في المعنى بالصيغة التعبيرية، ويستمد هذا المنطق في التسلسل من المنطق النفسي في المعنى"[4] ويزداد هذا وضوحاً عند إنعام النظر في استعمال القرآن لفظ " الظمآن"، مـــع أنه يمكن القول: يحسبه الرائي، بدل الظمآن، لكن القرآن يتخير أقوى الألفاظ تلاؤمـــاً مـــع السياق، إذ السراب يثير في نفسه كلّ معاني الرّى والأمل والنجاة، فلفظة "الظمآن" تبوأت مكاناً، عبّر بكل قوة عن المعاني النفسية أو الوضع النفسي

---

(١) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص ٣٢.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج١، ص ٤٢.

(٣) النور، ٣٩-٤٠.

(٤) الإعجاز الفني في القرآن، عمر السّلامي، ص ١٦٨.

لهـذا الأنموذج، لكون الظمآن أشدُّ حرصاً على بلوغ الماء، وأشد تعلقاً به، وهذه حال من يركض وراء سراب الدنيا، ويعقد كل حساباته وأمله عليها.

كمـا أن جمال التذييل وحسن رونقه ودقة سبكه ومتانة تركيبه، يبعث على التوضـيح والإبانة، وقد اهتم علماء البلاغة بحسن الخاتمة ونوهوا إلى أهميتها في النـثر والشعر، يقول ابن أبي الإصبع المصري: "يجب على الشاعر أو الناثر أن يخـتم كلامهما بأحسن خاتمة، فإنها آخر ما يبقى من الأسماع، لأنها ربما حفظت مـن دون سـائر الكلام في غالب الأحوال. فيجب أن يجتهد في رشاقتها ونضجها وعلاوتهـا وجزالـتها، وقد رأيت القاضي الفاضل عبد الرحيم -رحمه الله تعالى- كثـيراً ما كان يحترز في ذلك ويتوخاه، فيأتي منه بكل نكتة، ترقص لها القلوب، وتغنـي عـن النسـيب المحبوب"[1]، وفي حديثه عن خواتم السور القرآنية قال: "وجمـيع خواتـم السـور القرآنية في غاية الحسن ونهاية الكمال لأنها بين أدعية ووصـايا وفرائض وتحميد وتهليل إلى غير ذلك من الخواتم التي يبقى في النفوس بعدها تطلع وتشوف إلى ما يقال..."[2].

وعلـى أيـة حـال فإن الآيات السالفة الذكر ذيلت بما يبعث على الدهشة والاسـتغراب وبمـا يسجل واقعاً نفسياً لدى هذا الأنموذج، ففي قوله: " ووجد الله عنده، فوفاه حسابه ، والله سريع الحساب)) وقوله: " ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور" فيه إثارة للنفس وتأثير فيها، وذلك لأن هذا التذييل فيه ربط بين البداية والنهاية وفيه مسايرة مع السياق العام للآيات وفيه إثارة للعقل والوجدان والمخيلة.

ومـثل ذلك قوله تعالى: (لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(١٩٦)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(١٩٧)) [3].

المـتأمل في هذه الآية يجد تناسقاً في اللفظ وتناسقاً في الصورة وتناسقاً في التركيب وتناسقاً في التذييل، يصحب ذلك تناسق نفسيٌّ يضرب الوتر الحساس لدى النفس.

---

(١) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع المصري، ص ٦١٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٢٠.

(٣) آل عمران، ١٩٦-١٩٧.

فمـــا بين لفظ "تقلب" ولفظ "مهاد" علاقة ضدية أو ثنائية ضدية: في الأولى، دلالـــة علـــى القدرة والحركة والحرية، وفي الثانية، دلالة على التقييد لكل معنى الحركة والتقلب.

لـــيس بخـــاف جمال التعبير وروعته في الأداء، ودقة اختيار الألفاظ التي تتناسب وكوامن الأنفس.

وقد وردت لفظ "بئس" في خاتمة الآية وهي لدقة معناها تحدد المصير بكل وضـــوح، وهي - كذلك- تناسب الانحراف عن جادة الصواب والميل عن الفطرة السوية، فبها يتم الربط بين الحدث وما يستوجبه من جزاء، وهي مع اقترانها بلفظ "المهـــاد" تحمل كثيراً من المعاني، لذلك تستطيع أن تقول: بئس ما مهدوا لأنفسهم، وتقـــول: بئس المستقر الذي يفقد فيه الإنسان إرادته وحريته، وتستطيع أن تقول: بئس الجزاء جنهم.

وفـــي مطلع الآية إشارة واضحة إلى روح التربية، إذ الخطاب خاص يراد منه العموم، وذلك لأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لم يغتر من بسط العيش للأنمـــوذج الكافـــر ولكـــن المطلع يشير إشارة واضحة إلى ما قد يثار في أنفس المؤمنيـــن مـــن تساؤلات حول اتساع العيش لهؤلاء، فكان الجواب رادعاً مانعاً: "متاع قليل" وهو في الوقت ذاته إشارة إلى أسلوب المقايسة الخفي، أي أن المؤمن النبـــيه هـــو الذي لا يغتر بمتاع الدنيا الزائل الفاني، إذا ما قيس بنعيم الجنة الذي يتســـم بصـــفة الخلود. ولهذا قيل: إن المؤمن أذكى إنسان في الوجود وأقدر على معرفة الجمال من غيره؛ فهو ذكي لأنه عقد صفقة التجارة مع الله، وهي تجارة لن تبور، وزهد بالجمال الفاني، في سبيل الحصول على الجمال الباقي.

وفـــي قولـــه تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ(٤١)﴾ [1].

تناسق في الصورة ودقة في إحكام كل منهما، "حيث التطابق بين الأجزاء، وإن المغـــزى واحـــد، كمـــا أن النهاية واحدة، تضع الصورة على غاية من الدقة

---

(١) العنكبوت، ٤١.

والقــوة"[1]، ولو دققنا النظر في المشبه والمشبه به لوجدنا وضوحاً تاماً في المشبه بـــه، لأن فـــي ذلـــك توضيحاً لأبعاد المشبه، وفي استعمال لو في قوله: "لو كانوا يعلمون" تناسق في توضيح الصورة، لأن في ذلك تأكيداً على غبائهم وجهلهم فيما اعـــتمدوا علـــيه، إذ تؤكـــد عدمية الفائدة المرجوة من المعتمد. وفي استعمال لفظ "أوهن" من الوهن، غاية في الروعة لما تحمل من قوة في التبكيت لهذا الأنموذج، فالمعتمد ضعيف أشد الضعف.

وتـــأمل هـــذه الآيات، في قوله سبحانه وتعالى: (وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ(٨)يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمْ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَـــانُوا يَكْذِبُـــونَ(١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَـــا إِنَّهُـــمْ هُمْ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ(١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ الـــنَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُوَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَـــا آمَـــنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمْ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ(١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَـــالُوا آمَـــنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ(١٤)اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَـــا رَبِحَـــتْ تِجَـــارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ(١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ(١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ(١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنْ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَـــابِعَهُمْ فِـــي آذَانِهِمْ مِنْ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ(١٩) يَكَادُ الْـــبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْيَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَـــمَ عَلَـــيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢٠))[2].

---

(١) الإعجاز الفني في القرآن، عمر السّلامي، ص ١٩٩.

(٢) البقرة،٨-٢٠.

إن الآيـــات تعرض صورة التذبذب والنفاق والخداع، إنهم يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، إنه إنموذج متذبذب.

إن وحـــدة التناســق بين الآيات السالفة الذكر، اكتملت بالتناسق بين الألفاظ ومعانـــيها وبين المعنى والغرض العام الذي سيقت من أجله الآيات، كما أن وحدة التناسق واضحة جلية، بين أجزاء العبارات التي اتسمت بالوضوح والإثارة، وذلك بدقـــة الربط، ودقة التعقيب، كما اكتملت وحدة التناسق بأسلوب المقايسة، والتناسق بين الصور، التي تتسم بالتوضيح وقوة التشخيص كما تتسم بإطلاق العنان للمخيلة لإدراك الصورة التي تجسد أماماً الواقع النفسي للمنافقين.

اســـتهلت الآيـــات فـــي تشكيلها البنائي "شبه الجملة" وذلك في قوله: "ومن الناس"، وهو أسلوب تقريري جاء في معرض الحقائق الحياتية، وهذا واضح جليٌّ لا يحـــتاج إلـــى شـــرح، ولكن الذي أودُّ أن أصل إليه أن هذا التعبير فيه إطلاق للمخيلة لإدراك الصورة التي تتجسد في هذا الواقع الذي يريد أن يوضحه لنا، وهو -كذلـــك- فيه روح الإثارة لطلب المعرفة واستزادة الكشف. ولذلك نلاحظ أنه جاء بعـــد هذا التعبير بقوله: " من يقول آمنا" مشيراً إلى أن الإيمان صدر منهم بالقول، بمعنى أن من قال آمنتُ ليس كمن آمن.

ويـــتجلى التناسق في العبارة - كذلك- في تكرار حرف الجر "الباء" " بالله وبالـــيوم الآخـــر" وهذا التكرار دليل على مبالغة في الخديعة والتلبيس بإظهار أن إيمانهم تفصيلي مؤكد قوي.

ومـــن العلاقات الفنية بين العبارات، وحسن وضعها في الكلام، أنّ التعبير عـــن الإيمـــان منهم، قد صدر بالقول : " يقول آمنا" ونفي الإيمان صدر بالاسمية "ومـــا هـــم بمؤمنين" وهذا دليل على أن ما أقرّ بلسانهم غير موافق لما يعتمل في قلوبهم.

إن حســـن التناســـق في الصورة نابع من حسن العرض، وروعة الأسلوب الذيـــن تصـــاغ بهما، بالإضافة إلى ما يتمتع به التناسق من قوة منبثقة من أسلوب التمثيل الذي " يكشف المعاني ويوضحها، لأنه بمنزلة التصوير والتشكيل لها"[1].

---

(١) خصائص التشبيه في سورة البقرة، د. إبراهيم علي حسن داود، ص ٥٦.

لذلـــك حرص القرآن على الإكثار منه، لما فيه من " إبراز خبيئات المعاني ورفـــع الأستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معـــرض المتيقـــن، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمع لسورة الجامح الأبي"[1].

وكل هذا تعكسه الآيات السالفة الذكر، ففي قوله: " مثلهم كمثل الذي استوقد نـــاراً..."، وقوله: " أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق..." صورتان في غاية التناسق، " صورة تقابلها صورة وحال تقابلها حال"[2]، فالمنافقون يقابلهم من استوقد ناراً ولم ينتفع بها أو " من أخذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق"[3]، وحالهم المتأرجحة المتقلبة تقابلها مَنْ ترك في الظلمات لا يهتدي إلى أي طريق.

وقد تأسست الصورتان من الواقع الحسي والطبيعة المعاشة، ليكون التأثير أبلغ وأشدُّ وقعاً على النفس والعقل والمخيلة.

وفوق ذلك كلّه تعمد الصورة إلى رسم واقع نفسي، ثم توجزه بلفظ أو عبارة تجعل المتلقي يستوضح الأمر بكل جلاء؛ فعبارة "صم بكم عمي فهم لا يرجعون"، فـــيه استحالة الإدراك، لأن جميع وسائل الإدراك عندهم قد تعطلت، فلا رجعة لهم إلى الحق والهدى والنور، وقوله: " والله محيط بالكافرين" فيه استحالة الانفلات من قضاء الله وقدره.

وحســـن الانتقال من السياق إلى الخاتمة، يساير تجاويف النفس وما يعتلج فيها من ترتيب المعاني، فحسن الربط بـــ "إن" فيه إبداع وروعة وسلاسة ورشاقة، "حيـــث لا خلـــل ولا ثقل على اللسان والنفس"[4]، فانظر - رعاك الله- إلي حسن الخاتمة في قوله: " إن الله على كل شيء قدير".

---

(١) خصائص التشبيه في سورة البقرة، ص ٥٦.

(٢) الإعجاز الفني في القرآن، عمر السّلامي، ص ٢٠٠.

(٣) الكشاف، الزمخشري، ج١، ص٨٧.

(٤) الإعجاز الفني في القرآن، عمر السّلامي، ص ٢٠٥.

ولـنقرأ قوله تعالى: (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ(١)اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٢)ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ(٣)وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ(٤)وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ(٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ(٧) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ(٨)) [١].

يقـول عمر السّلامي: "إن التناسب بين مفردات العبارة، يحدث تسلسلاً في المعنى بالصيغة التعبيرية، ويستمد هذا المنطق في التسلسل من المنطق النفسي في المعـنى" كمـا يقول " إن مسايرة الوضع النفسي تقوم بتحقيقها وحدة التناسق في التعبـير الفنـي"[٢]، ويزداد ما ذكره السلامي وضوحاً عندما نتدبر الآيات السالفة الذكر، ونستجلي ألفاظها وتعابيرها.

فمن ذلك - مثلاً - قوله: "إذا" تفيد التحقيق وهو بخلاف ما لو قيل: إن جاءك أو لو جاءك، بمعنى أن الصفات الآتية لهم إنما تبدو في حال كونهم أمام رسول الله -صلى الله عليه وسلم - ويدل على ذلك لفظ "جاء" التي تدل على الهوان والخذلان والضعف، وكأنهم اضطروا إلى المجيء والسعي إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وفي كاف الخطاب إشارة إلى ذلك، إذ فيها تخصيص متمثل بشخص رسول الله - صلى الله عليه وسلم- رمز القوة التي يخشونها.

---

(١) المنافقون، ١-٨.

(٢) الإعجاز الفني في القرآن، عمر السلامي، ص ١٦٨-١٦٩.

وهـذا الـتدرج فـي الألفاظ المعبرة المترابطة المتناسقة، يعقبه تدرج في المعـنى، ويحكمـه تناسـق بين المعاني نفسها، بمعنى أن العبارة اكتملت تناسقاً وانسجاماً. وهنا تمس الآية واقعاً محسوساً، يحرك انفعالات وجدانية، وتثير المخيلة على تتبع الصورة، وهو تسلسل منطقي في تدرج المعاني.

وفـي قولـه حكاية عن المنافقين: " قالوا نشهد إنك لرسول الله"، فيه ثلاثة تأكـيدات فـي ثلاث كلمات، "فنشهد" قسمٌ، وهو تأكيد،"إن" تأكيد ثانٍ، واللام تأكيد ثالـث، والفـائدة مـن هذه التوكيدات المنبجسة من العبارة هي إحداث تناسق بين أجـزاء العبارة، فالآية متينة السبك لا يعتورها أي اضطراب أو خلل، وإذا قرأنا الآية مرةً أخرى نجد قوةً في التصوير، ومما لا شك فيه أن هذه القوة منبجسة مما وراء الآيـة من معانٍ، داخلة في مفرداتها الحية الموحية، وتزاحم أفكارها، ودقة مغـزاها، ومـا تحملـه مـن متانة في السبك والتناسق، وإذا تابعنا تلاوة الآيات الكـريمة، نجد تتابعاً وتسلساً في المعاني، وهذا التسلسل يسير تبعاً للأهمية، بحيث تجـدك تنـتقل من معنى إلى معنى دون أن تشعر بهذا الانتقال، وذلك لأن وحدة التناسق ووحدة الموضوع هي التي تحكم السياق:" اتخذوا أيمانهم جُنّة، وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، وإن يقولوا تسمع لقولهم، كأنهم خشب مسندة"... الخ، وفوق ذلك تجدك أمام تعبير، مُوحٍ بكلِّ الإيحاءات التي من شأنها أن تنقل صورة نفسية دقيقة.

وفـي القصـص القرآني سأكتفي بتناول قصة يوسف–عليه السلام– وذلك خشية الإطالة، إذ لو عرضنا القصص لطال بنا المقام.

ففـي القصة توافق وتناسق تام بين بداية القصة وختامها، لقد بدأت القصة بـرؤيا يوسف عليه السلام. (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّـمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ(٤) قَالَ يَابُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ(٥) وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَـأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِـيمَ وَإِسْـحَاقَ إِنَّ رَبَّـكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٦))[1] وإذا ما تلونا السورة نجد الآيات تمضـي بتتـبع "خطوات القصة من مبدئها إلى منتهاها، حيث يجتمع الشمل، بعد

---

(١) يوسف، ٤-٦.

طول فراق، ويجد يوسف نفسه أمام اخوته (الأحد عشر) وأمام أبويه، والكل يخر ساجداً. فلم يلبث أن رفع أبويه على العرش ثم يخاطب أباه"[1] قائلاً: (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَاأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(١٠٠))[2].

ولا أنسى أن أذكر ذلك التوافق والتناسق بين التمهيد للقصة والتعقيب عليها وحسن الوصل بينهما، ففي بدء القصة يخاطب الحق - سبحانه- نبيه قائلاً: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ(٣))[3]. وفي التعقيب يقول: (ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ(١٠٢))[4]

وعندما ننعم النظر في صيغة التعبير الفنية في القصة، نجد إحكاماً في ترتيب الألفاظ ودقة في تصوير الحوادث والمشاهد، بحيث تبدو مجسمة بصورة معنوية وحسية، كما نجد إبداعاً في رسم الشخصيات وملامحها وما يعتلج خلجاتها النفسية، وإن القارئ لتلك السورة ما يكاد يلتقط أنفاسه حتى يثار فيه الشوق للمتابعة، لما فيها من قدرة على إطلاق العنان للمخيلة، وذلك من خلال -إن جاز التعبير- ترك فجوات أو إيجاد فضاءات من التعامل بين النص والمتلقي، تاركاً له أن يستكملها بتصوره.

يقول سيد قطب في معرض حديثه عن الحقائق الفنية للقصة: " تلك الفجوات بين المشهد والمشهد، التي يتركها تقسيم المشاهد و"قص" المناظر، مما يؤديه في المسرح الحديث إنزال الستار، وفي السينما انتقال الحلقة؛ بحيث تترك بين كل مشهدين أو حلقتين فجوة يملؤها الخيال، ويستمتع بإقامة القنطرة بين المشهد السابق والمشهد اللاحق" ويضرب على ذلك مثلاً من قصة يوسف حيث

---

(١) الصورة الأدبية في القرآن الكريم، د. صلاح الدين عبد التواب، ص ١١٧.

(٢) يوسف، ١٠٠.

(٣) يوسف، ٣.

(٤) يوسف، ١٠٢.

يقــول: " فالقصة قد قسمت ثمانية وعشرين مشهداً، فلنعرض بعض مشاهدها: لقد قَــدِم إخوة يوسف وهو على خزائن الأرض، في سنوات الحرب، يطلبون القمح، فطلب إليهم أن يحضروا أخاهم الآخر -شقيقه- فأحضروه -على كُرْهٍ من أبيه- ثم وضع صواع الملك في رحله وأخذ به رهينة باسم أنه سارق، ليبقيه يوسف عنده!.

ثــم هــا هم أولاء اخوته يتنحون جانباً ليتشاورا في أمرهم، وقد أبى عليهم يوســف أن يأخذ أحدهم مكانه (فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا. قال كبيرهم: ألم تعلمــوا أن أبــاكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله، ومن قبلُ ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي،وهو خير الحاكمين. ارجعوا إلى أبــيكم فقولــوا يــا أبانــا إن ابنك سرق، وما شهدنا إلا بما علمنا، وما كنا للغيب حافظين. واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها؛ وإنا لصادقون).

وهنا يُسْدَلُ الستار، لنلتقي بهم في مشهد آخر لا في مصر ولا في الطريق ولكــن أمام أبيهم، وقد قالوا له ما وصاهم به أخوهم دون أن نسمعهم يقولونه إنما يــرفع الستار مرة أخرى لنجد أباهم يخاطبهم: (قال: بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميل، عسى الله أن يأتيني بهم جميعا، إنه هو العليم الحكيم) ويسدل الستار.

وهنا نرى مشهداً آخر بين يعقوب وبنيه، نراه قد ابيضت عيناه من الحزن، وهــو دائم الحسرة على يوسف ، وأبناؤه يستنكرون عليه هذا كله: (وتولى عنهم وقــال يــا أسفا على يوسف. وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم. قالوا: تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين؛ قال: إنما أشكو بثي وحزني إلــى الله، وأعلم من الله ما لا تعلمون. يا بنّي اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه، ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون). وهنا يسدل الســتار، ويطــوون الطريق لا نعلم عنهم فيه شيئاً، إنما يرفع الستار فنجدهم في مصــر أمــام يوسف: (فلما دخلوا عليه قالوا: يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر، وجئنا ببضاعة مزجاة، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين)... وهكذا)[1].

---

(١) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص ١٥٢-١٥٣.

٢- الإبداع في عرض الصور:

إن دارس الصورة النفسية في القرآن الكريم، يلمس إبداعاً يشع منها، إبداعاً في عرضـــها وطريقة نسجها وقوة نسقها، بحيث تراها العين، وتتملاها النفس، ويستوعبها العقل، ويتابعها الخيال، ويستغرق فيها الحس، وتتراءى فيها الظلال. وفوق ذلك تسيطر على العقل والوجدان، وتثير في النفس انفعالات تترك أثرها فيها.

لقد اتسمت الصورة النفسية في القرآن بذلك، لأنها تميزت بخصائص معجزة لا تتوفر لأي عمل أدبي أيّاً كان، ومهما بلغ صاحبه من المقدرة الفطرية والمواهب العقلية، ولا غـــرو في ذلك وقد رسمتها الريشة المعجزة، رسمتها بالألوان والخطوط والحركة والـــنغمة التـــي لهـــا خاصـــيتها، إنها صورة " تقاس فيها الأبعاد والمسافات بالمشاعر والوجدانـــات والخواطـــر والخلجـــات، وترسم المواقف وهي تتفاعل في نفوس آدمية حية"(١).

ولا بـــأس مـــن التكرار فيما قاله سيد قطب: " التصوير هو الأداة المفضلة في أســـلوب القـــرآن. فهـــو يعـــبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفســـية؛وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشـــرية. ثـــم يرتقـــي بالصـــورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المســـتجددة. فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة؛ وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا الـــنموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية، ...، وهذه سمات الانفعـــال بشتى الوجدانات، المنبعثة من الموقف، المتساوقة مع الحوادث، وهذه كلمات تـــتحرك بهـــا الألســـنة، فتنم عن الأحاسيس المضمرة. ... فإذا ما ذكرنا أن الأداة التي تصـــور المعـــنى الذهني والحالة النفسية، وتشخص النموذج الإنساني...، إنما هي ألفاظ جامدة، لا ألوان تصوِّر، ولا شخوص تعبِّر أدركنا بعض أسرار الإعجاز في هذا اللون من تعبير القرآن"(٢).

وإذا كان الباحث يستعرض بعض تلك الصور، ويستجلي ما يمكن استجلاؤه من الإبـــداع في عرضها، فلا يعني ذلك أنه أشرف على الأمد، وأوفى على معجزة الأبد، وذلك لأن الأمر يجلُّ عن الحصر وأوسع من أن يحاط به.

---

١ - الصورة الأدبية في القرآن الكريم، وصلاح الدين عبد التواب، ص ١٢٥.

٢ - التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص ٣٢-٣٣.

يقـــول عـــز مـــن قائل: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَـــبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ(١٥) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُـــمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٧)﴾(١).

ويتمثل الإبداع في عرض الصورة النفسية لهذا الأنموذج بعدة أبعاد: أذكر منها البعد العقدي المتمكن في كيانهم وسويداء قلوبهم؛ فافتتاح الآية بالأداة التي تفيد الحصـــر له أبعاده التوكيدية والتخصيص، وهذه سمة من سمات العرض للصورة النفســـية، إذ تجعلـــك تســـتجلي ذلك الأنموذج دون أن تخلط بينه وبين غيره من النماذج.

وهناك سمة أخرى أصيلة في هذا الموقف وهي: أنها تجسد الصورة وكأنها حاضـــرة تراها العين وتتملاها النفس، ماثلة للنظارة؛ فلننظر إلى الانفعال والوجد الـــذي شخصـــته الآيـــة، وعبرت عنه بالسجود، والخرور الذي يعبر عن سرعة الحركة في تنفيذ السجود، ناهيك عن دلالة اللفظ بما يوحي من السقوط، يسمع منه خرير.

ولو تأمل المتلقي الصورة حق تأمل لأدرك إيحاءها بالكشف عن سرائر هذا الأنمـــوذج والإفصـــاح عن حديث أعماقهم، وما يتغلغل في دخائلهم، ففي سرعة الاســـتجابة لداعي التذكير، فيه رسم للواقع النفسي المستمد من البعد العقائدي، ولا ينبـــئك مـــثل خبير، "وهم لا يستكبرون"، إذ الجملة الاسمية في محل نصب على الحال، بمعنى أن حالهم كذلك، فكيف يستكبرون وقد عرفوا قدر الله العلي العظيم؟

ومـــن الســـمات التـــي تبرز في عرض الصورة، أنها تنقلك بما هو مرئي محســـوس إلى ما هو مخفي معنوي بلمحة واحدة، ففي الوقت الذي تصف به هذا الأنمـــوذج من علامات بارزة وسمات خيرة في السلوك أو المظهر الخارجي هي في الوقت ذاته تنقلك بلمحة واحدة إلى صورة أنفسهم، فأنت عندما تقرأ هذه الآيات تنسى أنك تقرأ كلمات أو ألفاظ، بل تحس وكأنك ترى صورة متمثلة أمامك، وهذه سمة من السمات التي يتمتع بها التعبير القرآني، إذ يدع للحس أن يتأثر عن طريق

---

١ – السجدة، ١٥-١٧.

الخـيال مـا شـاء له التأثر، ليستقر في النهاية إلى صورة معبرة ناطقة متحركة نابضة بالحياة.

ومـن السـمات الـبارزة فـي أسلوب العرض، أنه يأتي بالوعد والجزاء المرتقب، والعطاء الذي لا ينفذ، للذين هذه صفاتهم، وما أجملها من بشارة، تنشرح لها الصدور، وتنفتح لها القلوب، وتسكن لها النفوس، " فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون".

انظر -رعاك الله- إلى الإبداع في العرض وحسن الوصل بما قبله، فقولة: "لا تعلـم نفس ما أخفي لهم" فيه جمال وروعة ودقة، ففي الوقت الذي يتحدث فيه عن أعمالهم وعباداتهم النقية من كل أنواع الرياء، إذ التجافي عن المضاجع يكون لـيلاً، وهـذا بينهم وبين ربهم، لا يطلع عليه أحد، جعل الجزاء من جنس العمل، فكـان ما يناسبه قوله: " فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون".

بهـذا الشكل الموجز للآيات يصور القرآن تلك النماذج من المؤمنين، وهو أسلوب من أساليب القرآن التي انفرد بها ، فهو يعبر عن المعاني الكثيرة والصور الفنـية والنفسية... الخ. بهذه الكلمات القليلة، وصدق الدكتور محمد عبد الله دراز (ت ١٩٥٨م) حيـن قـال: "فانظر حيث شئت من القرآن الكريم، تجد بياناً قد قدر علـى حاجـة الـنفس أحسن تقدير، فلا تحس فيه بتخمة الإسراف ولا بمخمصة التقتير، يؤدي لك من كل معنى صورة نقية وافية: "نقية" لا يشذ بها شيء مما هو غريب عنها، "وافية" لا يشذ عنها شيء من عناصرها الأصلية ولواحقها الكمالية، كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه، ففي كل جملة منه جهازٌ من أجهزة المعنى، وفي كل كلمة منه عضو من أعضائه، وفي كل حرف منه جزء بقدره، وفي أوضاع كلماته مـن جمله، وأوضاع جمله من آياته سر الحياة الذي ينتظم المعنى بأداته وبالجملة ترى كما يقول الباقلاني: محاسن متوالية وبدائع تترا"[1].

ومـن الأمـور التي تجلى فيها الإبداع في عرض الصور، ذلك التنوع في طرق عرضها، فلو أنعمنا النظر في قوله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ

---

١ - النبأ العظيم، د. محمد عبد الله دراز، ص ١١١-١١٢.

عذاب الأبد في النار... وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من حسن التشبيه، فكيف إذا تضمن مع ذلك حسن النظم، وعذوبة اللفظ، وكثرة الفائدة، وصحة الدلالة...[1].

إن الابداع في الصورة منبجس من هذا التعبير النابض بالحياة، ومن طبيعة العرض المثير ومن أسلوب المفاجأة، الذي يثير في النفس هزة وجدانية، ومن بُعد التصوير وقوة التخييل.

يقول الدكتور محمد حسين علي الصغير: " والبدوي الذي يتطلب الماء، فإن أخفق من تحصيله أخفق من حياته، وعاد يائساً، وهو في قيظ لا يرحم، وظماً لا يهدأ، فسكرات الموت حينئذ أقرب إليه من حبل الوريد، والمثل يصور أعمال الكافرين لمتطلب الماء فلا يجده، بالسراب الذي يشتد نحوه الظمآن فيفاجأ به وهو يظنه ماءً يروي غلته، أو يسد رمقه، وإذا به يذهل لفقدان الأمل بالماء، ووجد أن الله بالمرصاد مفاجأة أخرى ليست بالحسبان، وحينما يخفق من هذا الالتماع الخلّب في السراب الذي يحسبه ماء، تصدمه الظلمات المتراكمة في بحر شديد الأمواج يعلوه سحاب حتى يفقد حاسة البصر كما فقد حاسة البصيرة من ذي قبل"[2].

إن الإبداع في عرض الصورة النفسية منبجس من مصدر القوة في التصوير، و " مصدر القوة في التصوير نابع من داخل العبارة بمفرداتها الحية الموجبة بجرسها وحركاتها، وبتزاحم أفكارها، وقوة مغزاها، وما تحمله من إحكام في السبك والتناسق"[3].

قال تعالى: (حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ(٣١))[4].

إن ما تحدثه لفظ "خرّ" و"سحيق" و"تخطفه" من صوت صاخب، وسرعة في الحركة، تبعث على الاضطراب، وتثير المخيلة على تمثل صور شتى من الحركات والأوضاع والسمات.

---

(١) النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، الرماني، ص ٨٢.

(٢) الصورة الفنية في المثل القرآني، محمد حسين علي الصغير، ص ٢٠٦.

(٣) الإعجاز الفني في القرآن، عمر السلامي، ص ١٥٠.

(٤) الحج، ٣١.

كمـــا يـــبدو الإبـــداع -أيضاً- في قصر العرض، حتى ليبدو كلمح البصر، وتخـــتلف أســـباب القصر، تبعاً لاختلاف المواضع التي ترد فيها، وهو هنا قصر يناسب الحسم في الأمر، ألا و " إن جوّ الآية يوحي بقوة ضاغطة على النفس، من أعلى إلى أسفل، وتكاد تفتت كيانها"[1]، كلُّ ذلك يشكل الإبداع في العرض للصورة النفسية.

وقال تعالى: (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِـــنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ(١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ(١٨) أَوْ كَصَـــيِّبٍ مِـــنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّـــوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ(١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَـــا أَضَـــاءَ لَهُـــمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢٠))[2].

واضح رؤية الضلال النفسية، للتخبط في متاهات الضلال، ودياجير العمى، لإحاطـــة الظلمـــات بهم، "حتى فقدوا وسائل المعرفة الإنسانية التي تهيؤها عوامل الـــنقد الثقافي والتعليمي في السمع واللسان والبصر والعقل، فعادوا كمن استضاء بنار، فانطفأت عنه تلك النار فبقي متحيرا في أمره"[3].

ولعـــل الصـــورة الثانية من أشد وأشنع ما يصور به المنافقون، إذ المشهد حـــافل بضخامة التهويل، والإبداع في التصوير، ترسم فيه الصورة النفسية فراغ المنافقيـــن وتخـــبطهم وحيرتهم، " فهم في كزة من الاضطراب كمن قذفته السماء بمطـــر مـــتقاطر تدفعه ظلمات عاصفة بأصوات الرعد، ولمعان البرق، وسكون اللـــيل، فعـــادوا فـــي ظلمات متراكمة، ظلمة الغمام، وظلمة الليل، وظلمة المناخ، فانحجـــب عنهم الضياء تماماً، وتلاشى الأمان حتى بالغوا في إدخال أصابعهم في آذانهـــم نتـــيجة لاصطكاك الصواعق بأجرام السحاب، وما يحدثه ذلك من هزات

---

(١) الإعجاز الفني في القرآن، عمر السلامي، ص ١٥١.

(٢) البقرة، ١٧-٢٠.

(٣) الصورة الفنية في المثل القرآني، د. محمد حسين علي الصغير، ص ٣١.

وأصوات تقربهم من الموت، فهم يحذرونه ولات حين مناص، إذ أحاط الله بهم من كل جانب فأين يذهبون؟ والبرق يكاد يأخذ بأبصارهم ويستلب نورها كلمح البصر، وهم في هذه الحيرة لا يملكون من أمرهم شيئاً، ولم ينجح أي تدبير إلا بقدر ما يتيحه لهم البرق من مجال، فإذا أضاء لهم الطريق ساروا واستقاموا، وإذا سكن ارتج عليهم وثبتوا في مكانهم"[1].

ويزيد الموقف أن تختم رؤوس الآي بقوله: " والله محيط بالكافرين" وقوله: "إن الله على كل شيء قدير"، أي أن هذه الحوادث يؤكدها الحق سبحانه وتعالى بتعقيب يدع الضمير الإنساني يصدق تلقائياً، إذ ينقل النفس إلى حال وجدانية، تشعر فيها أنها أمام واقع محسوس تعدى الخيال إلى حقيقة يقينية.

هكذا تبدع الآيات في عرض الصور، وليس بعجيب، والقائل هو الله العالم بخفايا النفوس.

والمتدبر للقصص القرآني، فإنه يرى إبداعاً في عرض الصورة لا يقل عن الصور في آيات القرآن التي قام الباحث بدراستها.

فمن ذلك - مثلاً- قصة البقرة، قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ(٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ(٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ(٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ(٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ(٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنْ

---

(١) الصورة الفنية في المثل القرآني، ص ٣١٥-٣١٦.

الْحِجَــارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(٧٤))[١].

تعــرض الآيات قصة البقرة وبني إسرائيل، وقد أمروا بذبح بقرة لإخراج القاتل، بضرب بعضها المقتول ليحي ويخبر من قتله...الخ.

والمتدبر للآيات السابقة يرى إبداعاً في عرضها، ومقدرة كبيرة في الإثارة والتشويق.

لقــد بــدأت القصة بأسلوب الحكاية، ثم انتقلت إلى الخطاب والمواجهة، ثم التعقيــب بأداءٍ معبّر جميل، يكشف عن حكمة السياق الموضوعية في القصة، ثم الختم " وما الله بغافل عما تعملون" الذي يتضمن معنى التهديد والوعيد.

هكذا يبدو الإبداع في طريقة العرض وطريقة التصوير، التي تذكي الذهن، وتثير المخيلة للاستطلاع ما بين السطور يستكملها المتلقي بتصوره.

٣-التقابل:

من الخواص أو الظواهر التي تميزت بها الصورة النفسية في القرآن الكريم ، خاصــية الــتقابل أو المقابلــة ، وهي إحدى طرق العرض البارزة ، وسمة من ســمات الأســلوب القرآني التي يحرص عليها ، ولم يكن هذا الحرص من القرآن الكــريم ، لمجرد التنويع ، فحسب ، بل ، "لتحقيق حاجات النفوس جميعها والوفاء بمتطلباتها"[٢]، وأداء للغرض الديني الذي من أجله كانت آياته البينات ؛ لذا كانت خاصية التقابل من الوسائل والأساليب في الإقناع والإمتاع والاستدلال ، "فالمقابلة بين المعاني تزيدها في الفكر وضوحاً وفي النفس رسوخاً ، والمقابلة بين شيئين أو أمرين أو شخصين تكون ليعرف أيهما المؤثر في عمل معين ،وإذا ثبت أن التأثير لواحــد مــنهما كــان له فضــل التقدم على غيره ، وقد كان هذا النوع من ينابيع الاستدلال في القرآن الكريم"[٣].

---

(١) البقرة، ٦٧-٧٤.

(٢) الإعجاز الفني في القرآن ، عمر السلامي ، ص٢١٢.

(٣) المقابلة في القرآن الكريم ، د.بن عيسى باطاهر ، ص ٥٢ ، وهو نقله عن المعجزة الكبى للقرآن ، محمد أبو زهرة ، ص ٣٥٤ ، دار الفكر العربي.

وعـند التكلم عن ظاهرة التقابل في القرآن الكريم ، فإنه لا يقصد من ذلك الـتقابل بيـن أجـزاء الصورة بعضها بعضاً ، ولكن الذي يقصد هو التقابل بين الصورة ككل ، وصورة أخرى على نقيض ما هي عليه الصورة الأولى.

"لذلك كثرت وتنوعت صور التقابل في القرآن ، ولم تعد تقرع الأسماع أو ترتسـم في الأذهان صورة من الصور القرآنية إلا وتوقعت الآذان أن تسمع تلك الصـورة المقابلة المتوقعة ، والتفتت البصائر والأبصار إلى ما يثبت تلك الصورة المرتسـمة أمـام الأعين وعلى صفحات القلوب ، حتى ينجلي الفرق واضحاً بين الصورتين ، وبضدّها تتميز الأشياء"(١).

وهـذا يعنـي أن القـرآن يتخذ من المقابلة بين صورتين نفسيتين ، وسيلة للتوضـيح والتشـخيص والتأثـير ، بالإضافة إلى أن جمال العرض يزداد حسناً وروعة عندما يكون بصورة تقابلها صورة على النقيض منها تماماً.

فالمعانـي ترتسـم ، والطبائع تستجلى من خلال التقابل بين نفوس آدمية ، وذلك من روائع الطريقة القرآنية التي تحقق سموا بالنفس الإنسانية نحو الأنموذج الأمثل والأكمل.

يقـول الدكتور بن عيسى باطاهر : "وعرض الصورة وما يقابلها من شأنه أن يبرز المعنى ، ويقوي النظم ، ويساهم في البيان والتوصيل"(٢).

وقد وقف الباحث من قبل على نماذج من الصور النفسية في القرآن الكريم، على ثلاثة محاور ، هي : محور المؤمنين ، ومحور الكافرين ، ومحور المنافقين، إذ جـاءت تلـك النماذج في سورة واحدة ، وهي سورة البقرة ، لقد جاءت على التوالي دون فاصل ، ولو تدبرنا الآيات التي وردت فيها ، لوجدنا أن القرآن يقابل بيـن تلك الصور ، وبعد أن يقابل بينها يدعو الناس جميعاً إلى الصورة الأولى ، يدعوهـم أن يفيئوا إليها ويعبدوا خالقهم الواحد الأحد.(يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(٢١))(٣).

---

(١) الصورة الأدبية في القرآن الكريم ، د.صلاح الدين عبد التواب ،ص ١٣٥-١٣٦.

(٢) المقابلة في القرآن الكريم ، د. بن عيسى باطاهر ،ص ٧٦.

(٣) البقرة ، ٢١.

ففي الآيات من سورة البقرة (الم(١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(٤)أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٥)إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٧) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ(٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(٩)فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ(١٠)وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ(١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ(١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ(١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ(١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ(١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ(١٧)صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ(١٨)أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ(١٩)يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢٠)(١-٢٠) جاءت لتكشف النقاب عن حقيقة أو واقع ثلاث صور لثلاثة أنماط من النفوس ، "كل نمط منها أنموذج حي لمجموعات من البشر ، أنموذج أصيل عميق متكرر في كل زمان ومكان ، حتى ما تكاد البشرية كلها في جميع أعصارها وأقطارها تخرج عن تلك الأنماط الثلاثة ..وهذا هو الإعجاز.. في تلك الكلمات القلائل والآيات المعدودات ترتسم هذه الصورة واضحة كاملة ، نابضة بالحياة ، دقيقة السمات ، مميزة الصفات ، حتى ما يبلغ الوصف المطول والإطناب

المفصـــل شـــيئاً وراء هذه اللمسات السريعة المبينة ، الجميلة النسق ، الموسيقية الإيقاع"[1].

فأمـــا الصـــورة الأولى فهي صورة نفسية المؤمنين ، وهي تجمع صفات شعورية وجدانية إيجابية فعّالة ، بتخطيها حواجز الحس ، واتصالها بالقوة المطلقة وثقـــتها بمـــا يصـــدر عـــنها ، فكانت "ربانية التصور ، ربانية الشعور ، ربانية السلوك"[2].

هكـــذا فـــي تعبـــير موحٍ وصورة معبرةٍ لحالات نفسية دقيقة ممتلئة بالنور والإيمان.

أمـــا الصورة الثانية ، فهي صورة نفسية الكافرين ، "وهنا نجد التقابل بين صـــورة المتقيـــن وصـــورة الكافرين ..فإذا كان الكتاب بذاته هدىً للمتقين ، فإن الإنـــذار وعدم الإنذار سواء بالقياس إلى الكافرين ، إن النوافذ المفتوحة في أرواح المتقيـــن ، والوشـــائج التي تربطها بالوجود وبخالق الوجود ، وبالظاهر والباطن والغيـــب والحاضـــر ..إن هذه النوافذ المفتحة كلها هناك ، مغلقة كلها هنا ، وإن الوشـــائج الموصولة كلها هنا ك ، مقطوعة كلها هنا .. ختم عليها فلا تصل إليها حقيقة من الهدى ولا صدى ..فلا نور يوصوص لها ولا هدى ، وقد طبع الله على قلوبهم وعلى سمعهم وغشي على أبصارهم جزاء وفاقاً على استهتارهم بالإنذار ، حتى تساوى لديهم الإنذار وعدم الإنذار"[3].

وإذا كانت النهاية الطبيعية للأنموذج الأول الهدى والفلاح والنجاح والفوز ، فإن النهاية الطبيعية للأنموذج الثاني "ولهم عذاب عظيم"

ثـــم تأتـــي الصـــورة الثالثة وهي صورة نفسية المنافقين ، والملحوظ أنها استغرقت حيزاً أكبر من الحيِّز الذي استغرقته الصورة الأولى والصورة الثانية.

ولعـــل ذلـــك يعـــود لطبيعـــتها الملتوية ، فهي ليست كالأولى في صفائها وشـــفافيتها وسماحتها واستقامتها ، وليست كالثانية في عتامتها وصفاقتها ، ولكنها

---

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ج١ ، ص٣٧.

(٢) المرجع نفسه ، ج١ ، ص٤٠.

(٣) المرجع نفسه ، ج١ ، ص٤٢.

نفـــس ملتوية منحرفة مريضة معقدة قلقة أشد القلق ، فزعة أشدّ الفزع ،خائفة أشد الخـــوف ، مـــتأرجحة فـــي حـــال لقائها بالمؤمنين وفي حال خلوها بالشياطين ، مضطربة ، تعيش في حيْرة وخوف.. .الخ.

لذا تجد عناية القرآن في مزيد من البسط والتّفصيل ، ومزيد من الإيضاح ، كيما تتحدد وتعرف بسماتها ، هذا بالإضافة إلى خطورتها على الصف المؤمن.

وفـــي سورة الرعد –مثلاً– نجد قوله تعالى (أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ(١٩))[١].

يعمـــد إلى التقابل بين الصورتين ، لتبدو الصورة واضحة جلية. أجل ، لقد كـــان الموقف الأول : موقف رؤية وعلم ومعرفة ، وكان الثاني موقف عمى.يقول ســـيد قطب: "إن المقابل لمن يعلم أن أنزل من ربك هو الحق ليس هو من لا يعلم هذا ، إنما المقابل الأعمى! وهو أسلوب عجيب في لمس القلوب وتجسيم الفروق، وهو الحق في الوقت ذاته لا مبالغة فيه ولا زيادة ولا تحريف ، فالعمى وحده هو الـــذي ينشيء الجهل بهذه الحقيقة الكبرى الواضحة التي لا تخفى إلا على أعمى ، والـــناس إزاء هذه الحقيقة الكبيرة صنفان : مبصرون فهم يعلمون ، وعمى فهم لا يعلمون! والعمى عمى البصيرة ، وانطماس المدارك ، واستّغلاق القلوب ، وانطفاء قبس المعرفة في الأرواح ، وانفصالها عن مصدر الإشعاع.."[٢].

هكذا وجدنا هذه الآية قائمة على طريقة التقابل في العرض ، وهي تعرض أنموذجيـــن متقابليـــن من الناس ، كل أنموذج يمثل اتجاهاً عقدياً ، وقد كانت هذه الطـــريقة مـــن القرآن الكريم ، بُغية الكشف والإيضاح والبيان ، فالأنموذج الأول يمـــثل المؤمنين الذين يعلمون أن الذي أنزل إنما هو حق ليس فيه لبس ولا شك ، أمـــا الأنموذج الثاني فيمثل الكفار الذين أغلقوا أبصارهم وبالتالي أغلقوا بصائرهم عن شهود الحق ورؤية آيات الله الدالة على وحدانيته.

---

(١) الرعد ، ١٩.

(٢) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ج١٣ ، ص ٢٠٥٦.

واضـــح من هذه المقابلة وغيرها بين الإيمان والكفر ، إثبات التوحيد القائم علـــى الإيمان وكشف الدعائم الثابتة الراسخة التي يقوم عليها ، والازدراء بالكفر وكشف الدعائم الواهية التي تقوم عليها.

وأما فيما يخص القصص القرآني ، دعنا نتأمل قصة ابني آدم عليه السلام. قـــال تعالى :(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَـبَّلْ مِـنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ(٢٧) لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَـدَكَ لِتَقْتُلَنِـي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ(٢٨)إِنِّي أُرِيـدُ أَنْ تَـبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ(٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٣٠))[1].

هـــذه القصـــة في هذه الآيات الكريمة ، تقدم أنموذجين متقابلين ، أنموذجاً يمثل نفساً امتلأت حقداً وحسداً وشرًا وعدواناً ، عدواناً لا مبرر له ، وفي المقابل أنموذجاً يمثل نفساً امتلأت وداعة وطيبة وخيراً وسماحة ، سماحة المؤمن التقي.

والملحوظ من هذا التقابل ، قيمة فنية رائعة ، منشأها هذه الروعة في وجود الصـــورتين المتقابلتيـــن ، ولمـــا فيه من قدرة على التأثير والإقناع ، ولعلّ ذلك منـــبجس مـــن خـــلال عقد المقارنة أو المقايسة أو المفاضلة بينهما ، ليأتي الحكم النهائي موافقا ومنسجما للعلم والمعرفة التامة ، وفوق ذلك كله لتؤدي غرضاً دينياً في الاستدلال والبرهنة.

يقول الدكتور ابن عباس باطاهر : "تؤدي المقابلة دوراً كبيراً في الأسلوب القرائـــي ، فهـــي مـــن الأساليب القادرة على مخاطبة قوى النفس جميعها ، وذلك بتحريك قوة العقل ، وتنشيط قوة الشعور ، وتفعيل غريزة حبّ الاستطلاع ، وذلك لتلبـــية حاجـــات الـــنفس المـــتطلعة دائماً إلى المتعة الوجدانية ، والنكتة العقلية ، والراغـــبة فـــي الأسلوب الجميل ، والمعنى العميق. والمقابلة بانسجامها مع بقية الأســـاليب –وبخاصة أسلوب التصوير - تضفي جمالاً فنياً خاصاً على التعبير ، ومنشـــأ هذا الجمال وجود الصور المتقابلة ، والألوان المتباينة والنماذج البشرية المخـــتلفة ، والحقـــائق الدينـــية المتناقضة ، وغير ذلك من الأشياء المتضادة في

---

(١) المائدة ، ٢٧-٣٠.

طبائعها وأشكالها. ولا يتأتى هذا الجمال الفني في التعبير القرآني من مجرد الجمع بين الأشياء المتقابلة ، فذلك أمر ميسور في أساليب البشر ، بل إنه يتأتى من انسجام كامل بين الصورة وما يقابلها ، وتناسق جميع الأجزاء بعضها مع بعض ، حتى إذا حاولت أن تعرض جانباً واحداً من الصورة فقد الجانب الأخر رونقه وحسنه"(١).

٤- الإيجاز:

تكلم علماء البلاغة وغيرهم عن الإيجاز كثيراً، وصنفوا في ذلك الكتب اوالمؤلفات التي لا حصر لها، لما لهذه الظاهرة من تميُّز عن غيرها في الأساليب القرآنية، ولما لها من الفضل الكبير في البراعة والإتقان في فنون القول وأساليب الكلام، ومما يؤكد أهميتها قول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في ذلك: " أعطيت جوامع الكلم"(٢).

وعلى أية حال، فإن البحث ليس بصدد تتبع ما قاله العلماء في هذا الصدد، ويكفي الإشارة إلى ما ذكره يحي بن حمزة العلوي في كتابه "الطراز" حيث يقول: " هو في مصطلح أهل هذه الصناعة عبارة عن تأدية المقصود من الكلام بأقل من عبارة متعارف عليها، ثم إنه يأتي على وجهين، أحدهما القِصر، وهو الإتيان بلفظ قليل تحته معانٍ جمَّة، وهذا كقوله تعالى: (ولكم في القصاص حياة) [البقرة،١٧٩] فإنه قد دلّ على معناه بأوجز عبارة وأخصرها، وقد فاق على ما أُثر عن العرب في معناه من قولهم (القتل أنفى للقتل) من أوجه، من جهة إيجازه، فإن حروفه عشرة، وما قالوه أربعة عشر حرفاً، ومن جهة سلامته عن التكرار، ومن جهة تصريحه بالمقصود، وهو لفظ الحياة، ومن جهة بلاغة معناه، فإن تنكير الحياة أعظم جزالةً، وأبلغ فخامة، وغير ذلك من الأوجه التي تميز بها عن غيره، وكقوله تعالى: (من يعمل سوءا يجز به) [النساء،١٢٣] فهذا كلام مختصر وجيز دال على معناه بحيث لا يدرك إيجازه، ولا يُنال كنهه، ومنه قوله تعالى: (فَمَنْ يَعْمَلْ

---

(١) المقابلة في القرآن الكريم ،د.ابن عيسى باطاهر ، ص ٢٢٨-٢٢٩.

(٢) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ج٢، ص ٥٤.

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ(٧)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ(٨))[الزلزلة،٧-٨] وثانيهما إيجازُ بالحذف، ومثال قوله تعالى: (واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها) [يوسف،٨٢] فإن الغرض أهل القرية، ويتبع في ذلك الأمور المحذوفة من حذف علّة أو جواب شرط، كقوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٢٧)) [لقمان،٢٧] المعنى لتنفد كلمات الله ما نفدت، ومنه قوله تعالى:(وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْئَسْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ(٣١))[الرعد، ٣١] التقدير لكان هذا القرآن، وقوله تعالى:(وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧))[الأنعام، ٢٧] التقدير فيه لشاهدوا ما تقتصر العبارة عن كنهه، أو لتحسروا وانقطعت أفئدتهم، لأن المقام مقام تهويل، فلا بُدّ من تقديره كما ترى، وكقوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(٤٥)) [يس، ٤٥] التقدير فيه أعرضوا عن استماعه ونكصوا عن قبوله، ويدل عليه ما بعده، ومن أراد الإطلاع على حقيقة البلاغة من الإيجاز بالحذف، فعليه بتلاوة سورة يوسف، فإنه يجد هناك ما فيه شفاء لكل علّة، وبلالٌ لكلّ غُلّة"(١).

والإيجاز " ظاهرة بارزة تميز الصورة القرآنية دائماً عن غيرها من مختلف الأساليب، وهي أنه في تصويره يستثمر برفق أقل ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني، لا يجاوز سبيل القصد، ولا يميل إلى الإسراف ميلاً؛ بل كل مراميه تؤدَّى كاملة العناصر في أقل ما يمكن من الألفاظ، وليس فيه حرف واحد إلا جاء لمعنى. وفضلاً عن أن التصوير القرآني يتجنب الحشو والفضول البتة- فإنه فوق ذلك كله ينتقي الألفاظ الجامعة المانعة، التي هي - بطبيعتها اللغوية- أتم تحديداً للغرض وأعظم اتساعاً لمعانيه المناسبة"(٢)، بل نجد

---

(١)الطراز، يحي بن حمزة العلوي، ص ٥٤٦- ٥٤٧.

(٢) الصورة الأدبية في القرآن الكريم، د. صلاح الدين عبد التواب، ص ١٤٠.

الأمر يزيد على ذلك بكثير، إذ نجد تصوير القرآن يعمد إلى الإيجاز " سبيلاً أعز وأعجب. فلقد تراه يعمد - بعد حذف فضول الكلام وزوائده- إلى حذف شيءٍ من أصـــوله وأركانـــه التي لا يتم الكلام في العادة بدونها، ولا يستقيم المعنى إلا بها، ولقد يتناول بهذا الحذف كلمات وجملاً كثيرة متلاصقة متفرقة في القطعة الواحدة، ثـــم تـــراه في الوقت نفسه يستثمر تلك البقية الباقية من اللفظ في تأدية المعنى كله بجـــلاء ووضوح، وفي طلاوة وعذوبة، حتى يخيل إليك من سهولة مسلك المعنى في لفظة أن لفظه أوسع منه قليلاً. فإذا ما طلبت سرَّ ذلك رأيته قد أودع معنى تلك الكلمـــات أو الجمـــل المطوية في كلمة هنا وحرف هناك، ثم أدار الأسلوب إدارة عجيبة وأمرَ عليها جندرة البيان بيد صانع، فأحكم بها خلقه وسواه. ثم نفخ فيه من روحـــه فإذا هو مصقول أملس، وإذا هو نيرٌ مشرق، لا تشعر النفس بما كان فيه من حذف وطيّ، ولا صار إليه من استغناء واكتفاء، إلا بعد تأمل وفحص دقيق.

لا نكـــران أن العـــرب كانـــت تعرف الحذف في كلامها، وترى ذلك من الفضيلة البيانية متى قامت الدلائل اللائحة على ذلك المحذوف ولو كان من أجزاء الجملـــة ومقوماتها. فإذا قيل للعربي: أين أخوك؟ قال: في الدار. وإذا قيل له: من فـــي الـــدار؟ قـــال: أخـــي. ولو قال أخي في الدار، لعدَّ ذلك منه ضرباً من اللغو والحشو. ولكن الشأو الذي بلغة القرآن في هذا الباب- كغيره من أبواب البلاغة- ليس متناول الألسنة والأقلام، ولا في متناول الأماني والأحلام. خذ لذلك مثلاً قوله تعالى: (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(١١))[1] فالآية مسوقة في شأن منكري البعث الـــذي قـــال لهم النبي: إني رسول الله إليكم وإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقـــالوا متهكمين: (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذاب أليم)[2].

فلمـــا لـــم يجبهم الله إلى اقتراحهم وأخر عنهم العذاب إلى ساعته المحدودة أطغـــاهم طول الأمن والدعة والعافية الحاضرة حتى نسوا ريب الدهر وأمنوا مكر

---

(١) يونس، ١١.

(٢) الأنفال، ٣٢.

الله، فجعلوا يستعجلون بالشر استعجالهم بالخير ويقولون: متى هو؛ وما يحبسه لو كـــان آتياً؟ أراد القرآن أن يقول في جواب هذا الاستعجال:- لو كانت سنة الله قد مضت بأن يعجل للناس الشر إذا استعجلوه، كتعجله لهم الخير إذا استعجلوه، لعجله لهـــؤلاء. ولكـــنه قد جرت سنته التي لا تتبدل بأن يمهل الظالمين، ويؤخر حسابهم إلى أجل مسمى. وعلى وفق هذا النظام المسنون سيترك هؤلاء وشأنهم حتى يجيء وقتهم.

هـــذا هو الوضع الذي يوضع عليه الكلام في ألسنة الناس وفي طبيعة اللغة لتأدية المعنى الإجمالي الذي ترمي إليه الآية. فانظر ماذا جرى؟

(١) كـــان الكـــلام في وضعه العادي مؤلفاً من قضايا ثلاث: اثنتان منها بمثابة المقدمـــات. والثالثة بمنزلة النتيجة. فاقتصر القرآن على الأولى والأخيرة. أما الوسطى وهي الاستدراك -أو الاستثنائية كما يسميها علماء المنطق -فقد طواها طيّاً.

(٢) وكانت المقدمة الأولى في وضعها الساذج تتألف من أربعة أطراف: تعجيل من الله في الخير وفي الشر، واستعجال من الناس كذلك. ولكن الكلام ههنا ليس فيه إلا تعجيل واحد من الله، واستعجال واحد من الناس.

(٣) وكانـــت المقابلة في التشبيه بحسب الظاهر إنما هي بين تعجيل وتعجيل. أو بيـــن استعجال واستعجال. فأدير الكلام في الآية على وجه غريب، وجعلت المشابهة بين تعجيل واستعجال.

وبعـــد هذا التصرف كله هل ترى كلاما مبتوراً أو طريقاً ملتوياً يتعثر فيه الفهـــم؟ أم ترى مغزى الآية لائحاً للعامة والخاصة، كالبدر ليس دونه سحاب"؟[1]

"إن تصوير القرآن لم يدع تلك المقدمة المطوية إلا بعد أن أحاطها من جانبيها بما يدل عليها، ويوحي بها إلى النفس من وراء حجاب، فقد أقام عن يمينها كلمة (لو) الامتناعية التي صدر بها المقدمة الأولى؛ دلالة على أنه لا يكون منه هذا التعجيل، وعـــن يســـارها حرف التفريع، وهو الفاء التي صدر بها النتيجة في قوله (فَنَذَرُ)؛ لكي ينمّ على أن لهذا الفرع أصلاً من جنسه، يقال فيه: ولكن شأنه أن يذر الناس،

---

(١)النبأ العظيم، د. محمد عبد الله دراز، ص ١٣٦-١٣٨.

فلذلك يذر هؤلاء ولما كانت الفاء وحدها ليست نصاً في المطلوب؛ لأنها كما تكون للتفريع تكون لمجرد العطف- فربما اتصل القارئ عاطفاً- لم يكتف بالفاء؛ بل عززها بقوتين أخريين؛ إذ حوّل صيغة النتيجة من الماضي إلى المضارع، ثم من الغيبة إلى التكلم؛ ليكون هذا الانقطاع اللفظي بينها وبين ما قبلها؛ إيذانا بانقطاعها عنه بمعنى، وإذْنا بالوقوف دونها، حتى لا تقع النفس لحظة ما في أدنى اضطراب أو لبس، ذلك إلى ما في هذا التحويل من الافتنان في الأسلوب؛ تجديداً لنشاط السامع، ومن إلقاء الرّعب في القلوب ، بصدور نطق الوعيد والاستدراج على لسان الجبروت الإلهي نفسه.

ثم إنه لما حذف طرفين من الأطراف الأربعة، لم يحذفهما من جنس واحد، بل أبقى من كل زوجين واحداً، هو نظير ما حذفه من صاحبه؛ لينبِّه بالمذكور على المحذوف، فكانت كلمة "التعجيل" منبِّهة على نظيرتها في المشبه به، وكلمة "الاستعجال" منبهة كذلك على مقابلتها في المشبه.

كذلك نبّه ذلك التصوير القرآني على معنى هو غاية في اللطف، وهو سرُّ الإمهال، وحكمة عدم التعجيل من الله، وذلك حين صدر هذا التعجيل المفروض بصورة تشبه التماس الطالب، وحرصه الشديد على إرضاء شهوته وسدِّ حاجته الملّحة، التي تبعثه على استعجاله، لا سيما إذا كان يطلب الخير لنفسه، كأنه قيل: إنه تعالى لو عجل لهم ذلك لكن مثله بهذا التعجيل كمثل هؤلاء المستعجلين في استفزاز البواعث إياه... وحاشا لله.

أضف إلى هذا، أن كلمة "لو" -بحسب وضعها وطبيعة معناها- تتطلب أن يليها فعل ماضٍ، ولكن المطلوب ههنا ليس هو المعنى نفسه فحسب، بل بيان أن هذا الفعل خلاف سنة الله التي لن تجد لها تبديلا، فلو أدى هذا المعنى على هذا الوضع لطال الكلام، ولقيل: " لو كانت سنة الله المستمرة في خلقه أن يعجل للناس الشر استعجالهم بالخير... الخ" فانظر كيف اختصر الكلام في لفظ واحد، بإخراج الفعل في صورة المضارع الدال على التكرار والاستمرار، واكتفى بوضع كلمة "لو" قرينة على أن بعدها ماضٍ في معناه، وهكذا أدى الغرضين معاً في رفق ولين ... على هذا الوضع كان الإيجاز في القرآن. ولو ظفر الإنسان بواحدة واحدة من

هذه التصرفات العجيبة، ففي أي أسلوب غير أسلوب القرآن يظفر بهذه المجموعة من التصرفات، أو بما يدانيها في هذا القدر، أو في ضِعْفِيَهْ، من الألفاظ))[1].

وبعد هذا، دعنا نقف على نماذج في إيجاز القرآن الرائعة، فيما يخص الصورة النفسية فمن ذلك- مثلاً- قوله تعالى (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ(٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ لَبَتْ(٢٨٦))[2].

هاتان الآيتان ختام لسورة البقرة، والمتدبر لهما يدرك أنهما تلخيص واف لتلك السورة الكبيرة العظيمة، وهو ختام يتناسق مع مضامينها ومع بدئها، "وفي هاتين الآيتين كل كلمة لها موضعها ولها دورها ولها دلالتها الضخمة، وهي قائمة في العبارة لتمثيل ما وراءها-وهو كبير- من حقائق العقيدة... من طبيعة الإيمان في هذا الدين وخصائصه وجوانبه، ومن حال المؤمنين به مع ربهم، وتصورهم لما يريده-سبحانه- منهم، وبالتكاليف التي يفرضها عليهم، ومن التجائهم إلى كنفه واستسلامهم لمشيئته وارتكازهم إلى عونه.. نعم.. كل كلمة لها دورها الضخم بصورة عجيبة))[3].

فقوله تعالى: "آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون"، "شامل لجميع ما أنزل إليه من الله تعالى، من العقائد وأنواع الشرائع وأقسام الأحكام في القرآن

---

(١)الصورة الأدبية في القرآن الكريم، د. صلاح الدين عبد التواب، ص ١٤٢-١٤٤، وهو نقله عن النبأ العظيم، للدكتور محمد دراز بتصرف.

(٢)البقرة، ٢٨٥-٢٨٦.

(٣)في ظلال القرآن، سيد قطب، ج٣، ص ٣٤٠.

وغيره، آمن بأن ذلك وحي من الله وصل إليه، وقدّم الرسول لأن إيمانه هو المتقدم وإيمان المؤمنين متأخر عن إيمانه، إذ هو المتبوع وهم التابعون في ذلك"[1].

والإيمان بالله " هو التصديق به وبصفاته، ورفض الأصنام وكل معبود سواه"[2] وهو " إفراده-سبحانه- بالألوهية والربوبية والعبادة، ومن ثم إفراده بالسيادة على ضمير الإنسان وسلوكه في كل ما أمر من أمور الحياة، ليس هناك شركاء-إذن- في الألوهية أو الربوبية. فلا شريك له في الخلق. ولا شريك له في تصريف الأمور، ولا يتصرف في تصريفه للكون والحياة أحد، ولا يرزق الناس معه أحد. ولا يضر أو ينفع غيره أحد، ولا يتم شيء في هذا الوجود صغيراً كان أم كبيراً إلا ما يأذن به ويرضاه، وليس هناك شركاء في العبادة يتجه إليهم الناس، لا عبادة الشعائر ولا عبادة الخضوع والدينونه، فلا عبادة إلا لله، ولا طاعة إلا لله ولمن يعمل بأمره وشرعه، فيتلقى سلطانه من هذا المصدر الذي لا سلطان إلا منه، فالسيادة على ضمائر الناس وعلى سلوكهم لله وحده بحكم هذا الإيمان، ومن ثم فالتشريع وقواعد الخلق، ونظم الاجتماع والاقتصاد لا تتلقى إلا من صاحب السيادة الواحد الأحد... من الله ... فهذا هو معنى الإيمان بالله"[3].

"والإيمان بملائكته: هو اعتقاد وجودهم وأنهم عباد الله، ورفض معتقدات الجاهلية فيهم"[4]، وهو إيمان بحقائق الغيب، " والإيمان بكتبه: هو التصديق بكل ما أنزل على الأنبياء الذين تضمنهم كتاب الله، وما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك، والإيمان برسله: هو التصديق بأن الله أرسلهم لعباده"[5].

وأما قوله " سمعنا وأطعنا" فيتمثل " بالسمع لكل ما جاء من عند الله، والطاعة لكل ما أمر به الله، فهو إفراد لله بالسيادة... والتلقي منه في كل أمر"[6].

---

(١) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ج٢، ص ٣٧٨.

(٢) المرجع نفسه، ج٢، ص ٣٧٩.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج٣، ص ٣٤١.

(٤) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ج٢، ص ٣٧٩.

(٥) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ج٢، ص ٣٧٩.

(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج٣، ص ٣٤٣.

وأمـــا قولـــه: "غفرانك ربنا" فيتمثل " بالشعور بالتقصير والعجز عن توفيه آلاء الله حـــق شـــكرها، وفرائض الله حق أدائها والالتجاء إلى رحمة الله لتتدارك تقصيرهم وعجزهم بسماحتها"(١).

وأمـــا قولـــه: "إليك المصير"، "إقرار بالمعاد، أي وإلى جزائك المرجع"(٢)، "وهذا القول يتضمن الإيمان باليوم الآخر، والإيمان باليوم الآخر هو أحد مقتضيات الإيمان بالله"(٣).

وأمـــا قوله: " لا يكلف الله نفساً إلا وسعها"، فالوسع: " ما يسع الإنسان ولا يضيق عليه ولا يحرج فيه، أي لا يكلفها إلا ما يتسع فيه طوقه ويتيسر عليه دون مدى الطاقة والمجهود، وهذا إخبار عن عدله ورحمته"(٤).

وأمـــا قولـــه: " لهـــا مـــا كسبت وعليها ما اكتسبت"، " أي ما كسبت من الحسنات، واكتسبت من السيئات"(٥).

وأمـــا قولـــه تعالى: " ربنا لا تؤآخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل عليـــنا إصـــراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعـــف عـــنا واغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا، فانصرنا على القوم الكافرين" على إضمار القول، "أي قولوا في دعائكم ربنا لا تؤاخذانا، والدعاء مُخُّ العبادة"(٦)، وأما "الإصر" فهو: "العهد والميثاق الغليظ، كما ذكره ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي وابـــن جريج والربيع وابن زيد، وقال ابن زيد أيضاً: الإصر الذنب الذي لا كفارة فيه ولا توبة منه، وقال مالك: الإصر الأمر الغليظ الصعب"(٧).

وفـــي قوله: "فانصرنا على القوم الكافرين" إشارة واضحة إلى أن المعركة قائمة بين الحق والباطل والإيمان والكفر، إلى يوم الدين.

---

(١) المرجع نفسه، ج٣، ص ٣٤٣.

(٢)البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ج٢، ص ٣٨٠.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج٣، ص ٣٤٤.

(٤) الكشاف، الزمخشري، ج١، ص ٣٢٧.

(٥)البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ج٢، ص ٣٨١.

(٦) المرجع نفسه، ج٢، ص ٣٨٢.

(٧)البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ج٢، ص ٣٨٣-٣٨٤.

فانظـــر – رعاك الله– كم من المعاني اشتملت عليه هاتان الآياتان الجامعتان هذا بالإضافة إلى كثير من الإشارات والإيحاءات التي لا حصر لها.

ومن هذا النوع ما عبّر به القرآن الكريم عندما أراد تصوير حال الكافرين في دعائهم من لا يعقل ولا يسمع.

قال تعالى: (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ(١٧١))[١]، إذ نلحظ حذف المضاف وإقامة المضاف إلـــيه مقامـــه، إذ ((أصل الجملة: ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يســـمع، ثم حذف المضاف، وهو (داعي)، رفعاً لشأنه في اللفظ عن أن يقرن بهذا الذي ينعق بما لا يسمع، وبقي المراد، وهو أن هؤلاء الكفار صم بكم عمي فهم لا يعقلون))[٢].

ومـــثل ذلـــك كثـــير في القرآن الكريم، وذلك لأغراض شتى تفهم من هذا الحذف.

ومـــن صور الإيجاز البالغة الروعة ما عبر به القرآن عندما أراد تصوير حـــال إخـــوة يوسف عليه السلام، " وقد احتجز أخوهم الأصغر في مقابل صُواع الملـــك، ونفـــذت منهم الحيل في سبيل استرداد أخيهم (فلما استيئسوا منه خلصوا نجيًا) [يوسف، ٨٠] وهم يدركون بذلك أنهم يفرطون للمرة الثانية في أحب الأبناء إلـــى أبـــيهم، فكـــان أن اجتمعوا حول أنفسهم ليروا كيف الخروج من هذا المأزق الحرج، فلم يكن أصدق وأعمق من هذا التعبير المصور أو التصوير المعبر لحالهم وقد جمع كل ما يتوارد في أفكارهم (فلما استيئسوا منه خلصوا نجيًا)، أي اعتزلوا وانفـــردوا عـــن الناس خالصين لنجواهم، لا يخالطهم سواهم، فأبرزتهم الآية وقد تمحّضوا للنجوى كأنهم في أنفسهم صورة التناجي وحقيقته"[٣].

---

(١) البقرة، ١٧١.

(٢) روح المعاني، الألوسي، ج١، ص ٤٣٨.

(٣) الصورة الأدبية في القرآن الكريم، د. صلاح عبد التواب، ص ١٤٦.

ومن أمثلة هذا النوع قوله تعالى: (أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ(١٩))[١].

والمعنى: " أن حال من علم إنما أنزل إليك من ربك الحق، فاستجاب، بمعزل من حال الجاهل الذي لا يستبصر فيستجيب، كبعد ما بين الزبد والماء والخبث والإبريز، ثم ذكر أنه لا يتذكر بالموعظة وضرب الأمثال إلا أصحاب العقول"[٢].

على أننا لو تتبعنا كل الآيات التي أوردناها في الفصل الأول، لوجدنا إيجازاً متنوعاً، ولطال بنا المقام.

وهكذا تأتي خاصية الإيجاز في القرآن الكريم، وفيما يخص الصورة النفسية لتدل على أن الحذف أو القصر، قد يكون أبلغ من الذكر، وذلك ليبقى للمتلقي دوراً في إعمال الفكر واستخدام طاقة الخيال لرؤية ما يوحي به النص، فيدرك مغزى المحذوف ويستجلي معاني النص، " فما أروعه من إيجاز وما أبدعه من حذف يشير دائماً ما بين السطور!"[٣].

٥- الإقناع العقلي والإمتاع الوجداني:

ومن أهم ما تمتاز به الصورة النفسية في القرآن الكريم، أنها تخاطب العقل والوجدان معاً، فهي إذ تثير العاطفة تحرك العقل وتنشط الحس، ولهذا المزج للصورة النفسية بين الإقناع العقلي، والتأثير الوجداني، أهمية بالغة في الإمتاع الوجداني، "وقد أشار الدارسون إلى أن هذه الخاصية تنسحب على الآيات والسور القرآنية جميعها، فقيل إن القرآن بأسلوبه يشبع العقل والعاطفة، فهو يأتي بالحقيقة البرهانية الصارمة بما يرضي أولئك الفلاسفة المتعمقين، ومن المتعة الوجدانية بما يرضي أولئك الشعراء المرحين، فكانت الموازنة بين حاجات القلب وحاجات العقل، في المزج بين الحق والجمال، وإعطاء حق العقل من الحكمة والعبرة

---

(١) الرعد، ١٩.

(٢)البحر المحيط، أبو حيان الأندلس، ج٥، ص ٣٧٥.

(٣) الصورة الأدبية، د. صلاح الدين عبد التواب، ص ١٥٤.

والـــبرهان، وحـــق القلـــب من التشويق والترقيق والتعجيب والتهويل والترغيب والترهيب"[1].

ومعروف أن " في النفس الإنسانية قوتان: قوة تفكير، وقوة وجدان وحاجة كـــلّ واحدة منهما غير حاجة أختها، فأما إحداهما فتنقب عن الحق لمعرفته، وعن الخـــير للعمـــل بـــه، وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم، والبيان التام هو الذي يوفي لك هاتين الحاجتين، ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين، فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معاً.

لقد عرفنا كلام العلماء والحكماء، وعرفنا كلام الأدباء والشعراء فما وجدنا مـــن هؤلاء ولا هؤلاء إلا علوّاً من جانب، وقصوراً في جانب، فأما الحكماء فإنما يـــؤدون إلـــيك ثمـــار عقولهم غذاءً لعقلك، ولا تتوجه نفوسهم إلى استهواء نفسك واخـــتلاب عاطفتك. فتراهم حين يقدمون إليك حقائق العلوم لا يأبهون لما فيها من جفـــاف وعرى ونبو عن الطباع، وأما الشعراء فإنما يسعون إلى استثارة وجدانك، وتحـــريك أوتـــار الشعور من نفسك. فلا يبالون بما صوروه لك أن يكون غياً أو رشداً، وأن يكون حقيقة أو تخيلاً. فتراهم جادين وهم هازلون. يستبكون وإن كانوا لا يبكون، ويُطرِبون وإن كانوا لا يطربون،(والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون)[2].

وكـــل امـــرئٍ حين يفكر فإنما هو فيلسوف صغير. وكل امرئٍ حين يحس ويشـــعر فإنما هو شاعر صغير، فسل علماء النفس: هل رأيتم أحداً تتكافأ فيه قوة التفكير وقوة الوجدان وسائر القوى النفسية على السواء؟ ولو مالت هذه القوى إلى شـــيءٍ مـــن التعادل عند قليل من الناس فهل ترونها تعمل في النفس دفعة وبنسبة واحدة؟ يجيبوك بلسان واحدة كلا، بل لا تعمل إلا مناوبة في حال بعد حال، وكلما تســـلطت واحـــدة منهـــن اضمحلت الأخرى وكاد ينمحي أثرها. فالذي ينهمك في التفكـــير تتـــناقص قوة وجدانه، والذي يقع تحت تأثير لذة أو ألم يضعف تفكيره.

---

(١)حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية ٢٢، ٢٠٠٢،٢٠٠١، د. بن عيسى با طاهر، ص ٥٢.

(٢)الشعراء، ٢٤٤ وما بعدها.

وهكذا لا تقصد النفس الإنسانية إلى هاتين الغايتين قصداً واحداً، وإلا لكانت مقبلة مدبرة معاً. وصدق الله: (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ)[1].

هذا مقياس تستطيع أن تتبين به في كل لسان وقلم: أي القوتين كان خاضعاً لهـا حين قال أو كتب. فإذا رأيته يتجه إلى تقرير حقيقة نظرية أو وصف طريقة عملـية؛ قلـت: هذا ثمرة الفكرة، وإذا رأيته قد انتقل من أحد هذين الضربين إلى الآخر فتفرّغ له بعد ما قضى وطره من سابقه، كما ينتقل من غرض إلى غرض، عرفت بذلك تعاقب التفكير والشعور على نفسه.

وأمـا أن أسلوباً واحداً يتجه اتجاهاً واحداً ويجمع في يديك هذين الطرفين معـاً، كمـا يحمل الغصن الواحد من الشجرة أوراقاً وأزهاراً وأثماراً معاً، أو كما يسـري الروح في الجسد والماء في العود الأخضر، فذلك ما لا تظفر به في كلام بشر، ولا هو من سنن الله في النفس الإنسانية، فمن لك إذاً بهذا الكلام الواحد الذي يجـيء من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يرضي حتى أولئك الفلاسفة المتعمقين. ومـن المتعة الوجدانية الطيبة بما يرضي حتى هؤلاء الشعراء المرحين؟ ذلك الله رب العالميـن، فهـو الذي لا يشغله شأنٌ عن شأن، وهو القادر على أن يخاطب العقـل والقلـب معاً بلسان، وأن يمزج الحق والجمال معاً يلتقيان ولا يبغيان، وأن يخرج من بينهما شراباً خالصاً سائغاً للشاربين، وهذا هو ما تجده في كتابه الكريم حيثما توجهت"[2].

ففي خضم البراهين والاحتجاج بالأمور العقلية وإجالة النظر بلمس البداهة وإيقـاظ الفكـر، ينفذ مباشرة إلى الوجدان بالتشويق والتحذير والتبكيت... الخ. إن طريق القرآن " إلى العقل هو ذات الطريق إلى القلب والوجدان، واتخذ لذلك وسيلة التصـوير، فبلغ الغاية بمادته وطريقته، وجمع بين الغرض الديني والغرض الفني من أقرب طريق ومن أرفع طريق"[3].

---

(١) الأحزاب، ٤.

(٢) النبأ العظيم، د. محمد عبد الله دراز، ص ١١٣-١١٦.

(٣) الصورة الأدبية في القرآن الكريم، د. صلاح الدين عبد التواب، ص ١٨٧.

لقـد أثبـت التعبير القرآني الذي يخص الصورة النفسية، مخاطبة العقل- بطـريقة الاستدلال والمحاججة، لإبطال الباطل وإحقاق الحق، ودفع الشبهة وإقامة الحجـة-ومخاطبة القلب- بما يثير في النفس انفعالات وجدانية، تسرح داخله وفي أعماقه فتملك عليه عواطفه وتمسك بمشاعره وتشدها شداً، وبالتالي تعالج ما يعتلج فـيها مـن آمـال ومخـاوف، ويأس ورجاء-بأساليب الإنذار والتبشير والتبكيت والتشويق والترقيق والتحذير...الخ.

تـأمل-رعاك الله- قوله تعالى(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْـآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ(٣٩)أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَـاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ(٤٠)) [1].

إن فـي الآيتيـن ألفاظاً كما هو باد، منتزعة من مظاهر الطبيعة الأرضية، فالسـراب ظاهـرة طبيعية يظهر في أرض مكشوفة مبسوطة، يهرع إليه الظمآن وهو يتوقع الري وحينما تتكشف له الحقيقة المرّة، يفاجأ بالخيبة والحرمان، إذ هو التماع كاذب.

من الملحوظ أن الآية قد وظفت للكشف عن الصورة النفسية للكفار، وكأن الآيـة تدعـو المتلقي إعمال الفكر لعقد المقارنة بين هذه الظاهرة وبين ما يعتقده الكافر في أعماله من منفعة.

وفي المشهد الثاني: صورة مطبقة بظلمات متراكمة من لج البحر في هديره وأهوالـه وتتدافع أمواجه، وتلاطم جوانبه، والسحاب في رعده وصواعقه، والليل في اشتداد سواده، وهي صورة مفزعة مهولة منتزعة-أيضاً- من مظاهر الطبيعة الأرضية، تنم عن فقدان الأمل في الخلاص، والمحلوظ أنها تدعو المتلقي لإعمال الفكر في عقد المقارنة بينها وبين آمال الكفار وأحلامهم في الخلاص.

ولو دققنا النظر في الآيتين، لوجدنا أنهما سيقتا بما يقنع من الدليل الواضح والـبرهان القـاطع، وذلك " بعقد الموازنة الحسية أو المعنوية الدقيقة التي لا تدع

---

(١) النور، ٣٩-٤٠.

مجـــالا لشـــك"[1] ومن بديع هذه الصورة أنها ما احتوت عليه من مخاطبة العقل، نـــراها تخاطـــب الوجـــدان، فتثـــير فـــيه انفعالات تسيطر على القوى الشعورية لديه،ويـــتجلى ذلك من خلال قوله: (حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده، والله سريع الحساب).

وقوله: (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور).

وهكـــذا، فقـــد اشـــتركت مظاهر الطبيعة الأرضية مع الأحاسيس الفطرية اشتركت في مخاطبة العقل ولمس الوجدان معاً.

ومـــما هو أصل في موضوعنا-أيضاً- الصورة النفسية للمنافقين[2]، إذ في هـــذه الصورة " انتقال بالسامع من حالة ذهنية ذات طابع نفسي وهي النفاق-وهو ســـتار داخلـــي كثـــيف- إلى التصوير بمدركات مادية تعتمد المظاهر في الكون والفضـــاء، كالاستضـــاءة والـــنار والظلمات، وتقترن بحالات حسية وهي الصم والخـــرس والعمى في المثل الأول. وفي المثل الثاني نشاهد التقلبات الجوية بارزة فـــي التمثـــيل على أثر ذلك المناخ المظلم، مطر من السماء، ظلمات، رعد، برق، صـــواعق. وبالمدركـــات البصـــرية والتحرك: أضاء، مشوا، أظلم، قاموا. وكلها أدوات تشخيصية بما هو محسوس، إلا أن الظاهرة الكونية بعمومها وخصوصيتها أبرز تصويراً في المثلين. وهذا الإدراك الحسي المعبر يشكل نوعاً من الاستجابة تـــتلخص فـــي خلع معان ودلالات على تأويل المنبهات الحسية وذلك عن طريق الانفعال المباشر الذي تضفيه هذه الدلالات والمعاني على حواس الإنسان"[3].

ومـــن الملحوظ في الآيات أن الصورة حسية-ظواهر كونية- لأمر معنوي -صـــورة نفسية- أو واقع حال المنافقين، وهذه الصورة مع ما تحدثه من إعمال فكـــر وتدبـــر، تثير شعور الخوف والهلع، بما تضيء على حالات القلق والفزع والاضطراب.

---

(١) الصورة الفنية في المثل القرآني، د. محمد حسين علي الصغير، ص ٣٧٠.

(٢) البقرة، ١٧-٢٠.

(٣) الصورة الفنية في المثل القرآني، ص ٣٦٦.

ومـــن المعلوم أن الاستدلال بالشاهد على الغائب أحد أقسام الأدلة، فالآيات بعـــد أن عرضـــت الأدلة التي تتساوق مع كل هذه المعاني في منطق دقيق وحجة دامغـــة واستشهاد بديع، لا يدع مجالاً للشك أو الظن أو الشبهة، نجدها في الوقت ذاته تدخل إلى أعماق النفس فتثير فيها انفعالات وجدانية وشعورية بما توحيه من خلال هذا الظل الذي يرافق التعبير.

٦- قوة البيان ودقة الإجمال:

ومـــن خـــواص الصورة النفسية في القرآن الكريم، ما تمتاز به من البيان الواضـــح الجلي القوي، وفي الوقت نفسه ما تكون عليه من إجمال دقيق، " وهذه عجيبة أخرى تجدها في القرآن ولا نجدها فيما سواه، ذلك أن الناس إذا عمدوا إلى تحديـــد أغراضهم لم تتسع لتأويل، وإذا أجملوها ذهبوا إلى الإبهام أو الإلباس، أو إلى اللغو الذي لا يفيد، ولا يكاد يجتمع لهم هذان الطرفان في كلام واحد.

وتقرأ القطعة من القرآن فتجد في ألفاظها من الشفوف، والملاسة والإحكام والخلو من كل غريب عن الغرض ما يتسابق به مغزاها إلى نفسك دون كدٍّ خاطر ولا اســـتعادة حديث، كأنك لا تسمع كلاماً ولغات، بل ترى صوراً وحقائق ما ثلة، وهكـــذا يخـــيل إليك أنك قد أحطت به خبراً ووقفت على معناه محدوداً، هذا ولو رجعـــت إليه كرة أخرى لرأيتك منه بإزاء معنى جديد، غير الذي سبق إلى فهمك أول مـــرة، وكذلـــك حتى ترى للجملة الواحدة أو للكلمة الواحدة وجوهاً عدة، كلها صحيح أو ومحتمل للصحة، كأنما هي فص من الماس يعطيك كل ضلع منه شعاعاً فـــإذا نظـــرت إلى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطيف كلها، فلا تدري ماذا تأخذ عيـــنك ومـــاذا تدع، ولعلك لو وكلت النظر فيها إلى غيرك رأى منها أكثر منه ما يُسرّ له؛ بل ترى محيطاً مترامي الأطراف لا تحده عقول الأفراد ولا الأجيال"[1].

---

(١) النبأ العظيم، د. محمد عبد الله دراز، ص ١١٧-١١٨.

ولنقرأ قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ(٢٧٣)﴾ (١).

فهل ترى كلاماً أبدع وأبين وأدق وأمتن من هذا في عقول الناس؟ إنها - حقاً- عجائب بيانية لا يمكن لأي بشر أن ينال مثلها، إنها تؤدي لك المعنى الوافر الغني البيّن في لفظ قاصد نقي دقيق.

ولو تدبرنا هذه الآية لوجدنا أنها تتلخص فيما يلي:

١- مقالة ينصح بها المؤمنين بالإنفاق في سبيله. إذ يدعوهم إلى الإنفاق على الفقراء.

٢- إشارة تتضمن واجب المؤمن تجاه أخيه المؤمن من تفقد لأحواله من خلال حاله، وهذا يتطلب فراسة وفطنة تكفي المحتاج السؤال عن سؤاله.

٣- إشارة إلى أن هناك من المؤمنين من حبسوا أنفسهم عن الضرب في الأرض والأخذ بأسباب العيش، مع حاجتهم الملحة لذلك، حبسوا أنفسهم لما هو أعظم وأسمى من ذلك بكثير، ألا وهو الجهاد، بمعنى أنهم حبسوا أنفسهم طوعاً وبإرادتهم. أو أنهم أكرهوا على ذلك من أمرٍ خارج عن إرادتهم.

٤- إشارة تدل على المدح والثناء لهذه الطائفة التي تعففت وترفعت عن السؤال، ثم وهبت نفسها في سبيل الله.

٥- إشارة تدل على أن هذا الأنموذج في الحياة يجب أن يكون في غاية القوة ودون هوادة.

٦- إشارة تدل على أن هذا الأنموذج من المؤمنين قد بدأ للنظارة غنياً مع شدة حاجته وعوزه.

٧- إشارة توحي بالإنفاق عليهم خفية، خشية أن تجرح كرامتهم او يخدش إباؤهم.

٨- إشارة تدل على أن الجزاء من جنس العمل.

٩- إشارة تدل على طمأنة المؤمنين الذين ينفقون خفية بأن أعمالهم يعلمها الله سبحانه... الخ.

---

(١) البقرة، ٢٧٣.

انظـــر - رعاك الله- إلى كم استوعبت هذه الكلمات القلائل من الإشارات والإيحـــاءات الكثيرة، دون أن تؤثر على روعة الإبداع في التعبير، بالإضافة إلى أنك تستطيع أن تستبين هذه المعاني دون كدّ خاطر.

" ومهما تعددت الأمثلة من كتاب الله الحكيم، فإنها لن تخرج عن نطاق هذا البيان الواضح مع ذلك الإجمال الدقيق في الغالب الأعم من آياته"(١).

ولـــنقرأ قوله تعالى: (لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(١٩٦)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(١٩٧))(٢).

ثـــم نـــتأمله حق تأمل أو نكرر قراءتها مرات ومرات، وننظر كيف جمع القـــرآن فـــي هـــذا التعبير المصوِّر المعاني الكثيرة، حقاً إنها ألفاظ وجيزة، لكنها احـــتوت من المعاني الجمة الكثيرة، التي لا حصر لها. وإني أدعوك أن تنظر إلى ما في هذا التعبير من مرونة، كما أدعوك أن تقف على ما أورده أهل علم التأويل من العلماء وانظر إلى معترك أفهام العلماء في هذه الآية وغيرها، فإني على يقين أنك سترى العجب العجاب الذي ينبيء عن المعنى الوافر الثري في اللفظ القاصد النقي.

ولـــو قلـــت في معنى هذه الآية: لا تغتروا أيها المؤمنون بما هو عليه أهل الكفر من الجاه والشهوة والمال وسعة العيش ، فإنما هو قليل إذا ما قيس بجانب ما أدخره الله لكم من الجزاء يوم القيامة في الجنة، لأصبت أو جانبت الصواب، ولو قلـــت: لا تغـــتروا أيهـــا المؤمنون بما عليه أهل الكفر من النعم في امتلاك الدنيا واتساع العيش وحرية الحركة والتنقل أينما شاءوا فإنما هو قليل ولا قيمة له إذا ما قـــيس بنعـــيم الآخـــرة، لأصـــبت أو جانبت الصواب، ولو قلت: لا يغرنكم أيها المؤمـــنون بمـــا هو عليه أهل الكفر من امتلاكهم لمتاع الدنيا وملذاتها وشهواتها، فإنمـــا هو غرور غرهم الشيطان به، ليبعدهم عن جادة الصواب، وبئس ما مهدوا لأنفســـهم، إذ نهايتهم جهنم وبئس المصير، لأصبت أو جانبت الصواب، ولو قلت:

---

(١) الصورة الأدبية في القرآن الكريم، د. صلاح الدين عبد التواب، ص ١٦٤.

(٢) آل عمران، ١٩٦-١٩٧.

الدعـــاء إلا جـــرس النغمة ودويّ الصوت، من غير أذهان ولا استبصار - كمثل الناعق بالبهائم، التي لا تسمع إلا دعاء الناعق ونداءه الذي هو تصويت بها وزجر لهـــا، ولا تفقه شيئاً آخر ولا تعي، كما يفهم العقلاء ويعون. ويجوز أن يراد بما لا يســـمع: الأصـــم الأصلخ، الذي لا يسمع من كلام الرافع صوته بكلامه إلا النداء والتصويت لا غير، من غير فهم للحروف، وقيل معناه: ومثلهم في اتباعهم آباءهم وتقليدهم، كمثل البهائم التي لا تسمع إلا ظاهر الصوت ولا تفهم معناه: ومثلهم في دعائهم الأصنام كمثل الناعق بما لا يسمع"(١).

فانظـــر رعـــاك الله - إلـــى مـــا في هذه الآية من الشفوف "والملاسة" (٢) والإحكـــام، ثم انظر إلى قوة بيانها ودقة إجمالها وتسابق مغزاها إلى الفهم دون كد خاطر ، حقاً، إنها تبدو صورة وحقائق ماثلة لا كلاماً ولغات.

هكذا جاءت الصورة النفسية في القرآن الكريم، لقد جاءت بأسلوب لا تجده فـــي غير القرآن، ذلك أنها تخاطب العقل والوجدان وتخاطب الناس على اختلاف أجناســـهم وعلـــى اخـــتلاف مستويات فهمهم وعلمهم. كلاًّ نمدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء الله وفيضه. قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا(١٠٩)﴾ (٣).

---

(١)الكشاف، الزمخشري، ج١، ص ٢١٢.

(٢) الملاسة :ضد الخشونة ، راجع لسان العرب ، ابن منظور ، باب "ملس"

(٣) الكهف، ١٠٩.

لا يغرنكم سلامتهم بتقلبهم في أسفارهم وما لهم من تجائر وأموال واضطراب في البلاد، لأصبت.

كل ذلك تحتمله الآيات وفيه الصواب او ما يجانب الصواب، هذا بالإضافة إلـــى ما تحمله الآيات من معنى التسلية لفقراء المؤمنين والتحذير من الانخداع بما علـــيه أهل الكفر من النعم والتنعم والسعة في العيش فإنما يريد الله ليعذبهم بها يوم القيامة.

وانظـــر كـــيف جـــيء بالألفاظ المعبرة أجمل تعبير وأدقه، إذ في كل لفظ صـــورة وفي كل لفظ معاني جمة، مثلاً: الغرور والمتاع، والقليل والمهاد، وغير ذلك.

ثم انظر إلى الخاتمة أو التعقيب: " وبئس المهاد" أي بئس ما مهدوا لأنفسهم أو بـــئس المكان جهنم، أو بئس النهاية والخاتمة أو بئست العاقبة فقد سلبوا كل ما كانوا يتمتعون به من حرية في الحركة، واضطراب في البلاد وأصبحوا في جهنم لا يملكـــون لأنفسهم إرادة أو حركة، لقد سلبوا كل شيء، هكذا كانت كلمة "المهاد" مغلاقـــاً لكـــل تساؤل يخالج الأنفس حول ما عليه أهل الكفر والضلالة من حركة واتساع وطموح وغرور، إذ "المهاد" من المهد والمهد بحد ذاته يرسم صورة حية لما عليه الطفل من تقييد لحركته إلا أن يحركه غيره.

ولـــنقرأ قولـــه تعالى: (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ(١٧١))[1].

ولنـــنظر هل هناك قدرة على سوق المعاني مشبعة بالأدلة فياضة بالبراهين من هذا في قول البشر؟ ثم هل هناك في عقول الناس ما يشبه هذا القول في قربه من العقول والقلوب مع ما يحمله من سهولة في الإدراك على الخاصة والعامة من الناس؟

ولـــو تـــتدبرنا هـــذه الآية لوجدنا أنها تحتمل عدة معانٍ، فمن ذلك ما ذكره الزمخشـــري " ومـــثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق، أو: ومثل الذين كفروا كـــبهائم الـــذي ينعق. والمعنى: ومثل داعيهم إلى الإيمان -في أنهم لا يسمعون من

---

(١) البقرة، ١٧١.

الخاتمة:

بعد هذه المسيرة من الدراسة الأدبية للصورة النفسية في القرآن الكريم، أودُّ أن أقدِّم في نهاية هذا البحث ملخّصاً بأهم النتائج التي توصلت إليها.

١- فـــي التمهـــيد انتهيـــنا إلى صيغة نهائية في تحديد المصطلح النقدي للصورة النفسية من خلال الاستعانة بمصطلح "الصورة" ومصطلح " الخيال" عند النقاد القدامى والمحدثين. وأكدنا أن السمة الأولى للصورة النفسية هي اتباع طريقة تصوير الحالات النفسية والانفعالات الوجدانية، إنها طريقة لتصوير ما يعتلج في النفوس وما يختلج فيها، وإبرازها للنظارة وكأنها أمر مشاهد محسوس.

٢- وقـــد تم في الفصل الأول دراسة الصورة النفسية في ثلاثة محاور من القرآن الكـــريم هي: محور المؤمنين، ومحور الكافرين، ومحور المنافقين، بالإضافة إلـــى دراسة الصورة النفسية في نماذج من القصص القرآني، وقد تم التوصل إلـــى أن الصورة النفسية كشفت النقاب عن خبايا النفوس، وخفاياها وأظهرتها للعـــيان علـــى مـــا هي عليه من حسن أو قبح، وكانت تلك العناية من القرآن بإبـــراز تلك الصفات والخصائص بأسلوب فني بديع يثير في النفس انفعالات وجدانية تترك أثرها فيها.

٣- وتـــم في الفصل الثاني دراسة وظيفة الصورة النفسية في القرآن الكريم، من خلال الموعظة والاعتبار، وسبر أغوار النفس، والتشريع، ففي الأولى تبين لنا أن الصـــورة النفســـية فـــي القرآن تجمع بين جانبين: الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية، إذ كانت تتفجر منها الرحمة والبشرى للمسلمين وفي المقابل ينبجس منها الإنذار والتهديد والوعيد لغير المسلمين.

وفي الثانية، وجدنا أنها تشق السجوف عن مضمرات النفوس بعد أن تتوغل فـــي أعماقها فتكشفها للنظارة إيجابية أو استلابية، وهي بذلك تضفي على التعبير القرآني إعجازاً تبليغياً.

وفـــي الثالـــثة وجدنـــا أنها تتضمن كثيراً من الأحكام التشريعية التي يمكن استنباطها من خلال دقة النظر وقوة الاستلال والرؤية وطول الأناة والتدبر، إذ هي بغاية الدقة.

٤- وقـد تـم فـي الفصل الثالث دراسة مجموعة من الخصائص التي تتميز بها الصـورة النفسـية في القرآن، منها: التناسق الفني، إذ تمتاز الصورة النفسية بتناسـق فني بين المفردات والمعاني والجمل، مما يشكل وحدة انسجامية من حيث الدقة والقوة ومن حيث الإثارة والتأثير، ومن حيث الهدف الذي من أجله صيغت الصورة.

ومنها: الإبداع في عرض الصور، إبداعٌ في عرضها وطريقة نسجها وقوة نسـقها بحيـث تـراها العيـن وتتملاها النفس ويستوعبها العقل، ويتابعها الخيال ويستغرق فيها الحس، وتتراءى في الظلال، وفوق ذلك تثير الانفعال وتترك أثرها فيه.

ومـنها خاصية التقابل أو المقابلة: وتبين لنا أنها إحدى طرق العرض في القرآن الكريم، وسمة بارزة فيه، ووجدنا أن القرآن يتخذ من المقابلة بين صورتين نفسيتين، وسيلة للتوضيح والتشخيص والتأثير والإبانة.

ومـنها: خاصـية الإيجـاز: وتبين لنا أن القرآن باستخدامه لهذه الخاصية يستثمر برفق وأناة أقل ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني.وهو فـي ذلك لا يجاوز سبيل القصد ولا يميل إلى الإسراف، بل كل ما جاء فيه كامل العناصر في أقل ما يمكن من الألفاظ.

ومـنها: خاصـية الإقناع العقلي والتأثير الوجداني، وتبين لنا أن الصورة النفسـية تمتاز بالبيان الواضح الجلي القوي، وفي الوقت نفسه تقوم على الإجمال الدقيق.

هـذه أهـم النـتائج التي توصلت إليها هذه الرسالة، عرضتها في الخاتمة بإيجـاز، وبعـد: فالرسالة محاولة جديدة ومتواضعة، التزمت فيها وصية العلماء القدامى والمحدثين، إلى ضرورة وأهمية دراسة القرآن دراسة أدبية تخضع للذوق العربـي الأصيل، وتعتمد على الحس الفني، وإن ما ذكرته في الرسالة لا يتعدى كونـه صورة موجزة لما يحتويه القرآن من فن وروعة وجمال وإعجاز، لذا فإني أدعو أصحاب الاستعدادات والمواهب أن يجعلوا لهم في بحر القرآن مسبح، إذ فيه

من الكنوز والأسرار الفنية والأدبية والنقدية ما لا حصر له ، كيف لا وهو الذي لا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه ولا يشبع منه العلماء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله الرب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الأنبـــياء والمرســـلين وآلـــه الطاهرين الطيبين والصحابة الغر الميامين والتابعين بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً.

المصادر والمراجع:

-**القرآن الكريم.**

-**الآحاد والمثاني** . الشيباني ، أحمد بن عمرو بن الضحاك ،(١٩٩١) تحقيق باسم فيصل الجوابره،ط١ ،دار الراية، الرياض.

-**الإتقان في علوم القرآن** . السيوطي ، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن، (١٩٩١) ، ط٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

-**أسرار البلاغة** . الجرجاني ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن ، شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي ، (١٩٧٦) ، ط٢ ، مكتبة القاهرة ، القاهرة.

-**الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية.** مجيد عبد الحميد ناجي ، (١٩٨٤) ، ط١ ، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت.

-**أسلوب القرآن في كشف النفاق** . عبد الحليم حفني ، (١٩٩٠) ، د.ط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر.

-**أسلوب الوعيد في القرآن الكريم** . عبد الحليم حفني ، (٢٠٠٠) ، ط١ ، مكتبة الآداب ، القاهرة.

-**أصول النقد الأدبي** . أحمد فؤاد الشايب ، (١٩٧٣) ، د.ط ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة.

-**الإعجاز الفني في القرآن** . عمر السّلامي ، (١٩٨٠) ، د.ط ، نشر وتوزيع مؤسسة عبد الكريم بن عبدالله ، تونس.

-**إعجاز القرآن الكريم والبلاغة النبوية** . مصطفى صادق الرفاعي ، (١٩٩٧) ، ط١ ، مكتبة الإيمان ، المنصورة ، مصر.

-**الإعجاز القرآني أسلوباً ومضموناً** . شلتاغ عبود ، (١٩٩٣) ، ط١ ، دار المرتضى ، بيروت.

-**أوضح المسالك إلى ألفية بن مالك** . ابن هشام ، جمال الدين بن يوسف بن هشام الانصاري (١٩٩٠) ، د.ط ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت.

-**استقبال النص عند العرب** . محمد المبارك ، (١٩٩٥) ، د.ط المؤسسة العربية للدراسات ، بيروت.

-**بناء الصورة الفنية في البيان العربي** . كامل حسن البصير ، (١٩٨٧) ، د.ط ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، العراق.

-**بنو إسرائيل في القرآن والسنة** . محمد سيد طنطاوي ، (١٩٧٣) ، ط٢ ، دار مكتبة الأندلس ، بنغازي ، ليبيا.

-**البيان والتبيين** . الجاحظ ، أبو عثمان عمر بن بحر ، تحقيق عبد السلام هارون، ط١، د.ت ، دار الجيل ، بيروت.

-**تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن** . ابن أبي الإصبع المصري ، مكتبة القاهرة ، د.ت.ط.

-**التصوير الفني في القرآن الكريم** . سيد قطب ، (١٩٧٩) ، ط٥ ، دار الشروق، القاهرة.

-**التعبير القرآني** . فاضل السامرائي ، (١٩٨٩) ، ط١ ، جامعة بغداد ، بغداد.

-**التعريفات** . الجرجاني ، علي بن محمد ، (١٩٩٥) ، د. ط ،دار الكتب العلمية، بيروت.

- **تفسير البحر المحيط** . الأندلسي، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيّان ، تحقيق الشيخ عادل أحمد الموجود ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

- **تفسير روح المعاني** . الألوسي ، شهاب الدين السيد محمود ، ضبط علي الباري عطية،(١٩٩٤) ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

-**تفسير الشعراوي**. الشعراوي ، محمد متولي ، **أخبار اليوم** ، د.ت.ط، قطاع الثقافة ، مصر.

-**تفسير الطبري** : الطبري ، محمد بن جرير ، تحقيق بشار عواد معروف، (١٩٩٤)، ط١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت.

-**تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان** . النيسابوري ، نظام الدين الحسن بن محمد ، ضبط الشيخ زكريا عميرات ، (١٩٩٦) ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

-**التفسير الكبير** .الرازي ، محمد الرازي فخر الدين ابن ضياء الدين عمر ، ضبط فضيلة الشيخ خليل محي الدين المنيس ، (١٩٩٣) ، ط١ ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت.

- **تفسير الكشاف** . الزمخشري ، أبو القاسم جار الله محمد بن عمر محمد ، تحقيق محمد عبد السلام شاهين (١٩٩٥) ، د.ط ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

-**الجامع لأحكام القرآن** . القرطبي ، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري ، (١٩٩٣) ، د.ط ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

-**جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير** . أحمد ياسوف ، (١٩٩٤)، ط١ ، دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق.

-**الحيوان** . الجاحظ ، أبو عثمان عمر بن بحر ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، (١٩٨٨) ، د.ط ، دار الجيل ، بيروت.

-**خصائص التشبيه في سورة البقرة** . إبراهيم علي حسن داود ، (١٩٨٦) ، ط١، مطبعة الأمانة ، مصر.

-**دراسات في النفس الإنسانية** . محمد قطب ، (١٩٨٢) ، ط٣ ، دار الشروق ، بيروت.

-**دلائل الإعجاز** . الجرجاني ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن،(١٩٨١) ، تحقيق أحمد شاكر ، د.ط ،دار المعرفة ، بيروت.

-**ديوان زهير ابن أبي سلمى** . زهير ابن أبي سلمى ، (١٩٦٤) ، د.ط ، دار صادر ، بيروت.

-**ديوان عروة بن الورد** . عروة بن الورد ، ، (١٩٩٥) ، شرح وتقديم عمر فاروق الطباع ، د.ط ، دار القلم للطباعة والنشر ، بيروت.

-**روائع الإعجاز في القصص القرآني** . محمود السيد حسن ،(١٩٨٠) ، د.ط ، المكتب الجامعي الحديث ، الإسكندرية ، مصر.

-**السـيرة النـبوية**. ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري ، (٢٠٠٠)، وضح حواشيه وخرّج أحاديثة الشيخ فؤاد بن علي حافظ،ط ١، دار الكتب العلمية.

-**الشخصية اليهودية من خلال القرآن** . صلاح عبد الفتاح الخالدي ، (١٩٨٧) ، ط١، دار القلم ، دمشق.

-**الشعب الملعون في القرآن الكريم** . محمود بن الشريف ، (١٩٨٨) ، د.ط ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان.

-**شـعراء مصـر وبيئاتهم في الجيل الماضي** . عباس محمود العقاد :(١٩٨١) ، د.ط، القاهرة ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر.

-**الشيخ محمد متولي الشعراوي وقضايا العصر** . أحمد زين ، (١٩٨٨) ، ط٢ ، مكتبة التراث الإسلامي القاهرة ، دار الجيل ، بيروت.

-**صحيح مسلم** . مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت،د.ط.ت.

-**الصناعتين** . أبو هلال العسكري ، الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، تحقيق علي محمد البجماوي ومحمد أبو الفضل ، (١٩٧١) ، د.ط ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة.

-**الصورة الأدبية في القرآن الكريم** . صلاح الدين عبد التواب ،(١٩٩٥) ، ط١ ، مكتبة لبنان ،الشركة العالمية للنشر ، لونجمان.

-**الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث** . بشرى موسى صالح ، (١٩٩٤) ، ط١ ، المركز الثقافي العربي ،بيروت.

الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي . جابر عصفور ، (١٩٩٢) ، ط٣ ، المركز الثقافي العربي ، بيروت.

-**الصورة الفنية في المثل القرآني** . محمد حسين علي الصغير ،(١٩٩٢) ، ط١، دار الهادي ، بيروت.

-**الصورة الفنية في شعر ابن دراج القسطلي** . أشرف علي زعرور ،(١٩٩٦) ، د.ط ، مكتب نهضة الشرق ، جامعة القاهرة.

-**الطبيعة في القرآن الكريم** . كاصد ياسر الزيدي ، (١٩٨٠) ، د.ط ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، دار الرشيد ، العراق.

-**الطـــراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الاعجاز** . يحيى بن حمزة العلوي ، (١٩٩٥) ، تحقيق محمد عبد السلام شاهين ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

- **طـــرق العـــرض فـــي القـــرآن** . بن عيسى باطاهر ، حوليات الآداب والعلوم والاجتماعية ، (٢٠٠١-٢٠٠٢) ، الحولية ٢٢ ، جامعة الكويت ، الكويت.

-**عـــبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده** . أحمد مطلوب ، (١٩٧٣) ، د.ط ،وكالة المطبوعات ، بيروت.

-**علم النفس القرآني والتهذيب الوجداني** . عبد العلي الجسماني ، (١٩٩٦) ، ط ١ ، الدار العربية للعلوم ، بيروت.

-**الفروق اللغوية** . العسكري ، الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهـــران ، ضـــبط أحمـــد ســـليم الحمصي ، (١٩٩٤) ، ط١ ، جرورس برس ، طرابلس ، لبنان .

-**فصـــل المقـــال في شرح كتاب الأمثال** . أبو عبيد البكري ، القاسم بن سلاّم ، تحقيق إحسان عباس ، (١٩٨١) ، دار الأمانة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت.

-**فقه السنة** . السيد السابق ، (١٩٨٧) ، ط٨ ، دار الكتاب العربي.

-**فنون التبليغ القرآني ونظرياته** . إحسان عسكر ، (١٩٨٦) ، ط١ ، دار النهضة العربية ، مصر.

-**في ظلال القرآن** . سيد قطب ، (١٩٨٨) ، ط١٥ ، دار الشروق بيروت.

-**فـــي نحـــو اللغـــة وتراكيبها** . خليل أحمد العمايرة ، (١٩٨٤) ، ط،١ ، عالم المعرفة للنشر والتوزيع ، جدة ، السعودية.

-**في النقد الأدبي والتحليل النفسي** . خريستو نجم ، (١٩٩١) ، ط١ ، دار الجيل بيروت.

-**القرآن الكريم والسلوك الإنساني** . محمد بهائي سليم ، (١٩٨٧) ، د.ط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

-**القــرآن وعلم النفس** . محمد عثمان نجاتي ، (١٩٨٢) ، د.ط ، دار الشروق ، الكويت.

-**قــراءات مــع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون** . عبد السلام المسدّي ، (١٩٨١) ،د.ط ، نشر الشركة التونسية للتوزيع ، تونس.

-**القصــة فــي القــرآن الكــريم** . محمد سيد طنطاوي ، (١٩٩٥) ، ط١ ، دار المعارف ، مصر.

-**قصــص الأنبــياء** . الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، (١٩٩٥) ، د.ط ، مكتبة أصول السلف ، الرياض.

-**قصــص الرحمــن في ظلال القرآن** . أحمد فايز الحمصي ، (١٩٩٥) ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت.

-**القصــص القرآنــي** . فضل حسن عباس ، (١٩٩٢) ، ط٣ ، دار القلم للطباعة والنشر ، عمان.

-**كشــف الخفــاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس.** الجراحــي ، إســماعيل بــن محمــد العجلوني ،(١٤٠٥هــ)، ط٤ ، تحقيق أحمد القلاش، دار مؤسسة الرسالة ، بيروت.

-**كمال البغية في أحاديث الحلية.** مخيمر صالح،(٢٠٠٠)، ط١ ،جامعة اليرموك ، عمادة البحث العلمي والدراسات العليا ،اربد.

-**لســان العــرب** . ابــن منظور ، محمد بن مكرّم بن علي بن أحمد الأنصاري، (١٩٩٣) ، ط٣ ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت.

-**لطائف الإشارات** . القشيري النيسابوري ،عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك ، ضــبط عــبد اللطيف حسن عبد الرحمن ، (٢٠٠٠) ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

-**مخاصــمة المنافقيــن في القرآن** . محمد أبو زيد أبو زيد ، (١٩٩٩) ، ط١ ، مكتبة الجيل الجديد ، صنعاء.

-**مصــنف ابــن أبــي شيبة** . أبو شيبة ، أبو بكر عبدالله بن محمد بن الكوفي ، (١٤٠٩هــ)، ط١، تحقيق كمال يوسف الحوت ، مكتبة الرشد ،الرياض.

-**معجزة القرآن الكريم** . الشعراوي ، محمد متولي ،(١٩٨٥)، ط١ دار العودة ، بيروت.

-**معجم مقاييس اللغة** . ابن فارس ، أبي الحسين أحمد بن زكريا ، تحقيق عبد السلام هارون، د.ت.ط ، دار الجيل ، بيروت.

-**مع قصص السابقين في القرآن** . صلاح عبد الفتاح الخالدي ، (١٩٨٩) ، ط١، دار القلم ، دمشق.

-**المفردات في غريب القرآن** . الراغب الأصفهاني ، أبي القاسم الحسين بن محمد، د.ت.ط ، دار المعرفة ، بيروت.

-**المقابلة في القرآن الكريم** . بن عيسى باطاهر ، (٢٠٠٠) ، ط١ ، دار عمان للنشر والتوزيع ، عمان.

-**المنافقون في الأرض** . محمد يوسف السيد ،(١٩٩١)، د.ط ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، مصر.

-**النبأ العظيم** . محمد عبدالله دراز ، د.ت.ط ، دار القلم ، الكويت.

-**نفسية بني إسرائيل في القرآن الكريم** . زاهية الدجاني ، (٢٠٠١) ، ط١ ، دار الفارس للنشر والتوزيع ، الأردن.

-**النكت في إعجاز القرآن** (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن). الرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني ، ، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام،(١٩٦٨) ، ط١ ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر.

-**نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز** . الفخر الرازي ،محمد الرازي فخر الدين بن ضياء الدين عمر ، (١٩٨٥) ، ط١ ، دار العلم للملاين ، بيروت.

ABSTRACT

Psychological Image In The Holy Kuran

By: Mahmud M. Hayajnah

Supervisor Asso.Prof.Dr: *Mukhaimer Saleh*

Keywords: Koran Image Psyche

The present study investigated psychological image in the Holy Koran which is a literature phenomenon deserving exerting such effort. The study attempted, therefore, studying, analyzing, and originating this phenomenon elaborately. Design included a prelude and three chapters as follows:

1- Prelude: Concluded to some a mode by which the critical term of psychological image in the Holy Koran could be identified.

2- Chapter I: Psychological image was studied along this chapter depending three dimensions: believers, infidels and hypocrites in addition to use Koranic vignettes modeling the psychological images.

3- Chapter II: Functionality of the psychological images in the Holy Koran was considered in terms of preachment, admonition, and deeply probing psyche and legislation.

4- Chapter III: Studied a cohort of many characteristics featured the psychological image in the Holy Koran, for example; artistic consistency, innovative image demonstration, appropriateness, conciseness, intellect joyfulness, and emotional influence.

Findings and Recommendations:

1- In the prelude, the critical term of psychological image in the Holy Koran was identified as a word expressive mode aiming at uncovering pros and cons of what is deeply settled in human psyche and delineating the status quo of it that it could be visionary seen.

2- In chapter I, psyche hidden secrets were all barely demonstrated by the psychological image.

3- In chapter II, it was found out that a psychological image characterizes by multiple highly significant functions that makes the Koranic expression miraculous.

4- In chapter III, it was concluded that the psychological image characterized by many features most significant is that it converses with both reason and emotion.

Recommendations:

The researcher calls that experts, professionals and talented researchers for conducting further studies relating to the Koranic text from a literature and rhetorical perspective that employ the original taste of Arabian tongue because the Holy Koran is a reservoir for limitless literature, artistic and critical secrets.

Ultimately, special thanks go to my respectful professor Dr. Mukhaimer Saleh, the supervisor who supported me doing the work with patience and kindness.

Many thanks also go to Discussion & Judgment Committee's members: professors; Dr. Mahmoud Darabseh; Associt Prof Dr. Salem Al-Hadrusi, and Dr. Audeh Abu Audeh for reviewing this work and presenting their kind ratings.